الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

People's Democratic Republic of Algeria

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عين تموشنت بلحاج بوشعيب
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية
نيابة العمادة المكلفة بما بعد التدرج والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Ain Temouchent, Belhadj Bouchaib
Faculty of letters, languages and social sciences
Vice –Deanship in charge of Post-Graduation, Scientific Research and External Relations

مطبوعة

مدخل إلى الأنثروبولوجيا

طلبة السنة الأولى جذع مشترك علوم اجتماعية

الميدان: علوم إجتماعية

الشعبة: علوم إجتماعية

التخصص: جذع مشترك علوم اجتماعية

من إعداد الدكتور: خديجي مختارية

السنة الجامعية: 2025/2024

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
التعريف بالمقياس	
مقدمة	أ-ب
ماهية الأنثروبولوجيا: مدخل نظري	9-27
▪ **أولا. مدخل مفاهيمي تأصيلي**	9
تمهيد	9
1. الأنثروبولوجيا Anthropology (علم الأناسة)	10
2. الإثنوغرافيا Ethnography	11
3. الإثنولوجيا Ethnology (علم النياسة)	12
4. العلاقة بين الأنثروبولوجيا و الإثنوغرافيا والإثنولوجيا	12
استنتاج عام	15
▪ **ثانيا. مدخل تاريخي تأصيلي للفكر الأنثروبولوجي ونشأة العلم**	16
تمهيد	16
1. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي عبر العصور المختلفة	16
1.1. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي في العصور القديمة	17
1.1.1. الفكر الأنثروبولوجي في الكتابات اليونانية	17
2.1.1. الفكر الأنثروبولوجي في الكتابات الرومانية	18
3.1.1. الفكر الأنثروبولوجي في الكتابات الصينية	19
2. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي في العصور الوسطى	20
1.2. أوروبا	20
2.2. في الفكر العربي	21
3. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي في عصر النهضة الأوروبية	26
استنتاج عام	27
النشأة الأكاديمية لعلم الأنثروبولوجيا	28
تمهيد	28
▪ **أولا. الأنثروبولوجيا من الأفكار إلى العلم: مراحل التأسيس**	28

1. الرواد البريطانيون	30
2. الرواد الأمريكيون	31
3. الرواد الفرنسيون	32
استنتاج عام	34
▪ **ثانيا. الأقسام الكبرى للأنثروبولوجيا**	35
1. الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology	35
2. الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology	25
3. الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية Physical Anthropology	37
▪ **ثالثا. موضوع الأنثروبولوجيا وأهدافها**	38
1. موضوع الأنثروبولوجيا وأبعاده المختلفة	39
1.1.موضوع علم الأنثروبولوجيا	39
2.1. أبعاد الدراسات الأنثروبولوجية باختلاف السياق الجغرافي للأنثروبولوجيين	41
أ. الأمريكيون: الأنثروبولوجيا الأمريكية	41
ب. الإنجليز: الأنثروبولوجيا الإنجليزية	41
ت. الفرنسيون: الأنثروبولوجيا الفرنسية	42
3.1. أبعاد الدراسات الأنثروبولوجية باختلاف السياق الزمني-التاريخي للأنثروبولوجيين	43
أ. الأنثروبولوجيا التقليدية	43
ب. الأنثروبولوجيا الحديثة	45
ت. الأنثروبولوجيا المعاصرة	46
4.1. أبعاد الدراسات والمواضيع الأنثروبولوجية وفقا للنظم الاجتماعية والثقافية المركزية	48
أ. الأنثروبولوجيا ونظام الزواج والقرابة	48
ب. الأنثروبولوجيا والدين	49
2. أهداف الأنثروبولوجيا كعلم	50
▪ **رابعا. خصائص الأنثروبولوجيا وأهميتها**	51
1. خصائص الأنثروبولوجيا كعلم إنساني اجتماعي-ثقافي	51
2.أهمية الأنثروبولوجيا	52
1.2. الأهمية الإبستمولوجية – النظرية	52
2.2. الأهمية المنهجية	52
3.2. الأهمية الثقافية	52

4.2. الأهمية العملية	53
علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى وأهم ميادينها	**54**
▪ **أولا. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى**	**54**
1. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الإنسانية	54
2. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية	60
3. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الطبيعية	67
▪ **ثانيا. بعض ميادين علم الأنثروبولوجيا**	**69**
1. الأنثروبولوجيا البيولوجية: دراسة الإنسان عبر المنظور التطوري	69
2. الأنثروبولوجيا الثقافية: استكشاف أنماط الحياة والمعتقدات	69
3. الأنثروبولوجيا الاجتماعية: فهم البناء الاجتماعي والديناميات الجماعية	69
4. الأنثروبولوجيا اللغوية: اللغة كمرآة للثقافة	70
5. الأنثروبولوجيا السياسية: تحليل السلطة والأنظمة الحاكمة	70
6. الأنثروبولوجيا التاريخية أو الآثارية: البحث في ماضي البشرية	71
7. الأنثروبولوجيا الاقتصادية: البحث في أنماط معيشة المجتمعات	71
استنتاج عام	**72**
مدخل منهجي نظري لأهم مناهج ونظريات الأنثروبولوجيا	**134-74**
▪ **أولا. أهم المناهج في الدراسات الأنثروبولوجية**	**74**
1. المنهج الميداني (الدراسات الحقلية الميدانية Fieldwork in Anthropology)	75
2. المنهج الوصفي أو الإثنوغرافي	80
3. المنهج التاريخي	80
4. المنهج المقارن	80
5. المنهج البنيوي	80
▪ **ثانيا. المدارس الكبرى والاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا**	**81**
1. المدرسة التطورية (Evolutionism)	**81**
1.1. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها	81
2.1. من أهم رواد النظرية التطورية	82
3.1. الانتقادات الموجهة للنظرية التطورية	92
استنتاج	**94**
2. المدرسة الانتشارية (Diffusionism)	**94**

1.2. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها	94
2.2. من أهم رواد النظرية الانتشارية	97
أ. المدرسة الألمانية النمساوية: الانتشار الدائري	97
ب. المدرسة البريطانية	98
ت. المدرسة الأمريكية	98
2.3. الانتقادات الموجهة للنظرية الانتشارية	102
استنتاج	103
3. المدرسة الوظيفية والبنائية (Functionalism and Structuralism):	103
1.3. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها	103
2.3. أهم رواد الاتجاه الوظيفي البنائي	107
3.3. الانتقادات الموجهة للنظرية البنائية الوظيفية	110
استنتاج	111
4. المدرسة البنيوية (Structuralism)	111
1.4. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها	111
2.4. أهم رواد الاتجاه البنيوي	112
3.4. الانتقادات الموجهة للنظرية البنيوية	115
استنتاج	116
5. مدرسة التحليل النفسي في الأنثروبولوجيا (الثقافة والشخصية)	116
1.5. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها	116
2.5. أهم رواد مدرسة الثقافة والشخصية	119
3.5. الانتقادات الموجهة لنظريات مدرسة الثقافة والشخصية	124
استنتاج	124
استنتاج عام	125
الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال: المنطلقات والأسس	126
تمهيد	126
أولا. منطلقات الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال	126
ثانيا. الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية: مقاربات فكرية ومضامين معرفية	127
1. دراسة هانوتو ولوتورنو: إثنوغرافيا الوظيفة السياسية	128
2. بيار بورديو: من إثنوغرافيا الاستعمار إلى سوسيولوجيا الهيمنة	129
3. إدموند دوتي: الدين الشعبي والطرق الصوفية	131

4. إميل ماسكاري: القبيلة والبنية الاجتماعية	132
5. أندريه بيير: الريف كمجال إثنوغرافي	132
6. جاك بيرك: السوسيولوجيا التأملية للمجتمع الاستعماري	133
7. رونيه باسيه: اللغة والتعدد الثقافي	133
استنتاج عام	**134**
الأنثروبولوجيا الرقمية: الإنسان في عصر التكنولوجيا	**135**
تمهيد	135
أولا. الأنثروبولوجيا الرقمية: المفهوم والمنطلق	135
ثانيا. الأنثروبولوجيا الرقمية: المفاهيم والمجالات	136
استنتاج عام	**137**
الخاتمة	**139**
قائمة المصادر والمراجع	

التعريف بالمقياس

- **عنوان الليسانس:** السنة الأولى جذع مشترك-علوم اجتماعية
- **السداسي:** الأول
- **اسم المادة:** مدخل إلى الأنثروبولوجيا
- **الرصيد:** 05
- **المعامل:** 02
- **الحجم الساعي خلال السداسي:** 45 سا
- **الحجم الساعي الأسبوعي:** 1ساو 30 د (محاضرة) 1ساو 30د (أعمال موجهة)
- **طريقة التقييم:** مراقبة مستمرة (40%) + امتحان (60%)

- معرفة ظروف نشأة الأنثروبولوجيا وتطورها.

-معرفة رواد الأنثروبولوجيا وإسهاماتهم.

-معرفة هوية الأنثروبولوجيا:

موضوعها-مفاهيمها-مناهجها-نظرياتها

-معرفة علاقة الأنثروبولوجيا ببعض العلوم الأخرى وميادينها.

المكتسبات القبلية:

-مكتسبات في بعض المفاهيم الاجتماعية

-قدرات أولية على التحليل والتنظير

-معارف حول التطور التاريخي للإنسانية

- **مقدمة:**

يُعتبر **"الإنسان"** وحدة بحث أساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية باعتباره **كائنا بيولوجيا واجتماعيا ثقافيا** في نفس الوقت.

الأمر الذي جعل أهمية العلوم الاجتماعية تأخذ حيّزا واضحا في سياق الدراسات، التي تسعى لتفسير **السلوكات البشرية** ومحاولة فهمها في نطاق البحث عن **المعنى الاجتماعي والثقافي**، الذي يُرافق **الفرد الاجتماعي عبر التاريخ**.

لهذا يُعتبر تتبع **سيرورة الحياة الإنسانية بتعدد ثقافاتها وأشكالها و أنماط تمظهراتها** من أهم مواضيع الأنثروبولوجيا كتخصص أكاديمي عرف محطات مهمة في نشأته وتطوره وبناءه **الإبستمولوجي (المعرفي) والمنهجي**.

خاصة وأنّ الأنثروبولوجيا ارتبطت ارتباطا وثيقا بالإنسان والتاريخ من جهة وبالاعتقاد والممارسة من جهة أخرى.

وعليه يُعتبر البحث في **ماهية الأنثروبولوجيا** بالنسبة للمتخصصين في العلوم الاجتماعية أمرا ضروريا ومُلِحا يعكس أهمية التخصص في مجاله العام من جهة، وأهميته ذات الطابع الاستكشافي من جهة أخرى.

وهنا تتجلى **أهمية مقياس " مدخل إلى الأنثروبولوجيا"**[1]، التي تكمن إجمالا لا تفصيلا في إمداد الدارس والمختص بأهم النظريات المفسرة والفاهمة للسيرورة التطورية في الثقافة الإنسانية بكل **أبعادها: السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية** منها، الأمر الذي يعكس ذلك الإنتاج المستمر للمعرفة، في محاولات جادة لوضع **المجتمع وثقافته و أنظمته محلّ الدراسة والوصف والتحليل الأنثروبولوجي.**

وعليه تتمثّل **الكفاءة الختامية** لهذا المقياس في قدرة الدارس أو الطالب على تحقيق ما يلي:

- التعرّف على الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والإثنوغرافيا والعلاقة بينها.
- التعرّف على تجليات الفكر الأنثروبولوجي وجذوره التاريخية وكذا دور الرحلات الاستكشافية عبر العصور المختلفة في نشأة هذا العلم.
- البحث في التقاطعات المنهجية والمعرفية الإبستيمية بين الأنثروبولوجيا كعلم ومختلف العلوم الأخرى (العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الطبيعية).
- استشعار وفهم تلك التراكمية التعاقبية والتزامنية في ميلاد النظرية الأنثروبولوجية عبر التاريخ.
- البحث في التقاطعات المنهجية والمعرفية الإبستيمية بين مختلف النظريات الأنثروبولوجية التقليدية الحديثة والمعاصرة.
- التركيز على البُعد النقدي في بروز وانبثاق كل نظرية وصِلَتِها بالسياقات الثقافية والاجتماعية المختلفة والمتباينة للمجتمعات والجماعات العِرْقِية والتي أدّت لانبثاقها ووجودها.
- اكتشاف سيميائية (دلالة) المفاهيم الأنثروبولوجية في كل نظرية واستظهار ملامحها على المستوى الواقعي المعيش.

[1] أعزائي الطلبة للتعرّف أكثر على كل ما يخص مقياس مدخل إلى الأنثروبولوجيا يمكنكم الاطلاع على العرض التعليمي التعريفي المقدّم على قناتي التعليمية من خلال هذا الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=iQyyKMY0uEk

- محاولة بناء رصيد معرفي نظري وتشكيل إطار مصطلحي مفاهيمي ذا طابع أنثروبولوجي لتوظيفه لاحقا في إطار الأبحاث المقررة ضمن التخصص العام "العلوم الاجتماعية"، والخاص: الأنثروبولوجيا.

➢ ولتوجيه ذلك سنحاول من خلال هذا المقياس الإجابة على التساؤلات التالية:

- ✓ ما ماهية الأنثروبولوجيا كعلم مستقل بذاته وما الصلة الموجودة بينه وبين الإثنوغرافيا والإثنولوجيا؟
- ✓ كيف نشأت الأنثروبولوجيا وما تجليات الفكر الأنثروبولوجي من خلال استعراض الرحلات الاستكشافية عبر التاريخ؟
- ✓ ما هي عوالم وحدود العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى؟
- ✓ ما الذي يميز الأنثروبولوجيا عن باقي العلوم وما نقاط تمايزها وما أهميتها؟
- ✓ ما هي فروع هذا العلم وما أهم مناهجه؟
- ✓ ما هي أهم الاتجاهات النظرية في علم الإنسان، وما هي أهم أبعادها المنهجية والإبستيمية؟
- ✓ ما هي أهم الدراسات الأنثروبولوجية للجزائر قبل الاستقلال وما أبعادها.

وفيما يلي عرض ذلك وفقا للمقرر السابق ذكره:

ماهية الأنثروبولوجيا: مدخل نظري

أولا. مدخل مفاهيمي تأصيلي:

منذ أن بدأ الإنسان في استكشاف بيئته الاجتماعية والثقافية، برزت الحاجة إلى أدوات علمية لفهم تعقيداته وسلوكه عبر الزمن. ومن هنا، ظهرت مجموعة من العلوم والمناهج التي تهدف إلى تحليل الإنسان في سياقاته المتنوعة، إذ تُعَدُّ **الأنثروبولوجيا** واحدة من أبرز هذه العلوم التي تتناول الإنسان في مجمل جوانب حياته الثقافية والاجتماعية، حيث تهدف إلى تقديم صورة شاملة عن كائن الإنسان في بيئته، غير أنّ دراسته لا تتوقف عند هذه الحدود، بل وجب تطوير مجموعة من الأدوات والمناهج التي تُساهم في توسيع نطاق الفهم لهذه الكائنات البشرية في ثقافاتها المختلفة، بداية بالوصف والتحليل وصولا للتصنيف والمقارنة والتنبؤ ومن ثمّ تحقيق الفهم.

وما بين السعي لفهم التنوع الثقافي واكتشاف البُنى الاجتماعية وطبيعتها، يتم التعامل مع مفاهيم متعددة مثل الإثنولوجيا والإثنوغرافيا، وهما من المناهج التي تلعب دورًا محوريًا في الدراسات الأنثروبولوجية، بل تعتبرا العمود الفقري لها كتخصصات مهمة. وعلى الرغم من أنّ هذه المصطلحات قد تبدو متقاربة في الكثير من الأحيان، إلّا أنّ هناك اختلافات جوهرية فيما بينها تتعلّق بكيفية دراسة الإنسان وتوثيق سلوكياته:

- فما هي الأنثروبولوجيا ؟
- وما المقصود بالإثنوغرافيا والإثنولوجيا ، وما الصلة الموجودة بينها وبين الأنثروبولوجيا ؟

1. الأنثروبولوجيا Anthropology (علم الأناسة):

كلمة أنثروبولوجيا مشتقة من كلمتين: **Anthropos** وتعني **الإنسان** و **Logos** وتعني **الكلمة، الموضوع، الدراسة، العلم**، فالأنثروبولوجيا هي **علم الإنسان**[1].

يعتبر **عالم النفس الألماني "روش" " Rouch** " أول من استخدم مصطلح أنثروبولوجي **عام 1841م** كمفهوم فلسفي يتصل بدراسة النفس الإنسانية، ثمّ نُقِلَ هذا المصطلح للتركيز على دراسة السلالات البشرية وأعطاه المعنى التالي[2]:

"دراسة المؤثرات الخارجية التي يخضع لها العقل الإنساني والتغيرات التي تتم بمقتضى تلك المؤثرات".

ويرى العالم الأمريكي **"فرانزبواس"** بأنه علم يدرس الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا، حيث يتم دراسة ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانية دون تحديد زماني أو مكاني، كما تُعرف الأنثروبولوجيا بعلم **"الأناسة"**، وقد ظهرت كلمة الأناسة كعنوان لكتاب أول مرة عند **جيلازوكابالا Gelazo Kabala سنة 1533** في كتابه المؤلف من ثلاثة أجزاء، فقد عالج في الجزء الأول منه كرامة الإنسان وقيمته، ودرس في الجزء الثاني النزوع الجنسي عند المرأة، ووصف في الجزء الثالث ما يعاني منه الإنسان من نقص وفقر في القدرات، وبالتدريج تحققت خلال هذين القرنين المسافة المحررة من إرث الفكر الكلامي (الثيولوجي)، وبنفس التدريج تحقق كذلك توجه نحو الفرد

---

[1] فريديريك معتوق، ***معجم العلوم الاجتماعية (انجليزي-فرنسي-عربي-أكاديمي)***، أكاديميا أنترناشيونال، بيروت، لبنان،1998، ص.42.

[2] بريتشارد إفنز، ***الأناسة المجتمعية وديانة البنائيين في نظرية الأناسين***، ترجمة حسن قيسي، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1986، ص.8.

الإنساني كما نجد ذلك في محاولات **منتانيو Montaño** ،حيث تُعَدُّ ذات الفرد مركز تأمله الأناسي[1] . وقد أصبحت الأناسة مع تطور المجتمع المدني وفلسفة التنوير **علما للإنسان**.

ولقد أُسْتُعْمِلَت لفظة **"الأناسة المجتمعية"** في **إنجلترا** وإلى حد ما في **الولايات المتحدة الأمريكية** للدلالة على فرع معيّن من الأناسة، والتي هي دراسة الإنسان من أوجه مختلفة، وتَنْصَبُ دراستها على المجتمعات والثقافات البشرية، أمّا في **أوروبا** فالقاموس اللفظي في هذا المجال مختلف، فعندما يتكلّم الأوروبيون عن الأناسة التي تعني لدينا دراسة الإنسان ككل، فهم يذهبون إلى ما نسميه في إنجلترا الأناسة الجسدية، أي دراسة الإنسان من الناحية الحيوية، أمّا ما يسميه الإنجليز الأناسة المجتمعية فهو يسمى في أوروبا النياسة أو الاجتماعيات[2].

وحتى في إنجلترا لم تتخذ عبارة الأناسة المجتمعية معناها الحالي إلاّ منذ وقت قصير حسب ما يشير إليه **"إيفنز بريتشارد" Evans-Pritchard**، فقد تمّ تعليم هذه المادة تحت اسم الأناسة أو النياسة منذ 1844 م في أكسفورد، ومنذ 1900م في كمبرج، 1908م في لندن، إلى أن أُسْتُحْدِثَ أول كرسي جامعي حمل اسم الأناسة المجتمعية ليفربول 1908 وقد شغله "جيمس فريزر" **James Frazer** ثمّ بدأ الاهتمام التدريجي بهذه المادة[3].

غير أنّ الأناسين (الأنثروبولوجيين) عندما يسعون إلى إعادة ترتيب تاريخ الشعوب البدائية، تلك التي لا تملك مخطوطات تاريخية مكتوبة، يجدون أنفسهم مضطرين إلى الانطلاق من استنتاجات مبنية على أدلة غير مباشرة لكي يصلوا إلى خلافات لا يسعها أن تشكّل على صعيد المعقول إلاّ طائفة من الاحتمالات[4].

في البداية، اهتم هذا العلم بدراسة **المجتمعات البدائية**، حيث يرى بعض الأنثروبولوجيين أنّ ما يميّز هذا العلم عن بقية العلوم كعلم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد وعلم السياسة والتاريخ والجغرافيا، هو تركيزه على المجتمعات البدائية، إلاّ أنّ هذا الرأي لم يعد مقبولا في الوقت الراهن، حيث شمل المجتمعات غير البدائية **كالقروية والبدو الرُحَّل والمجتمعات المتمدنة كالمجتمع الأمريكي والروسي والصين**، شمل كذلك دراسة عمليات الاندماج بين الحضارات. وكذا دراسة الشعوب والسلالات العرقية دراسة تاريخية مقارنة تتم عبر الزمان وتبحث في الأصول الأولى للنوع الإنساني العاقل وتطوره حتى العصر الحالي، ولهذا فهي تهتم بالمقارنة والتحليل من خلال نظرة تاريخية[5]. ويدخل في إطار الأنثروبولوجيا دراسة أصول الحضارات والمناطق الثقافية وهجرة الثقافة وانتشارها من منطقة إلى أخرى والسمات النوعية لكل هذه الثقافات[6].

فالأنثروبولوجيا هي علم الإنسان الذي يدرسه بوصفه كائنًا بيولوجيًا وثقافيًا واجتماعيًا، ويهتم بفهمه في سياقات زمانية ومكانية متنوعة، بحيث يتخذ من الإنسان محورًا لفهم الطبيعة البشرية في مُجملها.

وبالتالي تعتبر **الأنثروبولوجيا** الدراسة الشمولية العلمية للإنسان، وذلك من خلال الاعتماد على المادة الإثنوغرافية والإثنولوجية التي توفرها لها كل من **الإثنوغرافيا والإثنولوجيا**:

فما المقصود بالإثنوغرافيا والإثنولوجيا، وما الصلة الموجودة بينها وبين الأنثروبولوجيا؟ [7]

---

[1] كريستوف فولف، ***علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة***، نقل أبو يعرب المرزوقي، الدار المتوسطية للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2009، ص. 12

[2] بريتشارد إفتز، ***المرجع السابق***، ص.8.

[3] ***المرجع نفسه***، ص.9.

[4] ***المرجع نفسه***، ص.10.

[5] ***المرجع نفسه***، ص.8.

[6] ***المرجع نفسه***، ص.8.

[7] يمكنكم متابعة فديو مفصّل على قناتي التعليمية عبر الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=DEu7NPmQyHI

2. **الإثنوغرافيا Ethnography:**

تعني وصف الشعوب أو وصف الثقافات أو أنها **الدراسة الوصفية** للثقافات المختلفة التي تتعلّق بالشعوب البدائية بصورة خاصة، فهي تسجيل وصفي للثقافات أو دراسة الثقافات دراسة غير تفسيرية في المقام الأول.

نشأ هذا النوع من الدراسات من خلال كتابات الرحالة القدامى الذين كانوا يسجلون كل ما يشاهدونه عن الجماعات المختلفة حضاريا.

الإثنوغرافيا هي منهج بحثي ضمن الأنثروبولوجيا الثقافية والإثنولوجيا، حيث يعتمد على **الملاحظة المباشرة والمشاركة** في الحياة اليومية للمجتمعات المدروسة. ويتمثّل الهدف من **الإثنوغرافيا** في تقديم وصف شامل وموثق لحياة الأفراد والجماعات في سياقاتها الطبيعية. كما يُركز هذا المنهج على الجمع بين الملاحظة الدقيقة ووصف التفاعلات اليومية للأفراد مع بيئاتهم الاجتماعية والثقافية.

وعليه تعتبر **الإثنوغرافيا** دراسة "للحياة الاجتماعية في المجتمعات البسيطة على مستوى **السرد الوصفي** فقط، أي دون الاستدلال بأي نظرية اجتماعية لتحليل مختلف الأنشطة الاجتماعية والنظّم والأنساق الاجتماعية(...)لذلك فإنّ ما يميزها هو اعتمادها على **المونوغرافيا** كأداة منهجية في دراستها التتبعية المسحية والتي تتطلب الاندماج والتكيّف ضمن الجماعات المبحوثة"[1].

ففي حين يسلك السكان الأصليون بمقتضى رؤيتهم للعالم ويَقُصُّون ما يَقُصُّونَه من منطلق هذه الرؤية يأخذ **الإثنوغرافي** على عاتقه **تنظيم الملاحظات والروايات الكثيرة واللامتجانسة** ومن ثمّ ترجمتها حتى تكون قابلة للفهم عند المنتسبين إلى ثقافته هو. وعملية إعداد النصوص الإثنوغرافية هذه هي إلى حد كبير عملية **بناء وصوغ نظري**. أمّا نشاط إنتاج النّص فَقَلما يقوم به النّاس الذين هم موضوع البحث بل هم يمثلون بالتدقيق «**مادة البحث الخام** في متناول الباحث ليستخرج منها النّص، بل إنّ النّص يُنْتِجُه بالأحرى الباحث الميداني الذي ينتخب مادة البحث وينظمها ويؤولها. ومن ثمّ فهو يأخذ على عاتقه مهمة العرض والتبليغ والتمثيل[2].

ومن السمات الرئيسية للإثنوغرافيا نجد:

- ✓ **الملاحظة بالمعايشة والمشاركة**: غالبًا ما ينخرط الباحث في المجتمع المدروس، سواء كان ذلك عن طريق العيش بين الأفراد أو التفاعل المباشر معهم لفترات طويلة.
- ✓ **التوثيق الوصفي**: تقوم الإثنوغرافيا على جمع معلومات وصفية، تهدف إلى تقديم فهم غني ومعقّد للثقافة أو المجتمع المدروس.
- ✓ **التركيز على الحياة اليومية**: تعكس الإثنوغرافيا التفاصيل الدقيقة والمتنوعة للحياة اليومية، التي قد لا تكون ظاهرة في الدراسات الكمية أو التحليلية.

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول بأنّ الإثنوغرافيا هي علم وصف الشعوب والثقافات والمجتمعات المختلفة وصفا يجعلنا نتعرّف عليها وعلى سماتها الخاصة التي تميزها عن غيرها، ونهج الواقعية الإثنوغرافية المشار

---

[1] زنقوفي فوزية، ***الأنثروبولوجيا: مضامين تاريخية ونظرية في علم الإنسان***، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2022، ص.ص: 64-65.

[2] كريستوف فولف، ***المرجع السابق*** ، ص.137.

إليه هذا يقبل الفهم بوصفه محاولة رسم شكل من الحياة ككل بواسطة وصف مفرط وتفصيلي لأحداث ووضعيات عادية وحقيقية تكون في متناول كل مؤلف يدركها بحدسه المباشر[1].

3.الإثنولوجيا Ethnology (علم النياسة):

الإثنولوجيا هي فرع من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، وتختص بدراسة الشعوب والثقافات الإنسانية المختلفة عبر مقارنة سلوكياتهم، عاداتهم، معتقداتهم، وتنظيماتهم الاجتماعية.

وتهدف إلى تحليل أنماط الحياة في المجتمعات المختلفة، مع التركيز على فهم كيفية تكوين هذه المجتمعات للمعنى الاجتماعي والثقافي. إذ يمكن القول أنّ الإثنولوجيا تستند إلى استخدام المنهج المقارن بين المجتمعات البشرية، لتعزيز الفهم العام للتنوع الثقافي.

فهي تُتِيحُ للباحثين مقارنة الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والدينية عبر الثقافات المختلفة، مما يعزز فهمنا للإنسانية وتطوّر المجتمعات.

كما أنّ "أناسة الثقافة أو علم السلاليات أو الإثنولوجيا يمد الأناسة بالكثير من المسائل المهمة. فمن منظورها لا نجد البشر وراء المعقّد البارز من خصائصهم التاريخية والثقافية بل نحن نجدهم فيها، لذلك فإنه لا يكفي أن نتعرّف على الجسد واللغة أو الخيال بوصفها كليات ثقافية بل لا بد من البحث فيها كما تعينت في ثقافات مختلفة. وبالذات فإنّ تنوعها وتعقدها يقدم معلومات منفتحة على البشر. وانطلاقا من مقارنة التعبيرات الثقافية المختلفة حول اللاتماثل بين الثقافات تقدم لنا البحوث في السلاليات إسهاما مهما للأناسة الثقافية، وبوصفها علما للغريب (الآخر) يكون للمعارف التي نكتسبها بفضل الأناسة الثقافية تأثيرات دائمة على فهم ثقافة الآخر وثقافة الذات[2].

ومن هنا يمكننا اعتبار **الإثنولوجيا** العلم الذي يساهم في معرفة الذات والآخر ثقافيا، فهي "تهتم بدراسة ووصف الثقافات المختلفة عبر كل المناطق من خلال وصف السمات الثقافية للجماعات البشرية المختلفة فضلا عن بحثها في النظّم السياسية والاقتصادية والدينية..."[3]. وبالتالي تعتمد **الإثنولوجيا** في مقارناتها على المادة الإثنوغرافية التي توفرها لها الإثنوغرافيا، كما أنها تُعْتَبَر الحجر الأساس للأنثروبولوجيا، كونها تهتم "بدراسة الأصول الأولى للثقافات على **أسس مقارنة** وفي ضوء نظريات وقواعد ثابتة لاستخلاص التعميمات وأوجه الاختلافات"[4]. وهنا لنا أن نتساءل:

ما طبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا والإثنولوجيا؟

4. العلاقة بين الأنثروبولوجيا و الإثنوغرافيا والإثنولوجيا:

إنّ الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، والإثنوغرافيا هي مجالات مترابطة تُسْهِمُ في فهم الإنسان من خلال مختلف جوانبه البيولوجية والاجتماعية والثقافية. في حين أنّ **الأنثروبولوجيا** تُشَكِّل العلم الأمّ الذي يتناول جميع جوانب الحياة البشرية، فإنّ **الإثنوغرافيا والإثنولوجيا** تلعبان دورًا تكامليًا في التوسّع في فهم التنوع الثقافي والتفاعلات الاجتماعية من خلال البحث الميداني المقارن والمباشر. إذ يمكننا وصف العلاقة بينها اجمالا كالتالي:

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.137.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.ص:18-19

[3] زنقوفي فوزية، ***المرجع السابق***، ص.66.

[4] الشماس عيسى، ***مدخل إلى علم الإنسان: الأنثروبولوجيا***، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 2004، ص.103.

- **الإثنوغرافيا هي الدراسة المونوغرافية الأولية للإثنولوجيا والأنثرولوجيا:**

يمكن أن تُعتبر أسلوبًا تطبيقيًا في الإثنولوجيا، حيث تساهم في جمع البيانات الميدانية الضرورية لإجراء المقارنات الثقافية. كما أنها تتداخل مع الأنثروبولوجيا من خلال تركيزها على البحث الميداني المكثّف، الذي يُعتبر الخطوة الأولى والأساسية في الدراسات الأنثروبولوجية والمتمثلة في **الوصف**.

- **الإثنوغرافيا كمنهجية ميدانية:**

الإثنوغرافيا هي الأدوات البحثية التي يتم استخدامها في حقل الأنثروبولوجيا الثقافية والإثنولوجيا، فهي تركز على جمع البيانات الميدانية المباشرة عن طريق الملاحظة والمشاركة، كما يمكن اعتبارها أداة قَيِّمة في دراسة المجتمعات بشكل عميق، مما يسمح للباحثين بتحقيق فهم أعمق للأفراد والعلاقات داخل المجتمعات المدروسة. ومن دونها لا يستطيع الأنثروبولوجي ولا الإثنولوجي من القيام بالدراسات التحليلية المقارنة واستنتاج التعميمات والتقاطعات المختلفة.

- **الإثنولوجيا كفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية :**

الإثنولوجيا هي التخصص الذي يغطي دراسات مقارنة للثقافات الإنسانية، مما يجعلها أحد أبعاد الأنثروبولوجيا الثقافية. إذ يهدف الباحثون في الإثنولوجيا إلى تفسير الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وتحليلها من خلال مقارنة الشعوب المختلفة.

- **الأنثروبولوجيا كعلم شامل يحوي الإثنوغرافيا والإثنولوجيا معا:**

الأنثروبولوجيا هي الإطار الواسع الذي يحتوي داخل طياته جميع الفروع المعرفية الأخرى، بما في ذلك الإثنولوجيا والإثنوغرافيا، فمن خلال الأنثروبولوجيا، يتم الربط بين دراسات الإنسان من الناحية البيولوجية والاجتماعية والثقافية، ولا يتم ذلك إلّا من خلال الإثنوغرافيا القائمة على الوصف والإثنولوجيا القائمة على التحليل، المقارنة، التصنيف والتنبؤ.

وبالتالي يمكننا القول أنّ كلا الفرعين يعتمد في دراسته وتحليله وتعميماته على المعلومات الإثنوغرافية لمجتمع أو ظاهرة من الظواهر، لكن بينما تعتمد **الإثنولوجيا** منهجا تاريخيا انتشاريا في تحليلاتها عن طريق تتبع الظاهرة إلى أصولها التاريخية الأولى وكيفية انتشارها، فإنّ **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** لا تهتم بهذا المنهج التاريخي وإنما تهتم بدراسة الظاهرة دراسة بنائية وظيفية **" هنا والآن"** أي في مكان وزمان معينين بغض النظر عن التسلسل التاريخي للظاهرة فهو تاريخ فرضي تخميني لا يُعْتَدُ به[1].

كما يمكننا التفصيل أكثر في مهمة الأنثروبولوجيا أو الأناسة المجتمعية مقارنة بالإثنولوجيا أو النياسة وفقا لِمَ أشار إليه **"إيفانز بريتشارد"** كالتالي:

مهمة الأناسة المجتمعية مختلفة تماما، إنها تُحَلِلُ السلوك المجتمعي، تحلله تبعا لأشكاله المؤسساتية كالعائلة ونظام القرابة والتنظيم السياسي وصيغ التدابير القانونية، والعبادات الدينية، فضلا عن العلاقات القائمة بين مختلف هذه المؤسسات، إنها تدرس هذه الأشكال وعلاقاتها سواء في المجتمعات المعاصرة أو في

[1] بريتشارد إفنز، *مرجع سبق ذكره*، ص.8.

المجتمعات التاريخية التي يتوفر عنها ما يكفي من المعلومات الجديرة بالثقة، بما يساعد على القيام بهذه الدراسات[1].

وبذلك يتم التسليم بوجود تطابق بين الحقيقة الواقعية وعرضها في النّص مُطَابَقَةً تُمَكِّنُ القارئ من الحصول على معلومات مهمة حول الحياة في الثقافة الأخرى، وشكل الحياة، الذي يحصل بذلك هو **المونوغرافيا (وصف الحالة العينية)** التي يعرض فيها عَالَمْ الحياة المنغلق على ذاته للمنتسبين لمجتمع أجنبي، ونتيجة لطابع هذا الشكل التحكمي تنشأ عدّة دراسات جزئية للمجتمعات تتغير لاحقا تغيرا في المسافة الفاصلة بين وضعية البحث الخاص ومشكل التعميم. ذلك أنّ **الإثنوغرافيا** عليها أن تصل بين رواية التجربة الشخصية والبنية الاجتماعية اللاشخصية [2].

وهكذا ففي حين يهتم **النيّاس (الإثنولوجي)** بعُرْفٍ معيّن من الأعراف لدى شعب محدّد المكان على خارطة التوزيع، وذلك بحكم كون هذا العُرْف دليلا على حركة إثنية وثقافية أو مؤشرا على علاقة ماضية كانت قائمة بين شعوب معينة، يهتم **الأنّاس (الأنثروبولوجي)** كذلك بالعُرْفِ نفسه بوصفه جزءًا من نظام مجتمعي قائم لدى هذا الشعب، في الوقت الراهن من الممكن أن يكون هذا العُرْف مستعارا من شعب آخر لكن هذا الاحتمال لا معنى له البتة بالنسبة **للأنّاس** لأنه ليس من الممكن إقامة البرهان الأكيد على أنه مستعار حتى إذا كان في الأمر استعارة بالفعل كان من المستحيل عمليا أن تُحَدَّدَ متى حصلت هذه الاستعارة وكيف حصلت ولماذا؟[3].

وبالتالي على **الإثنوغرافيا** "أن تضع الفردي وغير القابل للمقارنة وما لا يقبل القياس في إطار مرجعي عام، وعليها أن تحقق التوافق بين الشمول الصادق المحدد طبيعيا في تجارب الباحث وملاحظاته من جهة أولى وما يقتضيه العالم أو شكل الحياة من حيث هو كل أو على الأقل من حيث هو نسق مندمج من جهة ثانية. والمشكل الثالث أخيرا هو أنّ كلا دوري الباحث الميداني والمؤلف عليهما أن يحيل كل منهما إلى الآخر لكن الفروق بينهما تبقى فروقا لا يمكن تجنبها ومن هذه المشاكل تنطلق مبادرة ممثلي **الإثنولوجيا التأويلية** وكذلك **الإثنولوجيا التأملية**. فحسب نظرتهم تتمثل مهمة **الأناسة الثقافية** في الرفع من مستوى معرفة المجتمعات الأخرى ببحوث واسعة المضمون، ويتعلّق الأمر بإنتاج علم حول الكيفية التي تتعامل بها الثقافات لحلّ مشاكل الحياة الأساسية، ولا بد للمطلوب من أجل فهم خطط الحياة والعالم[4]. أي أنّ **الإثنولوجيا** لا تقف عند حد الوصف بل تتعداه إلى فهم المعنى والمعنى المشترك وفقا لدراسة نمط عيش الشعوب والسلالات المختلفة اجتماعيا وثقافيا، إذ نجد أنّ "بعض الشعوب في إفريقيا الشرقية مثلا تعتبر الشمس بمثابة رمز لآلهتها، فيذهب بعض النياسين (الاثنولوجيين) إلى أنّ في ذلك مؤشرا على تأثير مصر القديمة على هذه الشعوب[5].

أمّا الأنّاس (الأنثروبولوجي) فهو يُتَمِّمُ سعيه بناءً على علمه باستحالة إقامة البرهان على صحة هذه الفرضية أو على عدم صحتها نحو إنشاء العلاقة القائمة بين هذا الرمز الشمسي ومجمل المعتقدات والعبادات لدى هذه الشعوب[6].

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.12.

[2] كريستوف فولف، ***المرجع السابق***، ص.ص: 150-151

[3] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه*** ، ص.12.

[4] كريستوف فولف، ***المرجع نفسه***، ص.137

[5] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه***، ص.12

[6] ***المرجع نفسه***، ص.13

وبالتالي تبقى العلاقة بين الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا والإثنولوجيا علاقة تكاملية تتجسد من خلال الاختلاف في مستويات البحث ودرجة التحليل والتناول، أين تقف **الإثنوغرافيا** عند مستوى الوصف لتنطلق منه كلّ من **الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا** وصولا لمستوى الفهم القائم على التحليل والتصنيف والمقارنة ومن ثمّ التنبؤ وفقا لمنهج كلي شامل.

استنتاج عام:

تُعتبر **الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، والإثنوغرافيا** من المجالات العلمية التي تهدف إلى دراسة الإنسان وسلوكياته في سياقات ثقافية واجتماعية متنوعة، ورغم أنّ هذه المصطلحات ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببعضها البعض، إلّا أنّ لكل منها نطاقًا خاصًا ومنهجًا يميزها عن الأخرى.

وعليه واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول أنّ الأنثروبولوجيا تُوَفِرُ الإطار النظري والتوجهات البحثية التي تشمل جميع فروع المعرفة، من بينها الإثنولوجيا وتعمل هذه الأخيرة على تقديم المنهج المقارن الذي يساعد على فهم التنوّع الثقافي بين الشعوب المختلفة. في حين توفر الإثنوغرافيا الأدوات البحثية الميدانية والمادة الإثنوغرافية الأولية التي تعزز دراسة الأنماط الثقافية والاجتماعية وتنطلق وتُبنى على أساسها. فالإثنوغرافيا والإثنولوجيا هما العمود الفقري للأنثروبولوجيا كعلم إمبريقي قائم على الدراسات الميدانية الحقلية.

ثانيا. مدخل تاريخي تأصيلي للفكر الأنثروبولوجي ونشأة العلم:

تمهيد:

إنّ الحديث عن العلوم الإنسانية والاجتماعية ومراحل تطورها واستمرارها يُحيلنا للحديث عن أهمية تتبع السيرورة التاريخية لتطور الفكر الإنساني وتراكمه.

إذ يُعتبر الفكر الأنثروبولوجي مُلازما لوجود الإنسان المُفَكِّر الذي قادته الحاجة والرغبة الفضولية لمحاولات استكشافية تمخّضت عنها جملة من المعارف ذات الطابع الوصفي والتحليلي والمقارن.

وكل ذلك يعكس لنا تلك السيرورة الثابتة في وجوديتها حينما يتعلّق الأمر بمحاولة فهم المنطلقات الأولى والتأسيسية في نشأة أي علم من العلوم الاجتماعية.

لذلك تُعتبر الأنثروبولوجيا علما له جذور فكرية عبر العصور والأزمنة والأماكن القديمة، إذ بالرغم من "اعتبار الأنثروبولوجيين الغربيين أنّ الأصول النظرية الأولية للأنثروبولوجيا قد ظهرت مع عصر النهضة الأوروبية" [1] ، حيث في أوائل سبعينيات القرن الماضي رأى العالم البريطاني "إدوارد برنت تايلور" " E.B.Tylor "* أنّ أساليب حياة الشعوب وتنوعها وتغيرها يشكل ظاهرة جديرة بالدراسة في حد ذاتها وأنّ علما جديدا يجب أن ينشأ ليقوم بهذه المهمة " [2] ، إلّا أنّ الفكر الأنثروبولوجي كان له امتدادات تاريخية فكرية أبعد بكثير، وفيما يلي عرض ذلك:

1. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي عبر العصور المختلفة:

إنّ البحث في امتدادات الفكر الأنثروبولوجي عبر التاريخ يحيلنا إلى تسلسلية العصور القديمة التي شملت اليونانيين القدماء، الرومان، وكذا الصينيين القدماء وصولا للعصور الأوروبية الوسطى وعصر النهضة، غير أنّ الاتفاق التام يشير إلى أنّ رحلة المصريين الأولى إلى **بلاد بونت** أي **الصومال** حاليا**، كان لها دورا كبيرا في تعزيز وانبثاق الفكر الأنثروبولوجي.

خاصة وأنها رحلة انتقلت من هدف التجارة والتسويق للمنتجات كالبخور والعطور إلى رحلة عرفت تعارفا بين ثقافتين مختلفتين، عكست تعرّف **المصريين** على **أقزام إفريقيا**.

كما أنّ القراءة السيميولوجية التي تناولت النقوش الموجودة في **معبد الدير البحري** تعكس صورة وجودية لعلاقات تبادلية بين الشعبين لاحقا، أين تمّ تصوير استقبال **ملك وملكة بونت للمبعوث المصري** آنذاك كما يشير **"مودويت" "Mauduit "**[3].

---

[1] حسين فهيم، ***قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان***، عالم المعرفة، الكويت ، 1986، ص.8.

* **"إدوارد برنت تايلور" " E.B.Tylor** " (2 أكتوبر 1832 - 2 يناير 1917): هو أنثروبولوجي إنجليزي ومؤسس لعلم الأنثروبولوجيا الثقافية. ساعدت دراساته على تحديد مجال الأنثروبولوجيا وتطور الاهتمام بها كعلم. كان أستاذاً للأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد (1896 – 1909 م). **أهم كتبه:** «الثقافة البدائية» (1871 م) و«الأنثروبولوجيا» (1881 م)...جسّدت أفكاره مذهب **التطور الثقافي** في القرن التاسع عشر. من خلال أعماله «الثقافة البدائية» في عام 1871 و«الأنثروبولوجيا» في عام 1881، عرّف محتوى الدراسات العلمية لعلم الأنثروبولوجيا استنادًا إلى النظريات **التطورية لتشارلز لايل**.

[2] حسين فهيم، ***المرجع نفسه***، ص.9.

** رحلة المصريين إلى **بلاد بونت**، المعروفة اليوم بالصومال، كانت من أهم الرحلات التجارية والاستكشافية في الحضارة المصرية القديمة. يُعتقد أنّ هذه الرحلة حدثت في العصور الفرعونية، وتحديداً في فترة الدولة القديمة. كانت تُعرف **بلاد بونت** بأنها مكان غني بالموارد مثل البخور والمر، وكان لها دور مهم في التجارة المصرية ، إذ يشار إلى هذه الرحلة في نصوص هيروغليفية، مثل تلك الموجودة في معبد حتشبسوت في دير البحري: قام الفراعنة بتنظيم رحلات بحرية عبر البحر الأحمر للوصول إلى بونت، وكانت تتضمن قوارب خشبية كبيرة. وكانت البخور والتوابل والمعادن من أهم السلع التي تم استيرادها، مما ساهم في إثراء الحضارة المصرية. ولم تكن الرحلة تجارية فقط، بل أدت إلى تبادل ثقافي بين المصريين وسكان بونت. وأثرت الفنون والعمارة المصرية ببعض العناصر من ثقافة بلاد بونت، مما يظهر في الرسوم والنقوش.

[3] Mauduit. J.A ; ***Manuel d'ethnographie***, Payot, Paris ,1960, P.18

1. 1. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي في العصور القديمة:

1.1. 1. الفكر الأنثروبولوجي في الكتابات اليونانية:

نجد أنّ مؤرخي الأنثروبولوجيا يعتبرون المؤرخ الإغريقي **"هيرودوتس" "Herodotus"*** وأعماله بادرة أولية ومهمة في انبثاق الفكر الأنثروبولوجي، خاصة وأنّ أعماله تعكس منهجا اثنوغرافيا مُهِمًا في الدراسات الأنثروبولوجية.

فقد كان **"هيرودوتس"** من بين الرّحالة الذين تستهويهم ثقافات الغير وأنماط عيشهم، لذلك نجد أنّ جُلَّ كتاباته كانت عبارة عن وصف لأهم الفروقات والاختلافات السلالية والثقافية واللغوية والدينية لمختلف الشعوب التي زارها وقام بوصفها وصفا يرقى للدراسات الإثنوغرافية المتميزة، الأمر الذي جعل معظم مؤرخي الأنثروبولوجيا يصفوه بأنه الباحث الأنثروبولوجي الأول في التاريخ.

خاصة وأنه يُعتبر الأول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية والمقدّر عددها بحوالي خمسين شعبا، تطرق بالتفصيل واصفا تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية كما يذكر ذلك **"دارنل" "Darnell"** [1] ، ليكون بذلك منهجه منهجا إثنوغرافيا جمع كل محطات الوصف الأساسية في دراسة الإنسان، من الناحية المورفولوجية والاجتماعية الثقافية وكذا الناحية الحضارية.

مبرزا من خلال وصفه أوجه التقارب والتمايز والاختلاف بين الشعوب وثقافاتها، ومن بين توصيفاته للمصريين القدماء قوله: ***" إنه في غير المصريين يطلق كهنة الآلهة شعورهم أمّا في مصر فيحلقونها، ويقضي العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم في أثناء الحداد ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت فإنهم يطلقون شعر الرأس واللحية."*** [2]

والمتتبع لأعمال وأفكار **"هيرودوتس"** سيجد أنها وصفية سردية بالأساس تقوم على فكرتي **الوصف والمقارنة** في أنماط العيش ومتبنيها من جهة، كما يؤكد على الفروقات الواضحة والاختلافات الظاهرة، فنجده مثلا يُجري مقارنة بين العادات اليونانية-الإغريقية وتلك في المجتمع الليبي قائلا: ***"يبدو أنّ ثوب أثينا ودرعها وتماثيلها نقلها الإغريق عن النساء الليبيات، غير أنّ لباس الليبيات جلدي وأنّ عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان، وأمّا ما عدا ذلك فإنّ الثوب والدرع في الحالتين سواء (...) ومن الليبيين تعلّم الإغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة..."*** [3].

---

* **هيرودوتس**: هو مؤرخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ويُعتبر واحدًا من أعظم المؤرخين في التاريخ. وُلد في هاليكارناسوس(حاليًا في تركيا) حوالي عام 484 قبل الميلاد، وعُرف بلقب **"أب التاريخ"** بسبب عمله الرائد في توثيق الأحداث التاريخية.

[1] Darnell .R , ***reading in the history of Anthropology***, University of Illinois,1978, P.13.

[2] خفاجة صقر محمد، ***هيرودوت يتحدث عن مصر***، دار العلم، القاهرة، مصر، 1966، ص.120.

[3] خشيم فهمي علي، ***نصوص ليبية***، دار مكتبة الفكر ، طرابلس، ليبيا، 1967، ص.87.

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول أنّ الأفكار التي جاد بها المؤرخ اليوناني **"هيرودوتس"** كان لها واسع الأثر في تعزيز **المنهج الإثنوغرافي** في الدراسات الأنثروبولوجية، كما مثلت امتدادا للبواكر الأولى في انبثاق وبروز الفكر الأنثروبولوجي عبر التاريخ، دون إغفال وصفه الدقيق لمصر وأحوالها وشعبها من خلال مقولته "***مصر هبة النيل***"[1].

دون أن ننسى الإشارة للدور الذي لعبه بعض الفلاسفة اليونانيين من خلال بعض كتاباتهم التي عكست لنا فكرا بأصول وطبيعة أنثروبولوجية **كأرسطو Aristotle** مثلا الذي عكست بعض أفكاره **البُعد التطوري في الفكر الأنثروبولوجي** حينما تطرّق للتركيبات البيولوجية وتطوّرها في الكائنات الحية، ليتعدى ذلك في أفكاره والتي تلخصت في وصف الحكومات ونشأتها وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يُعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والإنسانية." [2]

والواضح من خلال ما سبق ذكره أنّ العصر اليوناني حمل عديد الأفكار الممهدة والمُؤَسِسَة للعلم الجديد الذي اهتم بدراسة الإنسان وأحواله وطبائعه وارتباطاته الاجتماعية والثقافية على العموم، وما تمّ ذكره فهو على سبيل المثال لا الحصر.

2.1.1. الفكر الأنثروبولوجي في الكتابات الرومانية:

على عكس الفكر اليوناني تميّز الفكر الروماني بمحاولة تجنب النماذج المثالية في معالجة القضايا الإنسانية، مؤكدا بذلك على أهمية الدراسات الواقعية التي تقوم على ثنائية **المحسوس والملموس**، لهذا يُجْمِعُ أغلب مؤرخي الأنثروبولوجيا أنه لا يوجد إسهام قوي وواضح للفكر الروماني في انبثاق الفكر الأنثروبولوجي وذلك لسببين رئيسيين: **الأول** أنّ منطق الفكر الروماني كان مختلفا عن الفكر اليوناني، **والثاني** أنّ الفكر الروماني كان مركزيا وعنصريا في نظرته للآخر المختلف، إذ "كان الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى أنّ الرومان إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قرارا بمنح الجنسية الرومانية لأي منهما"[3].

فقد اعتبرت الحضارة الرومانية استثنائية ومعيارية يُقاس عليها مدى أحقية الشعوب الأخرى وثقافاتها في لقب "الحضارة".

غير أنّ أعمال **" كاروس لوكريتيوس" * Carus Lucretius** كانت تعكس إلى حد ما بعض الأفكار والأشعار ذات البعد الاجتماعي في عمومها، إذ نجده تناول موضوعات عدّة في ستة أبواب رئيسة، ضَمَنَهَا أفكاره ونظرياته عن المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها وتكوين العالم، كما خَصَّصَ الباب السادس

---

[1] معتوق جمال، ***الفروع والمداخل النظرية للأنثروبولوجيا***، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2016، ص.ص:32-33.

[2] حسين فهيم، **مرجع سبق ذكره**، ص.46

[3] مؤنس محمد، ***الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها***، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص.43.

***كاروس لوكريتيوس** هو شاعر وفيلسوف روماني عاش في القرن الأول قبل الميلاد، ويُعتبر واحدًا من أبرز الشخصيات في الأدب الروماني القديم. وُلد في حوالي عام 99 قبل الميلاد وتوفي حوالي عام 55 قبل الميلاد. **أهم أعماله: "De Rerum Natura" عن طبيعة الأشياء وهو** عمله الرئيسي، يتألف من مجموعة من القصائد التي تتناول فلسفة الإبيقورية. يناقش فيه طبيعة الكون، والذرات، وأهمية السعادة، والعلم، والتجربة .فلسفة الإبيقورية هي مجموعة من المعتقدات الفلسفية التي أسسها الفيلسوف اليوناني أبيقور في القرن الرابع قبل الميلاد. تركز هذه الأفكار على مفهوم السعادة واللذة كهدف أساسي للحياة.

لعرض فكرتي التطوّر والتقدّم، والتي تعتبر فكرة جوهرية وأساسية في النظرية التطورية لـــ"**لويس هنري مورغان**"**Lewis Henry Morgan** * أحد أهم أعمدة علم الأنثروبولوجيا.

كما نجد أنّ **"لوكرتيوس"** تحدّث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي ونظامي الملكية والحكومة ونشأة اللغة إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى"[1].

وعليه يمكننا القول أنّ النزعة العنصرية كانت بمثابة عائق أمام تطوّر وبروز الأفكار ذات الطابع الأنثروبولوجي مما جعل إسهام العصر الروماني فيها ضئيل جدا.

ومن هنا يمكننا اعتبار " **"لوكريتيوس"** أحد أهم مؤسسي الفكر الأنثروبولوجي في العصور القديمة، بفضل تنوّع إسهاماته في حقل الأنثروبولوجيا"[2].

إذ "ما طرحه اليونانيون من معطيات حول بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها يستند على دراسات الفكر الروماني في تفسير التباين والاختلاف بين هذه المجتمعات..."[3]

3.1.1. الفكر الأنثروبولوجي في الكتابات الصينية:

ما ميّز الثقافة الصينية في عموميتها تلك النظرة المتعالية والعنصرية في النظر لِمَ سواها من ثقافات وشعوب، فقد كان الاكتفاء الذاتي لهذا المجتمع عاملا مهما في حصر دائرة تفاعله مع باقي الثقافات الأخرى وجعلها مقتصرة على الأمور الربحية والاقتصادية التجارية بالأساس.

حتى أنّ ما ميّز الفكر الصيني هو فكرة الحفاظ على الخصوصية الثقافية والعمل على عزلها من أي طارئ ثقافي قد يكون سببا في تدنيسها.

والواقع أنّ الامتداد الذي يمكن تحديده في علاقة الكتابات الصينية ببواكر انبثاق الفكر الأنثروبولوجي يمكننا حصره في بعض الأعمال التي اهتم بها الفلاسفة الصينيون القدماء من مثال مناقشاتهم لمواضيع تخص الفرد الاجتماعي كالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية من منطلق البحث في المرتكزات الثقافية والقيمية للمجتمعات الإنسانية، ولأجل تحديد استراتيجيات التعامل والاستفادة منها دونما المساس بالخصوصية الثقافية الصينية.

---

[1] حسين فهيم، ***مرجع سبق ذكره***، ص.47.

***لويس هنري مورغان** (1818-1881) هو عالم أنثروبولوجيا أمريكي وعالم اجتماع، يُعتبر أحد رواد الدراسات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا. وُلد في مدينة ألباني، نيويورك، وقد قدم إسهامات مهمة في فهم الثقافات الأصلية والنظم الاجتماعية. عُرف بمراقبته للأمم الأصلية، وخاصة قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، ودراسته لأساليب حياتهم وتنظيمهم الاجتماعي. من **أهم اسهاماته**:

كتاب "الأنماط الأولية في حياة العائلة:" قام من خلاله بتحليل تطور النظم العائلية والاجتماعية عبر الزمن، مُقترحًا أنّ المجتمعات تمر بمراحل مختلفة من التطور، من المرحلة البدائية إلى المرحلة المدنية. **نظرية التطورالثقافي**: اقترح من خلالها أنّ الثقافات تتطور بشكل خطي عبر ثلاث مراحل رئيسية: البربرية، والهمجية، والمدنية. على الرغم من أنّ هذا المفهوم قد وُجهت له انتقادات، إلا أنه كان له تأثير كبير على الفكر الأنثروبولوجي. عُرِف أيضا **بأبحاثه عن اللغة والعائلة**: بدراسته لأنظمة القرابة واللغة، حيث أظهر كيف تعكس الهياكل الاجتماعية القيم الثقافية. مؤسسا بذلك العديد من الأفكار التي شكلت أسس علم الأنثروبولوجيا الحديثة. على الرغم من أنّ بعض أفكاره قديمة وغير دقيقة وفقًا للمعايير الحديثة، إلا أنّ عمله لا يزال يُدرس في المناهج الأكاديمية بحيث ساهمت دراساته في فهم العلاقة بين الثقافة والبيئة وكيف تؤثر على تشكيل المجتمعات. **مورغان** يُعتبر شخصية محورية في تاريخ الأنثروبولوجيا، وقد أثرت أعماله على العديد من المفكرين اللاحقين. (وسنتناول أفكاره بالتفصيل لاحقا في النظرية التطورية).

[2] الشمّاس عيسى، ***مرجع سبق ذكره***، ص.18.

[3] زنقوفي فوزية، ***مرجع سبق ذكره***، ص.17.

2.1. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي في العصور الوسطى:

امتدت العصـــور الوســـطى حســـب ما اتفق عليه المؤرخون من **القرن الرابع** إلى **القرن الرابع عشـــر**، وتميّزت هذه الفترة بتدهور ملحوظ في الحضارة الأوروبية مقارنة بالحضارة العربية الإسلامية، كما أنّ هذه الفترة كانت سـابقة لعصـر التنوير الذي جاد بانبثاق الفكر التأملي الفلسـفي القائم على التأمل، الشـك، النقد والتساؤل، وفيما يلي بيان ذلك:

1.2.1. أوروبا:

تميّزت أوروبا في العصور الوسطى بسيطرة الفكر الكنسي الذي يغلب عليه ثنائية الخضوع والاستسلام وتعزيز الفكر اللاهوتي البعيد كل البعد عن أي تفكير عقلاني منطقي، لذا اعتبرت أي محاولات جادة لإعمال العقل آنذاك بمثابة انحراف عن القيم السائدة حينها ويُعَاقب فاعلها.

غير أنّه في مقابل موجة التفكير الكنسي انبثق تفكير مُوَازٍ ومُضَاد له، بحيث "كانت مراكز أخرى وجهت منطلقات المعرفة وحددت طبيعة الحضارة الغربية في تلك العصور كبلاط الملوك مثلا الذي كان يضم في العادة فئات من المثقفين كرجال الإدارة والسياسة والشعراء."[1]

والذين كان لهم الفضـــل في إرســـاء الدعائم الأولى لإعمال العقل والبحث في الشـــؤون الاجتماعية لمجتمعاتهم بمنظور عقلاني يبحث في الأســـباب والنتائج ويمحص في طبيعة الأشـــياء وأصـــول وجودها واستمرارها وتغيرها.

ويمكننا أن نذكر في هذا الصـــدد بعض الكتابات التي عكســـت إلى حد ما الطابع الأنثروبولوجي في بعده الوصفي كالأعمال التي قام بها **الأسقف "إسيدور" "Isidore"** الذي أعدّ في القرن السابع الميلادي **موسوعة عن المعرفة** والتي أشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم بطريقة وصفية عفوية تتسم إلى حد بعيد بالسطحية والتحيّز، وهي الميزة التي ميزت كتابات ذلك العصر كونها غالبا ما كانت تتسم بالوصف التخيلي[2].

فقد وصـــف هذا الأخير الشـــعوب المختلفة من منطلق عنصـــري مركزي، فهي في نظره متحضـــرة كلما اقتربت من أوروبا وعكس ذلك كلما ابتعدت عنها.

واستمرت هذه الأفكار وشاعت حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدّها الفرنسي **"باتول ماكوس" "Batholo Macus"** والتي حظيت بشـــعبية كبيرة على الرغم من أنها لم تختلف كثيرا عن سابقتها في الاعتماد على الخيال[3].

---

[1] حسين فهيم، **مرجع سبق ذكره** ، ص.52.

[2] زنقوفي فوزية، ***مرجع سبق ذكره***، ص.18.

[3] حسين فهيم، **المرجع نفسه** ، ص.52.

كما يعتبر "ماركوبولو" "Marcopolo" البندقي (1254-1323) الذي سافر إلى الصين ومكث فيها منشغلا بالتجارة لمدة 24 سنة، وفي نفس الوقت كتب عن العادات والتقاليد الاجتماعية ونمط التفكير في المجتمع الصيني"[1] من بين المفكرين الذين أسهموا من خلال كتاباتهم في تعزيز بروز الفكر الأنثروبولوجي آنذاك.

ومن هنا يمكننا القول أنّ هذا العصر كان بمثابة عصر انبثاق قوّة مضادة لقوّة الكنيسة والفكر الشائع آنذاك، لذلك أُعتبرت فترة مخاض حقيقي، الأمر الذي حال دون وجود مبادرات قيّمة تعكس بوادر وجودية فكر أنثروبولوجي متميز حينها.

2.2.1. في الفكر العربي:

على عكس الانحطاط الذي شهدته أوروبا في هذه العصور كانت المجتمعات العربية تعرف انتعاشا حقيقيا خاصة مع انتشار الإسلام وبداية توسع وبروز الحضارة العربية الإسلامية، حيث امتد هذا العصر من منتصف القرن السابع ميلادي إلى نهاية القرن الرابع عشر تقريبا.

وبرز من خلاله عدّة مفكرين سعو من خلال أفكارهم لمعالجة عديد القضايا المجتمعية سواء ما تعلّق منها بالآداب والأخلاق والسياسة أو المنطق والقانون وغيرها.

ولأنّ ذلك رافق الفتوحات الإسلامية كاستراتيجية توسعية، فإنه تحتّم لزاما ضرورة ترسيخ فكرة التطلع لمعرفة ثقافة الآخرين والبحث في سبل احتوائها والعمل على إدارتها بالشكل الذي يحقق الهدف الفعلي من الفتوحات الإسلامية من جهة ومن أجل العمل على تحقيق أسس الإدارة والحكم والتنظيم.

ويتجلى ذلك بوضوح من خلال النتاج الفكري آنذاك والذي تمثل في:

أ. **المعاجم الجغرافية:** اهتم العرب بوضع المعاجم الجغرافية كـ"معجم البلدان" لـ **"ياقوت الحموي"**[2]...

ب. **الموسوعات:** التي انتشرت بقوّة في تلك الفترة وبلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر ميلادي مثل **"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري"**[3] **ونهاية الأرب في فنون الأدب" لـ"شهاب الدين النويري"**[4]. حيث اعتمدت في محتواها المعرفي على المشاهدات

---

[1] مصباح عامر، ***المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا***، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2009، ص.29.

[2] **شِهَابُ الدِّينُ أَبُو عَبْدِ اللَّهْ يَاقُوتِ بْنُ عَبْدِ اللَّهْ اَلْحَمَوِيّ الرومي البغدادي** 574)هـ1178/م626 - هـ1229 / أديب وشاعر ولغوي ومؤلف موسوعات وخطّاط ورحالة جغرافي من أصل رومي ، سكن في مدينة بغداد حتى وفاتهِ، ولقد سمى نفسه (عبد الرحمن). **وأهم مؤلفات** ياقوت الحموي كتاب) معجم البلدان (الذي ترجم وطبع عدة مرات، المشترك وضعاً من أسماء البلدان والمختلف صقعاً من الأقاليم، معجم الأدباء، المقتضب في النسب، أنساب العرب، أخبار المتنبي، كتاب الدول.

[3] ولد ابن فضل الله في دمشق سنة 700هـ وتلقى بها تعليمه وبرع في الكتابة وفنونها والعلوم، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذهب إلى القاهرة وتقلد رئاسة ديوان الإنشاء وكان له الفضل في الكثير من الدراسات. وقد عني العمري بدراسة الجغرافية السياسية، ودرس تواريخ الأمم وعجائبها، ودرس الفلك، وتجول في البلاد من الشام إلى الحجاز والأناضول وغيرها من بلاد الأرض.

[4] تعتبر موسوعته الكبرى نهاية الأرب في فنون الأدب ولد سنة 677هـ، الموافق 1278 م، ودرس في القاهرة وأزهرها، وتخصص في دراسة الحديث والسير والتاريخ . **أهم ما كتبه النويري**، أخرج الجزء الأول منها في ذي القعدة 721هـ وتشتمل الموسوعة على **خمسة فنون**: السماء والأثار العلوية والأرض والآثار السفلية وهو قسم جغرافي فلكي عام، الإنسان وما يتعلق به، التاريخ، الحيوان، النبات ...، هذه الأقسام الأربعة تشغل عشرة مجلدات. أما القسم الخامس وهو التاريخ، فيشغل واحداً وعشرين مجلداً، ذاك أن **النويري** في الأساس مؤرخٌ عظيم، وقد سرد فيه تاريخ الإنسانية بدءاً من أبي البشر آدم مروراً بالأنبياء حتى سيد الرسل محمد ومراحل التاريخ الإسلامي المتعددة.

والخبرات الشخصية في عرضها وتناولها لشؤون العمران وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية.

ت. كتابات الرحالة المستكشفون:

- **"البيروني" ودراسته للهند [1]:**

نجد مثلا **"البيروني"** الذي تخصص في وصف الأقاليم المختلفة، حيث وضع كتابا عن **الهند** بعنوان: **" تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"** أين وصف من خلاله المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية واهتم أيضا بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفُرْس، وأبرز **"البيروني"** في هذا الكتاب حقيقة أنّ الدين يؤدي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات وصياغة القيم والمعتقدات"[2].

يُعتبر **البيروني** واحدًا من أعظم العلماء الذين عرفهم العصر الإسلامي في القرون الوسطى شملت معرفته الفيزياء والرياضيات والعلوم الطبيعية، وكان له مكانة مرموقة نتيجة إلمامه بالكثير من العلوم ، إذ "تأثر البيروني بالفلك والعلوم الرياضية والطبيعية بصورة لافتة في كتاباته التاريخية"[3].

عاش البيروني خلال العصر الذهبي للإسلام، حيث جرى البحث العلمي جنبًا إلى جنب مع منهجية وتفكير الدين الإسلامي، إضافة لتأثره بالأمم الأخرى، مثل الإغريق الذين نال إلهامه منهم من خلال دراسته للفلسفة، أين كان متحدثا باللغات الخوارزمية والفارسية والعربية والإغريقية والسنسكريتية والعبرية والسريانية.

قضى البيروني أغلب أوقاته في غزنة، التي صارت عاصمة غزنويان، الواقعة حاليا في الوسط الشرقي لأفغانستان، كما سافر إلى جنوب آسيا وكتب دراسة عن الثقافة الهندية واستكشافه للهندوسية الممارسة في الهند، فعلى الرغم من أنّ هذا الكتاب ليس عملا تاريخيا بالمعنى الدقيق لكنه كان مُدركا للأبعاد التاريخية في مجال الثقافة إدراكا عميقا[4]، وهو ما تؤكده محاولة **البيروني** للإشارة إلى أنّ الثقافة بمفهومها الواسع باتت جزءا أساسيا من التاريخ[5].

كما كان معروفًا بكتاباته الموضوعية عن عادات وعقائد العديد من الأمم، ولُقب بالأستاذ نظرًا لوصفه غير المسبوق للهند في بداية القرن الحادي عشر.

---

[1] هو باحث مسلم ولد في ضاحية من ضواحي خوارزم حاليًا في أوزبكستان في الثاني من ذي الحجة لسنة 362هـ الموافق لسبتمبر 973م. عاش 40 عاما في الهند، توفي عام 440هـ كان رحّالةً وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وجيولوجيًا ورياضياتيًا وصيدلانيًا ومؤرخًا ومترجمًا. وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وقد قال بدوران الأرض حول محورها في كتابه: مفتاح علم الفلك، كما صنف كتبًا تقرب عن المائة والعشرين.

من مؤلفاته أيضا: فواضل السمر في فضائل آل عمر، دمعة الباكي ويقظة الساهر، النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية، نفحة الروض، الشتويات...

[2] حسين فهيم، **مرجع سبق ذكره ، ص.54.**

[3] البيهقي ظهير الدين أبو الحسن، **تتمة صوان الحكمة**، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1994، ص.74.

[4] رياض حمودة حاج ياسين، **أبو الريحان البيروني ونظرته إلى التاريخ، مجلة كلية الآداب**، جامعة بنها، العدد 39، يناير 2015، ص. 458

[5] **المرجع نفسه**، ص.ص:457-458

دون أن ننسى الإشارة إلى أنّ القرن الثالث للهجري شهد بداية الانفتاح على العلوم الأخرى وما تبعه من الاهتمام بثقافة الأمم الأخرى وخاصة التراث اليوناني وذلك بعد أن نشطت حركة الترجمة زمن المأمون (200-218هـ) وقد ساعد في ذلك التوسع في الرحلات والتجارة، وكان عصر الرحلة في طلب العلم"[1].

وبالتالي نجد أنّ المتتبع لكتابات البيروني يجد أنها اكتسبت طابعا أنثروبولوجيا لامس تقريبا كل جوانب الثقافة بما فيها الدين، إذ يعتبر البيروني واحداً من أهم العلماء والمرجعيات التاريخية الإسلامية في مجال تاريخ الأديان، فقد كان رائداً في مجال دراسة مقارنة الأديان، إذ درس الديانات الزرادشتية واليهودية والهندوسية والمسيحية والبوذية والإسلامية وغيرها، وتعامل مع الأديان المختلفة بشكل حيادي محاولاً فهم أفكار ومنطق كل منها بدلاً من محاولة نفي معتقداتها.

ويظهر من خلال كتاباته أنه لم يولِ الكثير من الاهتمام أثناء رحلته إلى التاريخ العسكري والسياسي. على العكس، قرر البيروني توثيق الحياة الهندية العلمية والمدنية بصورة أكبر.

كما "درس في كتاب **الصيدلة** العقاقير وأدبياتها في الأمم المختلفة"[2] و "قدّم في كتاب **الجماهر** دراسة للمعادن والجواهر ومتعلقاتها عند أمم عديدة"[3].

ومن هنا يمكننا القول أنّ الثقافة بكل مكوناتها قد حظيت بالاهتمام من قبل **البيروني** بصورة تعكس البُعد الإثنوغرافي والإثنولوجي لدراساته المختلفة.

- **"ابن بطوطة" [4]:**

تميزّت كتاباته بطابع أنثروبولوجي مميّز، وذلك من خلال تركيز اهتمامه على دراسة حياة وأحوال النّاس وأنماط سلوكاتهم في الحياة اليومية مع تركيزه على إبراز القيم والتقاليد الإيجابية، فنجده مثلا يستحسن أفعال **أهل السودان** في قوله:***"فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد النّاس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرّضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان -البيض والأجانب- ولو كان القناطير المقنطرة وإنّما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه..."*** [5].

ومن هنا يمكننا القول أنّ **"ابن بطوطة"** - في القرن الرابع عشر ميلادي- الذي جاب الهند ومدنها تمعّن في حضارتها وشعوبها وكتب عن شعوبها وعاداتهم ..."[6]، بشكل يجعلنا نعتبره إثنوغرافيا استنادا على الأوصاف العديدة التي قدمها للشعوب المختلفة.

---

[1] رياض حمودة حاج ياسين، ***المرجع السابق***، ص.456.

[2] ***المرجع نفسه***، ص. 458

[3] ***المرجع نفسه***، ص. 458

[4] أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ آللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ آللَّوَاتِيّ آلطَّنْجِيّ المعروف بابْنِ بَطُّوطَةَ، ولد في 24 فبراير 1377 - 1304 م بطنجة779 – 703) هـ (هو رحالة ومؤرخ وقاض من قبيلة لواتة بالمغرب الأقصى، لقب بأمير الرحالين المسلمين .خرج من طنجة سنة 725هـ فطاف بلاد المغرب العربي ومصر والحبشة والشام والحجاز وتهامة ونجد والعراق وبلاد فارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين وجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا والأندلس .واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بهباتهم على أسفاره، واللقب «ابن بطّوطة» هو لقب أطلقه الفَرَنجة على محمد بن عبد الله الطنجي، وتابَعَهم أكثر الناس. ويعد ابن بطوطة من أهم الرحالة. قطع أكثر من 75,000 ميل (121,000 كم)، وهي مسافة لم يقطعها أي رحالة منفرد حتى ظهور عصر النقل البخاري، بعد 450 سنة.

[5] ابن بطوطة أبو عبد الله، ***رحلة ابن بطوطة***، دار التراث، بيروت، لبنان، 1968، ص.672.

[6] رشوان حسين عبد الحميد أحمد، ***الأنثروبولوجيا في المجالية النظري والتطبيقي***، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003، ص.ص:39-40.

- **"ابن خلدون" ودراسته للعمران البشري والقبائل والأمصار:**

مما لا شـــك فيه أنّ **"ابن خلدون"** قد اشـــتهر بعمله المميز والذي عَنْوَنَهُ بعنوان: **" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"**، إذ يُعتبر هذا العمل طفرة نوعية في ساحة العلوم الاجتماعية وسببا في بروزها وتمايز مواضيعها خاصة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

إذ نجد من خلال أفكاره أنه تطرق لعديد المســـائل ذات البعد الاجتماعي والثقافي، خاصـــة حينما ربط البيئة الجغرافية بالظواهر الاجتماعية، مؤكدا في ذلك على علاقة البيئة الجغرافية وتنوعها وارتباطها بأنماط الثقافة واختلاف الحاملين لها، حيث اعتبر أنّ " اختلاف البشـــر في ألوانهم وأمزجتهم النفســـية وصـــفاتهم الجســـمية والخلقية إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضـــا عاملا هاما في تحديد المســـتوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية..."[1].

كما تناول في أعماله الدول والأمصـــار ودورة العمران والبداوة والحضـــارة والعصـــبية ليأخذ وفقا لهذه الفكرة بالرؤية التطورية التي كانت ســـائدة بقوّة في هذه الفترة، على اعتبار أنّ التطوّر هو ســـنة وحتمية اجتماعية، كما يظهر ذلك في قوله: *"إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحَلِهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهج مســـتقر وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشـــخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول..."* [2].

ويعتبر مفهوم **"العصـــبية"** مفهوما جوهريا في فكر **ابن خلـدون**، " ويعني بلفظ عصـــبية الروابط الديناميكية والروح العشـــائرية القائمة على لُحمة الدم، فالعصـــبية هي رابطة الدم المشـــترك التي تحرك القبيلة لتفرض ســـلطتها على غيرها، وتســـاهم في رص العصـــبيات الأخرى الضـــعيفة لتشـــكّل منها الدولة والحضـارة، ولازالت هذه الدولة قوية مادامت العصـبية قوية مجافية للنعيم والتمتع بالملذات فلا تماسـك للدولة بدون عصبية"[3].

وبالتالي أعتبر **"ابن خلدون"** من خلال أعماله من أهم من أرســـى دعائم ابســـتمولوجية في دراســـة المجتمعات البشـــرية، وهو ما دفع بعض علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون يســـتخلصـــون من مقدمته موضـــوعات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها، كما أشـــار **الأمريكي "جون هونجيمان" John Hongiman** في كتابه **" تاريخ الفكر الأنثروبولوجي"** إلى أنّ **"ابن خلدون"** تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية **"مارفين هاريس" Marvin Harris** عن **"المادية الثقافية"**، بل حتى أننا نجد أنّ **"هاريس"** ذاته يذكر أنّ **"ابن خلدون"** وقبله **"الإدريســـي"** قد قدّما أفكارا وموادا ســـاعدت في بلورة نظرية الحتمية الجغرافية التي سادت إبّان القرن الثامن عشر..."[4].

حيث ربط **"ابن خلدون"** بين ثنائية البيئة الجغرافية والثقافة ليوضح كيف تؤثر الأولى في تشكيل الثانية ويظهر هذا جليا في قوله:*"قد رأينا في خلق الســـودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين*

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمان، ***مقدمة ابن خلدون***، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة،1966، ص.291.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.252.

[3] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.32.

[4] Anderson .J , ***Conjuring with Ibn Khaldoun: from an Anthropological point of view***, Leiden, 1984, P.112.

بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قُطر(...)ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحارواستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم و إقليمهم (...)فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثرانبساطا..." [1] .

كما ربط **"ابن خلدون"** بين النبات وخصوبة الأرض وحجم وشكل أجسام البشر، فهو يرى أنّ الشعوب التي تعيش في المناطق المرتفعة ألوانهم صافية، وأبدانهم أنقى وأشكالهم حسنة وتامة على عكس نظرائهم الذين يعيشون في المناطق المنخفضة الرطبة، تكون أجسامهم قبيحة وألوانهم متغيرة من جراء الأكل العفن، فأجسامهم ممتلئة بشكل سيء ووجود ترهلات مشوهة لقامة الجسم واستوائه..."[2].

كما قارن بين **البدو والحضر** في طبائعهم وصفاتهم وعاداتهم وطرائق عيشهم والعلاقة التي تربطهم مع بعضهم البعض عموما.

وعليه واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول أنّ الاسهامات العربية كانت حاضرة بقوّة في تعزيز بوادر الأفكار الأنثروبولوجية، خاصة وأنها ركزت على عديد المواضيع التي تعتبر من صميم الأبحاث والدراسات الأنثروبولوجية كالتنوع الثقافي والهوية الثقافية والتزاوج الثقافي وغيرها من الأفكار ذات الأبعاد الاجتماعية والإثنوغرافية.

غير أنه وجب التأكيد على فكرة مهمة وهي أنّ أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به وحديث النشأة لم يكن ذا صلة بما سبقه من أفكار وأبحاث عبر العصور بل كانت روافد لتوجيه الاهتمام لمثل هذه المواضيع والقضايا الإنسانية المتعلقة بالإنسان، خاصة وأنّ العديد من الحضارات قد لفتت الانتباه منها **الحضارات المائية** ، وهي تلك التي نشأت وتطورت في مناطق تعتمد على الأنهار الكبيرة مثل **النيل في مصر، والفرات في العراق، والهوانغ في الصين**، وغيرها. هذه الحضارات كانت تشهد تطورًا في العديد من الجوانب الاجتماعية والثقافية، مما كان له تأثير كبير على الفكر البشري وتطور العلوم الاجتماعية بما في ذلك الأنثروبولوجيا، فنجد مثلا:

- **مصر القديمة**: أولى الحضارات التي كانت قادرة على دمج المفاهيم الدينية والثقافية مع أسس الحياة اليومية في المجتمعات، وكانت هناك دراسة متقدمة للسلوك البشري من خلال المعتقدات الدينية، كالتصورات حول الحياة بعد الموت.
- **حضارة بلاد الرافدين (العراق الحالي)**: تميزت بتطوير مفاهيم قانونية وثقافية معقدة، وقد ساهمت هذه الحضارات في فهم العلاقات الاجتماعية والمؤسسات الحكومية، ما يمكن أن يُعتبر الأساس الأول لدراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

وبالتالي فإنّ الحضارات المائية قد ساعدت في تشكيل مفاهيم التنظيم الاجتماعي، المعتقدات الثقافية، والأنماط السلوكية، وهي أفكار استمر تأثيرها في العصر الحديث من خلال الأنثروبولوجيا الثقافية.

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمان، ***كتاب العبرودیوان المبتدأ والخبرفي أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*** ، بيروت دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ص.92.

[2] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.34.

3.1. امتدادات الفكر الأنثروبولوجي في عصر النهضة الأوروبية:

يتفق مجمل الباحثون على أنّ عصر النهضة الأوروبية كان مع بداية القرن الرابع عشر ميلادي حيث شهد ذلك مظهرين بارزين من النشاط الأوروبي: حملة الاستكشافات الجغرافية النشطة من جهة والمحاولات الجادة في الجرد والبحث في المعارف والعلوم المختلفة سواء في أوروبا أو عند العرب.

كما تمّ من خلال ذلك الانتقال التدريجي من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي الذي يقضي بضرورة دراسة الموضوع دراسة وضعية تجريبية علمية قائمة على أسس منهجية تجعل من الظاهرة الطبيعية والاجتماعية على حد سواء مجالا للبحث التجريبي، وتبلور هذا البراديغم في القرن السابع عشر.

كل هذه العوامل مجتمعة مهدت الطريق لنشأة علم الإنسان باعتباره علما قائما على دراسة تطوّر وانبثاق الحضارات الإنسانية المختلفة عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة والمتنوعة.

إذ تعتبر رحلة **"كريستوف كولومبوس" Christopher Columbus** نقطة انتقالية ومحورية في تطور وبروز البحث الأنثروبولوجي القائم على الوصف والتحليل والتصنيف والمقارنة، فرحلته كانت إلى القارة الأمريكية ما بين 1492-1502، وما ميّز مدوناته هو أنها كانت تتسم بالواقعية والموضوعية نظرا لاستخدامه **الملاحظة المباشرة** التي ستصبح فيما بعد منهجا أساسيا تقوم عليه الدراسات الحقلية الأنثروبولوجية.

كان لمذكرات **"كريستوف"** بالغ الأثر في تغيّر الكثير من المعتقدات المتحيزة والمنغلقة ومحدودة الأفق، إذ من خلال مدوناته تمت إعادة برمجة وتغيير النظرة للإنسان عموما وخاصة الإنسان الأوروبي، كما عززت من مواضيع البحث في التطوّر والاختلاف البشري وأثارت كثيرا من التساؤلات حول النشوء والتمايز والاختلاف والتنوّع.

ومن بين ما جاء في مذكراته وصفه لسكان **"جزر الكاريبيان"** في **المحيط الأطلسي**: ***"إنّ أهل تلك الجزر كلهم عراة تماما، الرجال منهم والنساء كما ولدتهم أمّهاتهم، ومع ذلك فثمّة بعض النساء اللواتي يغطين عوراتهن بورق الشجر أو قطعة من نسيج الألياف تصنع لهذا الغرض، ليست لديهم أسلحة ومواد من الحديد أو الصلب وهم لا يصلحون لاستخدامها على أية حال ولا يرجع السبب في ذلك إلى ضعف أجسادهم وإنّما إلى كونهم خجولين ومسالمين بشكل يثير الإعجاب..."***[1]. كما جاء في وصفه لسكان **"أمريكا الأصليين"**: ***" أنهم يتمتعون بحسن الخَلق والخُلق، وقوّة البنية الجسدية، كما أنهم يشعرون بحرية التصرّف فيما يمتلكون إلى حدّ أنهم لا يترددون في إعطاء من يقصدهم أيّا من ممتلكاتهم، علاوة على أنّهم يتقاسمون ما عندهم برضا وسرور..."***[2].

تميّز عصر النهضة الأوروبية بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أنّ المفكرين اتفقوا على الرغم من تباين وجهات نظرهم على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية..."[3]. كما أنه "توجد العديد من الكتابات التي تربط بين

---

[1] Wendell, Oswalt, ***Other people, other customs***, Holt Rinehart and Winston Inc, 1972,P.10.

[2] Daniel.J, Boorstin, ***The discoveries a history of man's search to know his world and himself***, Vintage Books edition,1985, P.628.

[3] حسين فهيم، مرجع سبق ذكره، ص.86.

ظهور علم الأنثروبولوجيا وعصر النهضة، إذ ظهر أول كتاب يحمل عنوان **"مصطلح الأنثروبولوجيا"** في عام 1501م لـ **"هاندت" "Hundt"** وهو محاولة للحديث عن جسم الإنسان من الناحية التشريحية"[1].

وبدأت تتوالى الكتابات التي تأخذ طابعا أنثروبولوجيا منها " عمل **"ميسي" "Messie"** تحت عنوان **"دروس متنوعة"** وكذلك **"جون بودان" Bodin** الذي كتب عام **1557م** كتابا بعنوان **"كتب الجمهورية الستة six livres de la Republic**، وكذلك **"ادوارد بربروود"** الذي نشر دراسات حول السلالات البشرية في أمريكا..."[2].

والظاهر من خلال الدراسات السابقة أنّ الدراسات الأنثروبولوجية الأولى كانت بمثابة كتابات أولية حاولت التأسيس لفهم وبحث أشمل للطبيعة الإنسانية وما يتعلّق بها من تجليات سلوكية وثقافية بكل أبعادها. علما أنه في القرن الثامن عشر بدأت مرحلة جديدة للأنثروبولوجيا عرفت فيها الكتابات انتعاشا حقيقيا "بسبب زيادة ظاهرة الاستيطان وزيادة معرفة الإنسان بالأرض والتدفقات الاستعمارية إلى مناطق شاسعة من الأرض، وفي هذا الصدد نجد **"لافيتو" "Lafiteau"** الذي قام بتأليف كتاب تحت عنوان Americains Mœurs des sauvages conparces aux mœurs des temps عام 1729م الذي درس عادات الهنود الحمر في أمريكا"[3].

واجمالا لِمَ سبق يمكن القول أنّ الأرضية التاريخية لنشأة العلوم الإنسانية والاجتماعية كانت واحدة ومتزامنة من ناحية الظروف والعوامل المساهمة في نشأتها، كما أعتبر عصر النهضة العصر الذي انبثقت فيه الاهتمامات الأولى لأغلب هذه العلوم، أين بدأت تأخذ منحى التطوّر والتمايز من ناحية الموضوع والمنهج.

استنتاج عام:

تعتبر البدايات الأولى لأي علم بدايات ذات امتدادات فكرية وتاريخية، خاصة العلوم الإنسانية والاجتماعية، لهذا تعتبر البواكر الأولى لنشأة علم الأنثروبولوجيا محطات فكرية تراوحت ما بين الأفكار المُحَصَّل عليها من خلال الرحلات الاستكشافية والكتابات الأولى التي تناولت في مواضيعها كل ما يتعلّق بالكائن الاجتماعي الذي لازمته الثقافة منذ الأزل وكانت بالنسبة له ناتج ومنتج في نفس الوقت.

وبالتالي كانت العصور التاريخية محطات تأسيسية في نشأة الأنثروبولوجيا، خاصة العصر اليوناني وعصر النهضة، إضافة للدور البارز الذي لعبته الكتابات الفلسفية العربية في توضيح المعالم الأولى لفكر إثنوغرافي وإثنولوجي متميّز ساهم إلى حد كبير في بلورة الملامح العامة لعلم جديد في طريقه للنشأة والتطوّر وهو علم الإنسان " الأنثروبولوجيا".

فماذا إذن عن النشأة الأكاديمية لعلم الأنثروبولوجيا؟

---

[1] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص: 29-30.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.30.

[3] رشوان حسين عبد الحميد أحمد، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:40-41.

2. النشأة الأكاديمية لعلم الأنثروبولوجيا:

إنّ الحديث عن الأصـــول النظرية لعلم الأنثروبولوجيا يجعلنا نركز على البحث في إجابة عن الســـؤال التالي: **كيف نشأ وتطوّر العلم؟**

خاصـــة وأننا اتفقنا مبدئيا واســـتنادا على ما ســـبق أنّ التفكير الأنثروبولوجي قد رافق جلّ الدراســـات والأفكار الإنســـانية الأولى، المولعة باكتشـــاف كل غريب ومحاولة التعرّف عليه عن كثب، ومن ثمّ محاولة البحث في التقاطعات والاختلافات بمنطق التباين والتمييز بين الجماعات والمجتمعات المختلفة.

كما وأنّ المنشـــأ الأول لهذه الأفكار والمحاولات لم يكن يرقى لمســـتوى العلم بل كان مجرّد تفكير ذا طابع إثنوغرافي أو إثنولوجي، ولم يكتسي صفة العلمية إلّا بعد وضوح معالم موضوعه ومناهجه.

فكيف يمكننا إذن فهم تلك التراكمية المعرفية والمنهجية التي أســـهمت في النشـــأة الأكاديمية لعلم الأنثروبولوجيا؟

1.2. الأنثروبولوجيا من الأفكار إلى العلم: مراحل التأسيس:

من خلال البحث في الأدبيات التي تناولت علم الأنثروبولوجيا بالبحث والتحليل يمكننا تحديد أربع محطات أساسية في تاريخ هذا العلم الإنساني ألاّ وهي:

أ. **المحطة الأولى: التعرّف والاستكشاف:**

وهي بوادر التفكير الأنثروبولوجي الأولى التي رافقت الرحلات الاستكشافية والحملات الاستعمارية، والتي يمكننا أن نطلق عليها تسمية *"الأنثروبولوجيا العفوية" أو "الاستكشافية"*.

ب. **المحطة الثانية: معاينة التنوع الثقافي:**

وهي مرحلة بداية تمايز العلم في عصر التنوير مع المحاولات الأولى لحظة التركيز الفعلي على التنوع الثقافي واختلاف الشعوب شكلا وثقافة.

ب. **المحطة الثالثة: الإنتاج التنظيري:**

وتمثلت في مرحلة الاســـتكمال والتركيز مع المحاولات الأنثروبولوجية الحديثة التي توجت العلم برصـــيد نظري، انبثق من المحاولات الأولى وحاول تأسيسها ابستمولوجيا ومنهجيا بما يلائم طبيعة المعرفة العلمية موضوعا ومنهجا.

ت. **المحطة الرابعة: التأسيس العلمي:**

وهي مرحلة البروز والاهتمام الفعلي بعلم الإنســـان كعلم موســـوعي شـــامل وعملي، أســـاســـه الدراســـات الميدانية الحقلية، وبالتالي كان " رسم تطور المفاهيم العامة للأناسة ولنظرياتها في ق18م أي عصر الأنوار[1].

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.29

أين أصبح العلم الاستكشافي علما يبحث في المُخْتَلِفِ، الغامض، الغريب وغير المألوف، مع شمولية طرحه الظاهرة جليا في أبحاثه الحقلية التي حاولت أن تصف أصل المواضيع الإنسانية وتطورها وانتشارها وحتى طريقة عملها.

وبالتالي تعود نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى القرن التاسع عشر، حيث كان الإنسان يسعى لفهم ذاته ومكانته في العالم من خلال محاولة تفسير ثقافاته وتاريخه، والبحث في كيفية تشكّل المجتمعات البشرية وتطورها.

ففي ظل التغيرات الكبيرة التي شهدها العالم في هذه الفترة، بدأ العلماء في دراسة الإنسان ليس فقط من ناحية بيولوجية، بل أيضًا من خلال سياقات اجتماعية وثقافية أوسع.

الأنثروبولوجيا، كما نعرفها اليوم، كانت في بداياتها فرعًا من فروع الفلسفة الطبيعية والعلوم الإنسانية وعلم الاجتماع تحديدا، فقد كانت الدراسات الطبيعية في البداية تقتصر على الإنسان ككائن بيولوجي، حيث بدأ العلماء في محاولة تصنيف البشر بناءً على خصائص جسدية. في تلك الحقبة، كانت هناك محاولات لفهم التنوع البشري من خلال تصنيف الأجناس البشرية على أساس مادي، وهو ما كان له تأثيرات فلسفية وعلمية عميقة على تكوين الأنثروبولوجيا كعلم مستقل.

لكن الأنثروبولوجيا لم تصبح علمًا مكتملًا إلّا مع تطور منهجيات البحث الميداني والنظريات المعرفية التي سادت في القرن التاسع عشر. مع بداية الاستكشافات الاستعمارية وازدياد الاتصالات بين الشعوب والثقافات المختلفة، أصبح هناك اهتمام متزايد بدراسة المجتمعات غير الغربية. حيث كان العلماء يسافرون إلى مناطق بعيدة لدراسة ثقافات شعوب "الغريب"، ويهدفون إلى فهم ديناميكيات الحياة الاجتماعية والتفاعل بين الإنسان وبيئته، وهذه الدراسات كانت في البداية تميل إلى التركيز على التنوع الثقافي والاختلافات العرقية بين البشر.

ومن بين أهم المعالم البارزة في تطور الأنثروبولوجيا الأكاديمية كان ظهور المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر، بقيادة علماء مثل إدوارد تايلور وليو فرويد، الذين قاموا بتطوير نظريات حول تطور البشرية وتفسير تنوع الثقافات على مر العصور.

تايلور كان من بين الأوائل الذين أطلقوا مصطلح "الأنثروبولوجيا الثقافية"، حيث قام بدراسة الأساطير والعادات والأديان في الثقافات المختلفة، وكان هدفه فهم القواسم المشتركة بين كل المجتمعات البشرية، وتفسير اختلافاتها من خلال التقاليد التي نشأت في كل منها.

في وقت لاحق، ظهرت المدارس الأنثروبولوجية الأخرى، مثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تطورت في بريطانيا، والأنثروبولوجيا الثقافية التي ازدهرت في أمريكا. في حين تبنى الأنثروبولوجيون الأمريكيون منهجيات الأنثروبولوجيا الميدانية واهتموا بدراسة المجتمعات المعاصرة، كان الأنثروبولوجيون البريطانيون يميلون إلى دراسة المجتمعات التي اعتُبرت أكثر "بدائية" عبر أساليب أكاديمية تستند إلى التحليل الاجتماعي المقارن.

وحدة الأنثروبولوجيا تكمن في قدرتها على أن تجمع بين الدراسة البيولوجية والثقافية في إطار واحد، حيث تبنى العلماء على مر العصور تقنيات متنوعة لدراسة الإنسان في سياقات متنوعة ومعقدة.

تطور هذا العلم على مر العصور ليأخذ أبعادًا متعددة تشمل الأنثروبولوجيا الفيزيائية، التي تهتم بدراسة تطور الإنسان من الناحية البيولوجية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تركز على هيكلة المجتمعات ودراسة التفاعلات الاجتماعية، إضافة إلى الأنثروبولوجيا الثقافية التي تركز على تفسير الظواهر الثقافية والفكرية عبر الزمن.

لقد شكلت هذه التطورات الأساس الذي أدى إلى تفرع الأنثروبولوجيا إلى فروع متخصصة في العصر الحديث، مما أتاح للعلماء فحص الإنسان من زوايا متعددة لا تقتصر فقط على دراسة الماضي البعيد، بل تشمل أيضًا التركيز على التحديات المعاصرة التي يواجهها الإنسان.

وبالتأكيد، لا يمكننا تحديد تطور الأنثروبولوجيا بشكل أكثر تفصيلًا إلّا من خلال تتبع الرواد المؤسسين لهذا العلم وأثر السياقات الجغرافية في تشكيل ملامح الأنثروبولوجيا في مناطق مختلفة من العالم.

فلقد ساهم العديد من المفكرين والعلماء في تأسيس الأنثروبولوجيا كعلم مستقل، وكل منهم جاء من سياق ثقافي وجغرافي مختلف، ساهم في تشكيل المناهج والاتجاهات النظرية التي ميزت الأنثروبولوجيا في تلك الفترة. ويمكننا تلخيصها في **ثلاثة سياقات جغرافية** على سبيل التبسيط لا التدقيق والحصر، كالتالي:

أ. **الرواد البريطانيون:**

شهدت بريطانيا تطورًا مهمًا في الأنثروبولوجيا، خاصة في القرن التاسع عشر، حيث نشأت الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي ركزت بشكل كبير على دراسات المجتمعات "البدائية" وعلى تحليل الظواهر الاجتماعية ومن روادها:

- **إدوارد برنت تايلور**(1832-1917) Edward Burnett Tylor :

الذي يُعتبر من مؤسسي الأنثروبولوجيا الثقافية في بريطانيا، وكان له دور بارز في وضع الأسس النظرية لدراسة الثقافات المختلفة، ففي كتابه الشهير "الثقافة البدائية(Primitive Culture) "، قدم تعريفًا للثقافة على أنها مجموع المعتقدات، والطقوس، والعادات التي تميز أي مجتمع. وقد اقترح نظرية التطور الثقافي، حيث اعتقد أنّ الثقافات تتطور في مراحل مختلفة، من الدين البسيط إلى الدين المنظّم، ومن الأنظمة الاجتماعية البسيطة إلى الأنظمة المعقدة.

- **جيمس فريزر**(1854-1941) James Frazer :

الذي كان رائدًا في الأنثروبولوجيا وركز على دراسة الأساطير، والمعتقدات الدينية، والطقوس في مختلف الثقافات. اشتهر بكتابه "**الغصن الذهبي**(The Golden Bough) "، الذي تناول فيه تطور الدين والأساطير في المجتمعات البشرية، وطور فكرة أنّ الأديان مرّت بمراحل من السحر إلى الدين التوحيدي. ويعتبر "جيمس فريزر" من الإثنولوجيين أصحاب الكراسي الجامعية الذين ليست لهم تجارب ميدانية على عين

المكان لكنهم جمعوا بضمانة مخبريهم رؤى ومعلومات فنظموها واستقوا منها ما تتضمنه من حقائق، فهو لم يغادر أوروبا أبدا عند إنجازه كتابه الغصن الذهبي هذه الدراسة الثرية في الأناسة الثقافية حول سر إيمان الشعوب وأخلاقها [1].

وعليه يمكننا القول بأنّ الأنثروبولوجيا البريطانية قد تأثرت بشكل كبير بالصراعات الاستعمارية، حيث كان العديد من العلماء البريطانيين يستعينون بالمعرفة التي جمعوها من المستعمرات لدراسة الشعوب "البدائية" وتحليل الأنماط الثقافية في مستعمرات الإمبراطورية البريطانية، وكان الهدف من هذه الدراسات غالبًا فهم الشعوب المستعمَرة لأغراض الإدارة والسيطرة الاستعمارية، وهو ما ألقى بظلاله على الاتجاهات الأولى للأنثروبولوجيا البريطانية.

- "ديفيد هيوم" David Hume و"آدم سميث" Adam Smith:

بحيث كان هؤلاء الفلاسفة يعتقدون أنّ المجتمعات عبارة عن أنظمة طبيعية وهم يعنون بذلك أنّ المجتمع ينجم عن الطبيعة البشرية لا عن العقد المجتمعي، بهذا المعنى كان كلامهم حول الأخلاقية الطبيعية" و" الديانة الطبيعية" والفقه الطبيعي..[2]

كانوا يرون أنّ المجتمعات بوصفها أنظمة طبيعية أو عضوية ينبغي أن تدرس بصورة تجريبية أو استقرائية لا وفقا للمناهج التي نادت بها العقلانية الديكارتية[3]، وكذا "هيوم": مصنف في الطبيعة البشرية محاولة لإدخال المنهج التجريبي في التفكير في صلب دراسة المواضيع الأخلاقية.

ب. الرواد الأمريكيون:

في الولايات المتحدة، تطورت الأنثروبولوجيا في سياق مختلف، حيث تأثّر العلماء الأمريكيون بالتحديات المجتمعية التي نشأت نتيجة التوسع الجغرافي، وصراعات الهوية، والاهتمام بالثقافات الأصلية، ومن بين البارزين نجد:

- فرانس بواس Franz Boas (1858-1942) :

المولود في ألمانيا والذي تكوّن أولا كعالم طبيعيات ثمّ رحل إلى الولايات المتحدة وبفضله تغيرت وضعية الأناسة الثقافية ذات النشأة الجديدة بصورة دائمة الأثر، فخلال توقفه لسنة في شمال كندا بحث **بواس** في لغة سكان تلك المنطقة الأنويت ودرس عالم حياتهم. وبعد أن نزل الولايات المتحدة قام بالكثير من الرحلات إلى الهنود الحمر في صحاري الشمال الغربي الأمريكي، وخلالها استفهم عن لغاتهم وتقاليدهم ووصف أحكامهم بفضل أحد المترجمين[4].

لذلك يعتبر **فرانس بواس** الأب المؤسس للأنثروبولوجيا الأمريكية، وقد كان له دورا حاسما في تشكيل المناهج العلمية للأنثروبولوجيا المعاصرة، من خلال اعتماده على المنهج الميداني في جمع البيانات، حيث

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.127.

[2] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.31.

[3] ***المرجع نفسه***، ص.32.

[4] كريستوف فولف، ***المرجع نفسه***، ص.127.

اعتقد أنّ الأنثروبولوجيا يجب أن تدرس المجتمعات في سياقها الثقافي والتاريخي الخاص بها. وكان من الأوائل الذين اعترضوا على النظريات الداروينية الاجتماعية التي كانت تسعى لتفسير الفروق العِرقية على أساس بيولوجي، وبدلاً من ذلك أكّد على تأثير العوامل الثقافية في تشكيل سلوك الإنسان

- مالينوفسكي **Bronisław Malinowski** (1884-1942) :

على الرغم من أنه كان بريطانيًا، إلّا أنّ أعماله كانت مؤثرة بشكل كبير في الأنثروبولوجيا الأمريكية، خاصة من خلال دراساته الميدانية التي اعتمدت على الملاحظة بالمعايشة، والتي عمل من خلالها بشكل ميداني في جزر تروبرياند في المحيط الهادي، وطور منهجًا يجمع بين الدراسة الثقافية والاقتصاد السياسي في مجتمعات "بدائية"، مؤكدًا على أنّ كل عنصر ثقافي، من الأساطير إلى المؤسسات الاجتماعية، يخدم وظائف معينة ضمن النظام الاجتماعي.

ومن هنا يمكننا القول بأنّ الأنثروبولوجيا الأمريكية كانت في بداياتها تركز على دراسة الشعوب الأصلية في الأمريكيتين، بما في ذلك الهنود الحمر، وكذلك المجتمعات الإفريقية والآسيوية، لتظهر في العقود التالية، الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية بشكل بارز، مع تركيزها على دراسة التحولات الثقافية في المجتمعات الحديثة. وعلى عكس الأنثروبولوجيا البريطانية التي كانت تركز على المجتمعات "البدائية"، أصبحت الأنثروبولوجيا الأمريكية تدرس المجتمعات العصرية في سياقات اجتماعية واقتصادية معقدة.

ت. الرواد الفرنسيون:

في فرنسا، كانت الأنثروبولوجيا أكثر ارتباطًا بالأنثروبولوجيا البنيوية والأنثروبولوجيا النفسية، حيث ركز المفكرون الفرنسيون على فهم الرمزية الثقافية والعلاقات بين الأفراد والمجتمعات، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر نجد:

- كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss (1908-2009) :

الذي يُعتبر أحد أعظم المفكرين في الأنثروبولوجيا الفرنسية، وقد طوّر الأنثروبولوجيا البنيوية التي ركزت على تحليل الثقافات من خلال الأنماط الرمزية، مثل الأساطير والفنون، التي تعكس البنية العميقة للعقل البشري، كما اعتقد أنّ البنى العقلية هي التي تحدد كيفية تنظيم المجتمعات والثقافات.

وتأثرت الأنثروبولوجيا الفرنسية بنظريات الهيكلية والرمزية، حيث تمّ التأكيد على أهمية الأنماط الفكرية والرمزية في تشكيل الثقافة الإنسانية، وكان هناك اهتمام متزايد بمقارنة الثقافات وتحديد الأنماط المشتركة بين المجتمعات البشرية، بعيدًا عن التحليل الوصفي البسيط.

- مونتسكيو "Baron De Montesquieu" **(1689-1755 م):**

كتابه الشهير **"روح الشرائع"** الذي هو مصنف في الفلسفة السياسية بل والمجتمعية قد عرف بشكل خاص بالنظريات الفريدة[1].

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.30

خاصــة وأنّ "بارون دي مونتســكيو" المفكر الفرنســي قد حاول من خلال كتابه **"روح القوانين"** أو **"روح الشــرائع"** **The spirit of the laws** الذي نشــر في عام 1748م تحليل ظاهر القوانين في المجتمعات الإنسـانية باعتبارها الروابط الطبيعية التي تنظم الجماعات الإنسـانية في كل المناطق التي تشـهد تجمعات حضرية، والتي بدورها تؤثر على نمط تفكير هذه المجتمعات..."[1].

واجمالا يمكننا تلخيص أهم آراءه كما ذكرها **"بريتشارد إفنز"**[2] كالتالي:

- ✓ كان يعتقد أنّ للمناخ تأثيرا على طباع الشــعوب ومن المأثور عنه أيضــا ملاحظاته حول فصــل السلطات في الحكم.
- ✓ كان يعتقد منذ ذلك الحين أنّ الظاهرات في مجتمع من المجتمعات تتقاطع جميعا ويتوقف بعضها على بعض.
- ✓ إنّ المرء لا يســتطيع أن يفهم القانون الدولي الدســتوري والجنائي والمدني إلاّ إذا أخذ بالاعتبار تلك العلاقة القائمة بينها جميعا.
- ✓ هدفه من كتابه هو البحث في هذه العلاقات جميعا، إنها تُشَــكِّلُ كلها مجموع ما نســميه **"بروح الشــرائع"**، والتي كان يعني بها عموما العلاقات الضــرورية التي تنجم عن طبيعة الأمور أي تلك الشروط التي تجعل من الممكن وجود مجتمع بشري.

ما ميّز هذا العمل الذي أتى به **"مونتسكيو"** هو تلك العلاقة التي ربطها بين الفعل والقانون أو الشريعة (التشريع) وهو ما يلخص فكرته الأساسية: " عندما تكون هذه القوانين متناقضة مع الروح الاجتماعية أو دون تطلعاتها تكون قوانين فاشلة ومثبطة"[3].

لقد تميّز الإنتاج التنظيري الذي أتى به **"مونتســكيو"** مرتكزا معرفيا لعديد الأعمال لاحقا، خاصــة وأنه قد اعتمد على تمييز مهم بين المجتمع كطبيعة والمجتمع كمبدأ:

- **طبيعة المجتمع:** هي التي تجعله على ما هو عليه، أي بنيته الخاصة.
- **مبدأ المجتمع:** هو الذي يجعله يتصرف، الأهواء البشرية التي تحركه"[4].

إنه يميز إذن بين البنية المجتمعية ونظام القيم الذي يفعل فعله داخل هذه البنية. وبالتالي ســنجد أنّ اسهام **"مونتسكيو"** كان له بعدين أساسيين:

أ. **البُعد الابستمولوجي:**

وهو ما عكســته أفكاره من خلال لفت الانتباه إلى نقطة مهمة في مجال العلوم الإنســانية عموما والاجتماعية خصوصا، وهي ضرورة التمييز بين البناء المجتمعي وكيف يعمل ويسير هذا البناء من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أنّ **"مونتســكيو"** اســتطاع أن يحلل تقريبا كل النظم الاجتماعية، ســواء كانت سياسية، دينية وحتى اقتصادية – وهذا ما سنراه لاحقا-.

---

[1] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص. 36.

[2] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.30.

[3] رشوان حسين عبد الحميد أحمد، ***مرجع سبق ذكره***، ص.42.

[4] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه***، ص.31.

ب. البُعد المنهجي:

يستعين **"مونتسكيو"** كثيرا بمنهج علم الفيزياء في التحليل الأنثروبولوجي، وصياغة الافتراضات وكذا القوانين المتحكمة في الاجتماع الإنساني، فهو يرى أنّ ارتباط القوانين بهذا المبدأ الفوري يُقوي النشاطات العديدة للحكومة، ثمّ يكتسب هذا الدور بدوره درجة جديدة من القوّة والنشاط وهكذا كما هو الحال في الميكانيكا فإنّ كل فعل دائما يعقبه رد فعل..."[1]، ولقد تطرق **"مونتسكيو"** من خلال كتاباته للنظم: النظام السياسي والنظام الديني أيضا.

بعد "مونتسكيو" استمرت الأناسة الفرنسية مع كتابات مثل كتاب: دالمبير Jean le Rond d'Alembert ، كوندورسيه Marquis de Condorcet ، تورغو Anne Robert Jacques Turgot ... وصولا إلى "سان سيمون" Henri de Saint-Simon أول من استحدث مقولة "علم المجتمع"، والذي كان يدعو إلى الوضعية والعلم وتحليل الوقائع لا المفاهيم وبعده أوغست كونت Auguste Comte[2].

استنتاج عام:

إنّ الأنثروبولوجيا كعلم نشأت وتطورت في سياقات جغرافية وثقافية متنوعة، مما جعلها علمًا غنيًا متعدد الأبعاد. تأثّر تطور الأنثروبولوجيا بتوجهات الرواد المؤسسين في كل منطقة جغرافية، كما ارتبط بالظروف التاريخية والسياسية، سواء في إطار الاستعمار أو ما بعد الاستعمار، مما أضفى على الأنثروبولوجيا طابعًا عالميًا، وأسهم في تشكيل المناهج والتوجهات التي نراها اليوم في دراسة الإنسان وثقافاته.

بالإضافة إلى السياقات الجغرافية التي تمت مناقشتها، نجد أنّ الأنثروبولوجيا قد تطورت في دول العالم الثالث في القرن العشرين، لا سيما بعد مرحلة ما بعد الاستعمار، حيث بدأت الأنثروبولوجيا تأخذ طابعًا نقديًا وتطبيقيًا، موجهًا نحو دراسة المجتمعات المتأثرة بالاستعمار والتحولات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها تلك المجتمعات وصولا للأنثروبولوجيا الرقمية.

فجهد الأنثروبولوجيين كان مركزا على المبادئ العامة وهي ما نسميه اليوم بالقوانين الاجتماعية منطلقين في ذلك من كلاسيكيات علم الأناسة[3] مع كل من: "مين": القانون القديم، القرى، الجماعات في الشرق والغرب، "باشوفن" ودراساته حول الأمومة، "فوستل دي كولانج" والمدينة القديمة ، "ماكلينان" والزواج البدائي، "تايلور" والثقافة البدائية، "مورغان" وأنظمة قرابة الدم والمصاهرة في العائلة البشرية وغيرهم الكثير...

(وهذا ما سنراه بالتفصيل في المدخل النظري لأهم الأطر والمدارس النظرية الأنثروبولوجية فيما سيأتي).

---

[1] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.37.

[2] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.31.

[3] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه*** ، ص.36.

2.2. الأقسام الكبرى للأنثروبولوجيا:

تُعد الأنثروبولوجيا علماً متعدّد الأبعاد يدرس الإنسان في شتى أبعاده عبر الزمان والمكان، وتنقسم الأنثروبولوجيا تقليديًا إلى أربعة فروع رئيسة، لكل منها موضوعه ومنهجيته الخاصة:

1. **الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology** :

تُركز على دراسة الثقافات البشرية من خلال تحليل الرموز، المعتقدات، العادات، والقيم، وتفسير كيفية تشكّل النظم الرمزية وتفاعلها مع البنية الاجتماعية، إذ تتناول موضوعات متنوعة، منها:

- ✓ **النظم الرمزية:** مثل الطقوس، الأساطير، اللغة، الدين، حيث يُنظر إليها كوسائل تعبير وإنتاج للمعنى.
- ✓ **القيم والمعايير**: كيف تُضبط السلوكيات من خلال القبول أو الرفض الثقافي، مثل مفاهيم "الشرف"، "العيب"، أو "النجاح."
- ✓ **التنشئة الاجتماعية** :كيف يُكتسب الفعل الثقافي عبر التنشئة منذ الطفولة.
- ✓ **الأنظمة الاقتصادية والثقافية** :كيف تُنتج وتُوزع الموارد ضمن منطق ثقافي خاص (الهدايا، المقايضة، التشاركية...).
- ✓ **التغير الثقافي** :كالتهجين، والعولمة، والصراع بين التقليد والحداثة والهوية وغيرها.

إضافة لدراسة الطقوس الانتقالية (الزواج، الميلاد، الموت) لفهم كيفية عبور الأفراد للمراحل الاجتماعية، وكذا تحليل العادات الغذائية كمدخل لفهم الطبقية أو التديّن كما فعل "ماري دوغلاس" Mary Douglas وبحث التقاليد الشفوية والأساطير لفهم النظام الرمزي المجتمعي.

الأنثروبولوجيا الثقافية تؤكد على أن الثقافة ليست كيانًا ثابتًا، بل هي عملية ديناميكية مستمرة، تتأثر بالتاريخ، والسياسة، والتكنولوجيا، والاحتكاك الثقافي. فهي فضاء للتفاوض، للهيمنة، وللمقاومة أحيانًا.

2. **الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology** :

تُعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرعًا أساسيًا من الأنثروبولوجيا، يهتم بدراسة البُنى الاجتماعية والنظم التي تنظّم حياة الإنسان داخل الجماعة، مثل نظام القرابة، والتنظيم السياسي، والأدوار الجندرية، والتقسيم الطبقي، والعلاقات الاقتصادية، والسلطة الرمزية[1].

وتتميّز بأنها تُحَلِلُ هذه البُنى من منظور كليholistic ، بمعنى أنها تدرس الظاهرة داخل سياقها الثقافي والاجتماعي والرمزي، وتسعى لفهم المعنى الذي يُضفيه الفاعلون عليها.

---

[1] ألفريد رادكليف براون(A.R. Radcliffe-Brown) مؤسس المدرسة البنيوية الوظيفية البريطانية. رأى أن كل ظاهرة اجتماعية تؤدي وظيفة في الحفاظ على توازن البنية الاجتماعية. ركّز على القرابة كنظام هيكلي أكثر من كونها مجرد علاقة شخصية.

إيفانس بريتشارد(E. E. Evans-Pritchard) قدّم دراسات ميدانية دقيقة عن الزاندي والنوير في إفريقيا.أوضح أن المجتمعات الإفريقية لها منطق داخلي ونُظم سياسية متكاملة. نقد التفسير الاستعماري المبني على "بدائية" هذه المجتمعات.

إدموند ليتش(Edmund Leach) ركز على الصراعات داخل البنية الاجتماعية، ورفض النظرة السكونية للبُنى.اعتبر أن الهياكل ليست ثابتة، بل تتغير باستمرار عبر التحولات الرمزية.

تركّز الأنثروبولوجيا الاجتماعية على الهياكل التي تنظّم المجتمعات وتشكّل سلوك الأفراد. ومن أبرز موضوعاتها: **نظام القرابة(Kinship)** الذي يُعدّ أحد المحاور الكلاسيكية، بحيث تهتم الأنثروبولوجيا بتحليل العلاقات النَسَبية والمصاهرة وكيف تُحدد الميراث، السكن، الأدوار، والسلطة. ومن روّاد هذا المجال **رادكليف براون Radcliffe-Brown**[1] **وكلود ليفي شتراوس**، الذي فسّر نظام المصاهرة في ضوء البُنى العقلية (البنيوية)، كما تهتم **بالتنظيم السياسي** من خلال دراسة السلطة والقيادة والعقوبات والعُرْف، في مجتمعات تقليدية وغير مركزية أحيانًا، أو في دول ما بعد الاستعمار، مثل دراسات **إيفانز بريتشارد**[2] عن النوير في السودان، حيث كشف عن وجود أنظمة سياسية "لا مركزية" تقوم على القرابة والعُرف . إضافة لدراسة **الاقتصاد الاجتماعي** القائم على تحليل علاقات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، ليس بوصفها فقط معاملات مادية، بل كبُنى تحمل دلالات اجتماعية (مثل تبادل الهدايا، والاقتصاد المعاشي).

كما تحظى **العلاقات الجندرية** بقيمة جوهرية في الدراسات الأنثروبولوجية محاولة فهم كيف يتم إنتاج الأدوار الجندرية داخل البنية الاجتماعية؟ كيف تتشكل المكانة الاجتماعية بناءً على النوع؟ مع دراسة **الطقوس والممارسات اليومية** التي تُفهم كأنظمة اجتماعية ذات وظيفة في الحفاظ على تماسك الجماعة أو في إنتاج التمايزات الاجتماعية.

وبالتالي تركّز الأنثروبولوجيا الاجتماعية على تحليل المعاني والرموز داخل البنية الاجتماعية، وليس فقط وصف الظواهر، وهي تتداخل في ذلك مع علم الاجتماع، كما يوضحه الجدول التالي:

الجدول رقم (01): الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع: تقاطعات واختلافات

وجه المقارنة	علم الاجتماع	الأنثروبولوجيا الاجتماعية
النطاق	المجتمعات الحديثة والمعقدة غالبًا	المجتمعات الصغيرة والمحلية غالبًا
المنهج	كمي وتحليلي (استبيانات، إحصاء...)	إثنوغرافي وميداني
الهدف	تحليل الظواهر الاجتماعية الكبرى	فهم البنية والمعنى من الداخل
النظرة للثقافة	أقل تركيزًا على الثقافة كمنظومة رمزية	مركزية وأساسية لفهم كل الظواهر

المصدر: من إعداد الباحثة

لكن في السياق المعاصر، تلاشت كثير من هذه الحدود، وظهرت اتجاهات "أنثروبولوجية حضرية" وأنواع من "السوسيولوجيا الإثنوغرافية"، ما يجعل التخصصين يتكاملان أكثر مما يتعارضان، وذلك من خلال فهم التنظيمات الاجتماعية لدى اللاجئين والمهاجرين، تحليل أشكال السلطة والهيمنة في مجتمعات ما

[1] Radcliffe-Brown, A. R. (1952). ***Structure and Function in Primitive Society***. Free Press.
[2] Evans-Pritchard, E. E. (1940). ***The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People.*** Oxford: Clarendon Press.

بعد الاستعمار، دراسة حركات الاحتجاج والتغيير الاجتماعي من منظور ميداني، تقييم برامج التنمية من خلال رصد آثارها الثقافية والاجتماعية[1].

3. **الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية Physical Anthropology** :

الأنثروبولوجيا الفيزيقية، التي يُطلق عليها أيضًا **الأنثروبولوجيا البيولوجية Biological Anthropology**، هي الفرع من الأنثروبولوجيا الذي يدرس **الإنسان من منظور بيولوجي وتطوري**، ويهتم بفهم **أصل الإنسان، تطوره الجسدي، تكيّفاته البيئية، وتنوعه البيولوجي عبر الزمن**[2].

تركّز هذه الأنثروبولوجيا على ما يجعل الإنسان كائنًا بيولوجيًا فريدًا، دون إغفال التفاعل بين العوامل الجسدية والثقافية في تشكيله عبر العصور . ومن **المجالات الأساسية للأنثروبولوجيا الفيزيقية نجد:**

أ. علم الإنسان القديم Paleoanthropology ، يهتم بدراسة بقايا الهياكل العظمية الأحفورية للأنواع البشرية المنقرضة، ويسعى لفهم تطور الإنسان من الكائنات الشبيهة بالقردة إلى الإنسان العاقل **Homo sapiens**. ومن أشهر الاكتشافات في هذا المجال *لوسي – (Lucy)* هيكل عظمي لأنثى أستراليوبيثيكوس يعود إلى حوالي 3.2 مليون سنة.

ب. الأنثروبولوجيا الجنائية Forensic Anthropology :

تطبيق المعرفة البيولوجية في تحليل الهياكل العظمية الحديثة لتحديد الهوية البشرية في سياقات قانونية أو جنائية، وتُستخدم في الكوارث الطبيعية، جرائم القتل، والمقابر الجماعية.

ت. علم الوراثة البشرية Human Genetics :

يدرس التنوع الجيني بين البشر، والهجرة السكانية، والعلاقات البيولوجية بين المجموعات البشرية. ويساعد في فهم أمراض معينة وعلاقتها بالتوزيع العرقي والجغرافي.

ث. علم السلالات أو التنوع البشري Human Variation and Adaptation :

يدرس كيفية تكيف الإنسان مع البيئات المختلفة (كالارتفاع، الحرارة، الرطوبة، الأمراض)، ويوضح كيف نشأت بعض السمات الجسدية كلون البشرة، وشكل الجمجمة، والطول، نتيجة للضغط البيئي التطوري.

ج. علم السلوك البيولوجي Primatology :

دراسة الرئيسيات (كالشمبانزي والغوريلا) لفهم السلوك البيولوجي المشترك مع الإنسان، ويُسهم في تفسير تطور الذكاء، العلاقات الاجتماعية، والرعاية الأمومية.

---

[1] لتفاصيل أكثر حول الأنثروبولوجيا الثقافية يمكنكم الاطلاع على:

- Leach, E. (1954). *Political Systems of Highland Burma*. Harvard University Press.
- Eriksen, T. H. (2015). *Small Places, Large Issues: An Introduction to Social and Cultural Anthropology*. Pluto Press.
- Kuper, A. (1996). *Anthropology and Anthropologists: The British School*. Routledge.

[2] **شارلز داروين :(Charles Darwin)** مؤسس نظرية التطور، والتي تشكل الأساس الفكري لهذا الفرع.

ريموند دارت :(Raymond Dart) مكتشف *Australopithecus africanus*، أحد أقدم أسلاف الإنسان.

فرانز بواس :(Franz Boas) رغم أنه يُعد من مؤسسي الأنثروبولوجيا الثقافية، إلا أن أعماله حول التنوع البشري أسّست لنقد التفسير العنصري في الدراسات البيولوجية.

Jane Goodall و **:Dian Fossey**متخصصتان في سلوك الرئيسيات، قدّمن رؤى عميقة عن أصل السلوك الاجتماعي.

ويعتمد في ذلك على التحليل المورفولوجي (للجمجمة، العظام، الأسنان) ، التقنيات الجزيئية(DNA) علم القياسات البشريةAnthropometry وتحليل النمط الظاهري والوراثي، إضافة للتنقيب الأحفوري والدراسات المقارنة.

ما يُميز الأنثروبولوجيا الفيزيقية هو **الجمع بين المنهج العلمي الطبيعي (التجريبي، التحليلي، البيولوجي)** والمنهج الإنساني، أي الربط بين الجسد والثقافة. فهي لا تدرس الإنسان ككائن بيولوجي فقط، بل تراعي كيف أثّر المجتمع والثقافة في التكيف والتطور البشري.

وبالتالي تظهر أهمية الأنثروبولوجيا الفيزيقية في قدرتها على **فهم الإنسان ككائن تطوّر بيولوجيًا في بيئات متغيرة**، وعلى إظهار كيف أن **الاختلافات الجسدية بين البشر ليست دليلًا على التفوق أو التفاوت، بل نتيجة لتاريخ طويل من التكيف البيئي والتنوع الوراثي**.

وهكذا، تكشف الأقسام الكبرى للأنثروبولوجيا – سواء منها الثقافية، أو الاجتماعية، أو الفيزيقية – عن ثراء وتعدد زوايا النظر إلى الإنسان، في كليّته وتشظّيه، في ماديّته ورمزيّته، في حركته وتكوينه. لقد أتاحت لنا هذه المقاربات فهم التنوع الإنساني لا بوصفه تباينًا سطحيًا، بل كعلامة على عمق التاريخ، وتعقيد البنى، وتفاعل الإنسان مع محيطه الطبيعي والثقافي. غير أن هذه التخصصات – على أهميتها – لا تستوفي وحدها كل ما تنطوي عليه الأنثروبولوجيا من أسئلة علمية وأدوات منهجية. فهي تشكل فقط مدخلًا نحو فهم أعمق لماهية هذا العلم، ولموقعه ضمن الحقول المعرفية، وللرهانات الفكرية التي أثارها منذ نشأته.

من هنا، يبرز من الضروري أن نتوقف عند "الأنثروبولوجيا كعلم"، باعتبارها خطابًا معرفيًا له خصوصيته، ونشأ في سياقات تاريخية وفكرية معينة، وتطوّر تحت تأثير تحوّلات إبيستمولوجية ومنهجية هامة. لذا سنحاول فيما سيأتي تفكيك طبيعة هذا العلم، وتحديد مقوماته، وتبيّن خصوصيته داخل الحقل الاجتماعي والإنساني الأشمل، وسؤالنا في ذلك:

ما موضوع الأنثروبولوجيا وما أهدافها كعلم؟

- **ثالثا. موضوع الأنثروبولوجيا وأهدافها:**

منذ أن بدأ الإنسان في محاولاته لفهم نفسه ومكانه في العالم، كانت الأسئلة حول هويته، وسلوكه، وثقافاته وعلاقاته مع الآخرين من بين أبرز القضايا التي شغلت تفكير العلماء والمفكرين. فلقد سعى الإنسان منذ العصور القديمة إلى معرفة حقيقة وجوده، ليس فقط على مستوى الفرد بل على مستوى الجماعة البشرية ككل.

وبينما تتنوع الإجابات على هذه الأسئلة عبر الزمن، إلّا أنّ هناك علمًا يسعى منذ نشأته إلى تقديم صورة شاملة ومعمقة للإنسان، من خلال دراسة علاقاته مع بيئته، ثقافاته، ومجتمعاته.

هذا العلم يتسم بالتنوع في أساليبه ومناهجه، وقد تطور على مرّ العصور ليشمل عدّة أبعاد معرفية، تهدف جميعها إلى تقديم فهم عميق ومعاصر للإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًا وثقافيًا. لكن مع هذا التنوع،

يبقى الهدف المشترك لجميع هذه المناهج هو اكتشاف سلوك الإنسان وتفسيره في سياقات متعددة، وهو ما يعكس عراقة هذا العلم وقدرته على التأقلم مع مستجدات العصر. لذا لنا أن نتساءل:

ما هو موضوع الأنثروبولوجيا وما أهم أبعاده، وإلى ما تهدف من خلاله؟

1. موضوع الأنثروبولوجيا وأبعاده المختلفة:

1.1. موضوع علم الأنثروبولوجيا:

إنّ موضوع الأنثروبولوجيا لا يتحدد بالزمان والمكان، فهو يهتم بالتساؤل حول:

- ✓ ما هو أصل تاريخ البشرية؟
- ✓ ماذا تُكَوِّن البشرية الآن؟
- ✓ إلى أين تسير البشرية؟
- ✓ كيف حدث التغيّر في الماضي؟

لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية ولون البشرة والعادات والتقاليد والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة "[1]. ولعلّ ما كتبته الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية **"مارجريت ميد" M.Mead** في وصفها لهذا العلم، يُبرز بصورة شاملة ومدققة أهم مواضيعه والغاية منه، قائلة:

" نحن نصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية، كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة. كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجيا، ونعني أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة فنحن الأنثروبولوجيين نسعى لربط وتفسير نتائج دراساتنا في إطار نظريات التطور أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر. إنّ التخصصات الأنثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها هي في ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد، وهي التي تثير الانتباه وتعمل على الإبداع والتجديد. هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ جزءا لا بأس به من عمل الأنثروبولوجيين يوجه نحو القضايا العملية في مجالات الصحة والإدارة والتنمية الاقتصادية ومجالات الحياة الأخرى "[2].

ولمّا كانت الأنثروبولوجيا هي **"علم الإنسان"**، فإنّ موضوعها المركزي هو الإنسان في حدّ ذاته وكلّ ما يتعلّق به، كما أنّ هذا الإنسان يتميز بالخاصيات التالية[3]:

- ✓ فله جسد يجرب به عالما خارجيا مقابلا له.
- ✓ وهو يوجد في الجسد وله نفس وحياة باطنية.

---

[1] حسين فهيم، ***مرجع سبق ذكره***، ص.13.

[2] حسين فهيم، ***المرجع نفسه*** ، ص.10.

[3] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.72.

- ✓ وله من خارج الجسد نقطة (زاوية) نظر إلى الخارج والداخل ويمكن أن يدرك الضربين الآخرين والمراوحة بين الداخل والخارج مراوحة غير قابلة للتجاوز.

والتدقيق في هذه الخواص يجد أنها تعكس الأبعاد العامة والأساسية في الانثروبولوجيا كعلم إنساني ينطلق من المورفولوجيا أو الفزيقي ليصل إلى التمثلات والتصورات والمخيال والشعائر والممارسات وبالتالي الثقافة التي تعكس علاقتنا بالذات والآخر المغاير، وبالتالي يعتبر الإنسان كبنية كاملة قابلة للدراسة والبحث والتقصي ومحاولة الفهم والاستكشاف. لذلك نجد أنّ هذه البنية تُطابق تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام[1]:

- ✓ العالم الخارجي Aussenwel.
- ✓ والعالم الداخلي Innenwelt.
- ✓ والعالم المشترك Mitwelt بين الذات والآخرين أو عالم المعية.

فالعالم الخارجي ينتج عن الامتداد المتصل الذي تتميز بها الأشياء فيه، وهو لا يمكن أن يتحوّل إلّا إلى محيط للحيوان. كما أنّ ذلك لا يمكن أن يتحقق كذلك في عالم الإنسان الخارجي، والعلّة في ذلك هي أنّ الوجه المضاعف المعطى للإنسان مع خارجيته عن المركز الخارجية التي تؤدي إلى إدراك الداخل والخارج في آن. ونتيجة لقدرة الإنسان على إدراك العالمين الخارجي والداخلي بمنظور مزدوج يُطابق العالم الخارجي العالم الداخلي بوجهه المضاعف أعني النفس والتجربة المعيشة[2].

وعليه، يمكن القول أنّ الأنثروبولوجيا، باعتبارها علمًا شاملًا وديناميكيًا، تُشَكِّل حلقة وصل أساسية لفهم الإنسان في جميع أبعاده، سواء كانت بيولوجية، ثقافية، اجتماعية أو نفسية. لقد سعت الأنثروبولوجيا منذ نشأتها إلى فهم الإنسان ليس فقط في سياقات تاريخية أو جغرافية معينة، بل في تنوعه الواسع ومختلف تجاربه عبر الزمان والمكان. هذا التنوع في الموضوعات والأساليب يعكس الطبيعة التعددية والشمولية لهذا العلم الذي يواكب تطور المجتمعات ويعكس التغيرات الحاصلة فيها.

إنّ الأسئلة التي تطرحها الأنثروبولوجيا حول الإنسان، مثل ما هو أصله وتاريخه، وكيفية تطوره في الماضي وأين يتجه في المستقبل، تُشَكِّل محاور رئيسية لفهمه بعمق. كما أنّها تفتح المجال لتفسير الفروق بين البشر عبر دراسة الثقافات المختلفة، وتعمل على بناء جسور للتواصل بين المجتمعات، ما يعزز التفاهم المتبادل والسلام.

وبالتالي يمكننا القول أنه من خلال الأبعاد المختلفة لهذا العلم، سواء كانت الإبستمولوجية، المنهجية، الثقافية أو العملية، يمكن للأنثروبولوجيا أن تسهم بشكل كبير في تعزيز تقدّم المجتمعات وفهم التحديات التي تواجهها، كما في مجالات الصحة والتنمية الاقتصادية والإدارة.

---

[1] كريستوف فولف ،*مرجع سبق ذكره* ، ص.73.

[2] *المرجع نفسه*، ص.73.

وهكذا، تبقى الأنثروبولوجيا علمًا حيويًا وضـروريًا لمواكبة التحولات والتغيرات التي تشـهدها البشـرية، والبحث في الطرق الأمثل لإيجاد حلول لمشاكلها المعاصرة.

فما هي أبعاد هذه المواضيع والدراسات؟

2.1. أبعاد الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية باختلاف السياق الجغرافي للأنثروبولوجيين:

يختلف النظر إلى موضوع الأنثروبولوجيا وأبعاده باختلاف السياق الجغرافي للأنثروبولوجيين، حيث نجد:

أ. **الأمريكيون: الأنثروبولوجيا الأمريكية:**

تعتبر الأنثروبولوجيا دراسة الإنسان من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء -كما سبق وأشرنا- ويستخدم الأمريكيون مصطلح " **الأنثروبولوجيا الجسمية**" **الفيزيقية** Physical anthropology للإشارة الى دراسة الجانب العضوي أو الحيوي للإنسان، بينما يستخدمون مصطلح **الأنثروبولوجيا الثقافية** cultural anthropology ليعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان. يدخل في ذلك الدراسات التي تتعلّق بحياة الإنسان القديم (أو حضارات ما قبل التاريخ) والتي يُشار إليها بعلم **الأركيولوجيا** Archeology.

ب. **الإنجليز: الأنثروبولوجيا الإنجليزية**:

الأنثروبولوجيا في إنجلترا تمتاز بتوجهاتها الإستقرائية واهتمامها الكبير بدراسة المجتمعات الصغيرة والمتجانسة. على الرغم من أنّ الأنثروبولوجيا الإنجليزية قد تأثرت إلى حد كبير بالمدارس الأمريكية في بداياتها، إلّا أنها تميزت لاحقًا بتطوير منهجيات ميدانية ودراسة الثقافات المحلية في سياقات مختلفة، مثل **مجتمعات الفلاحين أو المجتمعات القروية في إفريقيا وآسيا**. كما ركّزت على الدراسات الميدانية التي كانت واحدة من السمات البارزة للأنثروبولوجيا الإنجليزية، من خلال الاهتمام بالملاحظة الميدانية المباشرة، والتي كانت تركز على دراسة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات في أماكن معزولة نسبيًا أو غير متأثرة بالعولمة. كانت هذه الدراسات الميدانية تستند إلى العمل الميداني الطويل الأمد، وهو ما يمكن ملاحظته في الدراسات التي قام بها بعض الأنثروبولوجيين البريطانيين مثل **برونيسلاف مالينوفسكي**، الذي يُعتبر من الرواد في هذا المجال، وقد ركزت دراساته على فهم العادات الاجتماعية والتفاعل بين الأفراد في المجتمعات النائية.

في إنجلترا، أصبحت الأنثروبولوجيا جزءًا أساسيًا من دراسة **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، التي كانت تركز على فهم الهياكل الاجتماعية والنظم التنظيمية في المجتمعات البدائية أو التقليدية. هذا التوجّه اهتم بفهم البنية الاجتماعية، وكيفية تأثير العلاقات الاجتماعية على الحياة اليومية للأفراد داخل المجتمع.

كما كانت تميل أيضًا إلى دراسة العلاقة بين الثقافات والتاريخ الاستعماري، وكيف شكّل الاستعمار البريطاني العلاقات الاجتماعية في المستعمرات. هذا الاهتمام كان أيضًا جزءًا من الأنثروبولوجيا

السياسية، حيث كان الباحثون يدرسون تأثير الاستعمار على المجتمعات المُستَعمَرة، وكيفية تأثير السلطة الاستعمارية على الهويات الثقافية.

ت. الفرنسيون: الأنثروبولوجيا الفرنسية:

الأنثروبولوجيا في فرنسا كان لها طابع مختلف مقارنة بالمدارس الأنثروبولوجية الأخرى، حيث تأثّرت بشكل كبير بالنظريات الفلسفية والاجتماعية الفرنسية، وكان الاهتمام بالفلسفة الاجتماعية، والرمزية، واللغة من بين السمات البارزة لهذه المدرسة الأنثروبولوجية، بحيث تميّزت باهتمامها العميق بـ الأنثروبولوجيا الثقافية والرمزية، حيث كانت اللغة والرموز تلعب دورًا كبيرًا في تفسير الظواهر الثقافية والاجتماعية. وقد تأثّر الأنثروبولوجيون الفرنسيون بشكل كبير بالنظريات البنيوية التي طورها **كلود ليفي شتراوس**، الذي أكّد من خلالها أنّ الثقافات يمكن أن تُفهم من خلال البحث في الأنماط الرمزية التي تنظم تصرفات الأفراد في المجتمعات.

وفقًا له، يمكن فهم الثقافات المختلفة عن طريق تحليل الأنماط العميقة التي تكمن وراء الظواهر الثقافية، مثل **الأساطير والطقوس**.

إضافة إلى ذلك، ركّز الأنثروبولوجيون الفرنسيون على الدراسة النقدية للمجتمعات المعاصرة، واهتموا بشكل خاص بدراسة السلطة والهوية الثقافية، خاصة فيما يتعلّق بالاستعمار والإمبريالية[1]. كما كان البحث في البنية الاجتماعية والهوية الثقافية أحد أوجه التميّز في الأنثروبولوجيا الفرنسية، إذ كان لهم دورا مهما في دراسة كيفية تشكيل الهوية من خلال المؤسسات الاجتماعية والثقافية، مثل **الدين، العائلة، التعليم**، وكيفية تفاعل الأفراد في المجتمعات المختلفة من خلال هذه المؤسسات.

وعليه، تُظهر الأنثروبولوجيا في مختلف السياقات الجغرافية والاتجاهات الثقافية تباينًا كبيرًا في طرق تفسير ودراسة الإنسان. في حين أنّ **الأنثروبولوجيا الأمريكية** تركز على الجوانب البيولوجية والثقافية مع التركيز على الملاحظة الميدانية والدراسات المتخصصة، تميزت **الأنثروبولوجيا الإنجليزية** بالاهتمام بالعلاقات الاجتماعية والهياكل الثقافية في المجتمعات التقليدية، مع تركيز على العمل الميداني ودراسة تأثير الاستعمار. من ناحية أخرى، اهتمت **الأنثروبولوجيا الفرنسية** بتفسير الأنماط الثقافية من خلال البنيوية والرمزية، مع اهتمام خاص بالهوية والسلطة في سياقات اجتماعية وثقافية معقدة.

في جميع هذه المدارس، يظل الهدف المشترك هو فهم الإنسان في سياقاته المتعددة، وتقديم رؤى علمية تسهم في تفسير كيف شكّلت العوامل البيولوجية والثقافية والتاريخية سلوك البشر في الماضي والحاضر، وسنتوسع في أهم الرواد وأفكارهم الأنثروبولوجية فيما سيأتي عرضه لاحقا في أهم الاتجاهات والمدارس الأنثروبولوجية، كون أنّ الهدف من هذا العرض هو التعريف العام باختلاف الرؤى في تناول موضوع الإنسان باختلاف السياق الجغرافي للأنثروبولوجيين الأمريكيين والانجليز وكذا الفرنسيين.

[1] **الإمبريالية** هي سياسة أو ممارسة تهيمن فيها دولة قوية على دولة أو مجموعة دول أخرى، سواء من خلال القوة العسكرية، أو النفوذ الاقتصادي، أو السيطرة الثقافية. غالبًا ما ترتبط الإمبريالية بالتوسع الاستعماري، حيث تسعى الدول الكبرى إلى فرض سيطرتها على أراضٍ أجنبية لتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية.

كما أنّ أبعاد مواضيع الأنثروبولوجيا واختلاف التركيز على أبعاد بعينها مقارنة بغيرها يتعلّق بالسيرورة الزمنية التي رافقت انبثاق الأنثروبولوجيا وتطورها، وفيما يلي بيان ذلك:

3.1. أبعاد الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية باختلاف السياق الزمني-التاريخي للأنثروبولوجيين:

منذ نشأتها، تطورت الأنثروبولوجيا من مدرسة معرفية إلى أخرى، تبعًا للتغيرات الاجتماعية، الثقافية، والسياسية التي مرت بها المجتمعات. وبالتالي، يمكن تقسيم تطور الأنثروبولوجيا إلى عدّة مراحل تاريخية تميز كل منها مناهج وأبعاد دراسية محددة. وهنا سنعرض أبعاد الدراسات الأنثروبولوجية باختلاف السياق الزمني-التاريخي للأنثروبولوجيين عبر ثلاثة أطر رئيسية: **الأنثروبولوجيا التقليدية، الأنثروبولوجيا الحديثة، الأنثروبولوجيا المعاصرة:**

أ. الأنثروبولوجيا التقليدية:

الأنثروبولوجيا التقليدية نشأت في القرن التاسع عشر بداية كعلم يسعى لدراسة "الآخر"، وكان العلماء في تلك الفترة مهتمين بشكل رئيسي بدراسة الأنواع البدائية أو المجتمعات غير المتقدمة مقارنة بالحضارات الغربية.

في هذه الفترة، كان التركيز على دراسة الثقافات الغريبة والمجتمعات التي تعتبرها الأنثروبولوجيا الغربية "بدائية" أو "متخلفة"، وكان من أهداف وأبعاد مواضيع الأنثروبولوجيا التقليدية:

- دراسة الأنواع البشرية:

إذ كان الهدف الرئيسي في هذا السياق هو فهم الإنسان في حالاته البدائية ومقارنته بالحضارات الحديثة. استخدم الأنثروبولوجيون التقليديون المنهج الاستقرائي واهتموا بتوثيق العادات والتقاليد في المجتمعات المعزولة أو التي تعتبر "مختلفة" عن المجتمعات الغربية.

- الاستعمار و"الآخر":

كانت الأنثروبولوجيا في هذه الحقبة تتأثر بشكل كبير بالأيديولوجيات الاستعمارية، حيث كان العديد من الأنثروبولوجيين يعملون لصالح المستعمرين ويفسرون المجتمعات المستعمَرة من خلال عدسة تفوق الثقافات الأوروبية على غيرها.

- التفسير الوصفي:

كان العديد من الأنثروبولوجيين التقليديين يركزون على وصف الثقافات بدلاً من تحليلها أو مقارنتها مع ثقافات أخرى. وبهذا، كانت دراساتهم تفتقر أحيانًا إلى عُمق التحليل أو الفهم النقدي للعلاقات الاجتماعية والثقافية.

ويعتبر برونيسلاف مالينوفسكي واحدًا من رواد الأنثروبولوجيا التقليدية، حيث ساهم بدراسة المجتمعات البولينيزية في جزر تروبرياند وركّز على الدراسة الميدانية التي تمت عن طريق العيش داخل المجتمعات التي يدرسها.

وبالتالي كان الموضـوع المركزي للأنثروبولوجيا التقليدية هو **"المجتمع البدائي"**[1]، ولكن ووفقا لِمَ يؤكده **"إيفنز بريتشـارد"** لا بد من التعريف المنهجي السـليم **"للمجتمع البدائي"**، بحيث أنّ كلمة **"بدائي"** كما أُصْـطُلِحَ على فهمها في الأدبيات الأناسـية لا تعني بتاتا أنّ هذه المجتمعات قد شـهدت وجودا سـابقا على وجود المجتمعات الأخرى أو أنها أدنى درجة منها، فالمعلومات التي نملكها تمكننا من القول إنّ الشـعوب البدائية قد عرفت تاريخا يطول تاريخنا على الأقل ، ورغم أنها لا تتمتع بدرجة من التطوّر مسـاوية لدرجة تطورنا فقد يتفق لها بشكل من الأشكال أن تنم في بعض الميادين عن درجات من التطوّر متقدمة علينا[2].

الذين اختاروا هذه الكلمة قد أسـاءوا الاختيار، تسـتعمل هذه اللفظة للدلالة على مجتمعات قليلة العدد تحتل أرضـا محدودة المجال، وتقيم صـلات مجتمعية خارجية محدودة وليس لديها بالمقارنة مع المجتمعات المتقدمة إلاّ تكنولوجيا وبنى اقتصـادية بسـيطة لا يلاحظ فيها إلاّ وظيفة مجتمعية قليلة التخصص وبعض المواصفات الأخرى كغياب الأدبيات المكتوبة، وبالتالي الافتقاد لأي نظام في الفن والعلم والإلهيات...[3].

ليُضيف **"بريتشارد"** تساؤله المنهجي **لماذا ندرس المجتمعات البدائية؟**، مُوَضِحًا -وفقا لذلك- بأنّ هذه المجتمعات البدائية تسـترعي من فترة طويلة انتباه الذين يهتمون بالمؤسـسـات المجتمعية، فهي من **ق18م** تسـترعي انتباه الفلاسـفة لأنها توفر مثالا عمّا كان يُفْترض به أن تكون وضـعية الإنسـان الذي يعيش في الحالة الطبيعية، قبل نشوء مؤسسة الحُكم المدني[4].

لنعود إلى ما قاله **كوندياك**: ونحن الذين نعتبر أننا أكثر النّاس علماً، علينا التوجه نحو الشعوب الأكثر جهالة لنتعلّم منهم بداية اكتشـافاتنا، فذلك ما نحتاج إليه. ونحن نجهله لأننا لم نعد، ومنذ وقت طويل، أبناء الطبيعة[5] .

وكأنّ المجتمعات البدائية والعمل على دراسـتها يقدّم لنا صـورة واضحة عن كيف كانت مجتمعاتنا قبل أن تكون على ما هي عليه الآن.

---

[1] **ملاحظة هامة:** المجتمعات البدائية ليسـت الوحيدة محلّ الدراسـة، ففي أمريكا حيث تحظى الأناسـة المجتمعية في الجامعات بتقدير أكبر، قام الأمريكيون والباحثون بدراسـات هامة جدا تناولت مجتمعات متطورة في إيرلندا واليابان والصين والهند والمكسـيك وكندا والولايات المتحدة الأمريكية نفسـها منها دراسـة "أرنز برغ" و "كمبال" لإيرلندا الجنوبية , كما سـجل في بريطانيا الأناسـون البريطانيون بعض التأخر في أبحاثهم حول هذه النقطة بالذات وذلك لأسـباب عديدة كنقص الملاك اللازم والعدد الكبير من الشعوب البدائية في بلدان "الكومنولث" لكنهم الآن في صدد تدارك هذا التأخر إذ يسعون لتوسع دائرة أبحاثهم

إضـافة لطلاب معهد الأناسـة المجتمعية في أكسـفورد الذين قاموا بدراسـات شـتى حول الجماعات الريفية في الهند والأنتيل وتركيا واسـبانيا، فضـلا عن بدو افريقيا الشمالية وعن الحياة الريفية والمدنية في إنجلترا. كذلك دراسات حول المجتمعات التاريخية كدراسات "جيمس فرايزر" حول العبرانيين القدماء وحول بعض أوجه الثقافة الروماني. ومن هنا بدأت نقطة التحوّل في موضـوع الأنثروبولوجيا وعدم اقتصـاره على المجتمعات البدائية بل قد يشـمل حتى المجتمعات القروية والريفية والمتطورة والحديثة والمعاصـرة والرقمية، لأنه ببسـاطة العلم الذي يهتم بدراسـة الإنسـان دراسـة شـاملة دون تحديد زماني ولا مكاني، أنظر: بريتشـارد إفنز، ***مرجع سـبق ذكره***، ص.ص:16-17.

[2] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.14

[3] ***المرجع نفسه*** ، ص.ص:14-15

[4] ***المرجع نفسه*** ، ص.15

[5] جيرار لكلرك، ***الأنثروبولوجيا والاستعمار***، ترجمة جورج كتورة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1999، ص.215

وبالتالي أثارت المجتمعات البدائية في **ق19م** اهتمام الأنّاسين (الأنثروبولوجيين) الذين كانوا يعتقدون أنّ من شأن هذه المجتمعات أن تقدّم لهم مؤشرات هامة تساعدهم على تفسير نشأة المؤسسات وأصولها[1].

كون أنّ فائدة هذه الشعوب تكمن في توفيرها لنا واقعة تساعدنا على فهم نقطة انطلاق وجودنا المعاصر من جهة، وفي صيانتها، من جهة أخرى، لصحة هذا الوجود من الناحية النظرية ومن الناحية الوصفية. إنّ مفهوم - الشعوب الطبيعية ولا يشير إلى فكرة قاعدة عملية أو حياة خلقية أصلية وحسب بل إلى قواعد نظرية أيضاً. ومن خلال العلاقة بهذه القواعد يكتمل علمنا معنى وصلاحية[2]، خاصة وأنّ هذا النوع من الشعوب يوفر المثال الحي عن المؤسسات في أدنى درجات تجليها ولأنّ القاعدة تقتضي أن تبدأ الدراسة مهما كانت بتفحص الأبسط وصولا إلى تحليل الأعقد الذي تشكّل دراسة الأبسط رافدا إيجابيا له[3]. خاصة وأنّ التجربة برهنت أنّ من الأسهل معاينة الشعوب التي تختلف ثقافتها اختلافا كليا عن ثقافتنا نظرا لأنّ غرابة أسلوب معيشتها وخصوصيات هذا الأسلوب تتضح لنا بصورة مباشرة وبديهية، مما يساعد التفسير والتحليل على الاستفادة من قسط أكبر من الموضوعية، وكذلك سرعة تغيرها، لذلك لا بد من دراستها قبل فوات الأوان[4].

ب. الأنثروبولوجيا الحديثة:

مع مطلع القرن العشرين، بدأت الأنثروبولوجيا تتحوّل إلى علم أكاديمي وأكثر منهجية، وظهرت مفاهيم جديدة مثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية .في هذه المرحلة، كانت الأنثروبولوجيا أقل تأثرًا بالأيديولوجيات الاستعمارية، وبدأت في التركيز على دراسة المجتمعات الحديثة بجانب المجتمعات التقليدية، كما شهدت هذه المرحلة تطورًا في الأساليب البحثية واستخدام المناهج الكمية والنوعية.

وكان من بين أهداف وأبعاد مواضيع الأنثروبولوجيا الحديثة:

- **دراسة المجتمعات الحديثة:**

بدأ الأنثروبولوجيون في هذه الحقبة يهتمون بشكل أكبر بدراسة المجتمعات الحديثة في الغرب والمجتمعات الصناعية، مع التركيز على التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحدث في تلك الفترات.

- **التركيز على العلاقة بين الفرد والمجتمع:**

بدأت الأنثروبولوجيا الحديثة في دراسة الأنماط الاجتماعية والطبقات الاجتماعية، وكيفية تأثير المؤسسات والثقافة على سلوك الأفراد داخل المجتمعات.

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.15

[2] جيرار لكلرك، ***المرجع نفسه***، ص.215

[3] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه*** ، ص.15

[4] ***المرجع نفسه***، ص.ص: 15-16

- **البحث المنهجي:**

شهدت الأنثروبولوجيا الحديثة تطورًا في استخدام المنهجية الميدانية والتحليل الكمي والنوعي في دراسة الأنماط الثقافية والممارسات الاجتماعية، كما ظهرت مفاهيم جديدة مثل الرمزية الثقافية والأنثروبولوجيا النفسية.

إذ يعتبر **كلود ليفي شتراوس** من أبرز الأنثروبولوجيين في القرن العشرين، واهتم **بالأنثروبولوجيا البنيوية** التي كانت تهدف إلى فهم الأنماط الكامنة في الثقافات البشرية من خلال الرموز والعلاقات داخل المجتمعات.

ت. الأنثروبولوجيا المعاصرة:

في **النصف الثاني من القرن العشرين**، وتحديدًا في **السبعينات والثمانينات**، بدأت الأنثروبولوجيا في الخروج من المنظور التقليدي والحديث، لتظهر أبعاد جديدة في البحث تتناول التحديات المعاصرة التي تواجه المجتمعات، مثل العولمة، الهويات الثقافية، الحركات الاجتماعية، التغيرات البيئية، والعدالة الاجتماعية .

وتتميز الأنثروبولوجيا المعاصرة بالتفاعل المتزايد مع العلوم الأخرى مثل **علم الاجتماع، وعلم النفس، والعلوم السياسية**، بالإضافة إلى ازدياد الوعي بموضوعات العدالة الاجتماعية والحقوق الثقافية والتحولات الرقمية وكذا التنمية.

وتمثّلت أهداف وأبعاد مواضيع **الأنثروبولوجيا المعاصرة** في:

- **التركيز على التنوّع الثقافي:**

تزايد الاهتمام في هذه المرحلة بـــ الهوية الثقافية والتنوّع الثقافي، مع دراسة العلاقات بين الثقافات في سياق العولمة والتعددية الثقافية.

- **العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان:**

بدأ الأنثروبولوجيون في هذه الفترة بالتوجّه نحو قضايا العدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان، حيث أصبح علم الأنثروبولوجيا أكثر ارتباطًا بالعمل الميداني في المجتمعات المهمشة أو المتأثرة بالصراعات.

- **البحث النقدي:**

تميزت الأنثروبولوجيا المعاصرة بمناهج أكثر نقدية وتفاعلية، حيث بدأ الأنثروبولوجيون يعيدون النظر في أساليبهم البحثية، مثل الملاحظة الميدانية، ويؤكدون على أهمية الاستماع لأصوات المجتمعات المدروسة.

- **الأنثروبولوجيا التطبيقية:**

بالإضافة إلى ذلك، أصبحت الأنثروبولوجيا في الفترة المعاصرة تساهم بشكل مباشر في حل مشكلات اجتماعية واقتصادية، مثل التخطيط العمراني، والتنمية الاقتصادية، والتحولات البيئية.

وعليه وإجمالا لِمَ سبق، يمكننا القول أنّ هذه المراحل المختلفة في تاريخ الأنثروبولوجيا تُظهر تطورًا تدريجيًا في أساليب البحث وفي الأبعاد التي يتم التركيز عليها. من **الأنثروبولوجيا التقليدية** التي كانت تركز

على دراسة الشعوب البدائية والوصف الثقافي، إلى **الأنثروبولوجيا الحديثة** التي ركزت على العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الحديثة، وصولًا إلى **الأنثروبولوجيا المعاصرة** التي تهتم بـ قضايا العدالة الاجتماعية والحقوق الثقافية، لتظل بذلك الأنثروبولوجيا علمًا يعكس التغيرات التي تطرأ على المجتمعات البشرية ويسهم في فهمها.

وبالتالي يمكننا القول بأنّ الأنثروبولوجيا قد شهدت في العقود الأخيرة تحوّلات نوعية من حيث الموضوعات والمقاربات. فقد تجاوزت حدود المجتمعات "البدائية" أو "البسيطة" نحو دراسة المجتمعات الحديثة والمعقدة، متّخذة من **المدينة والهجرة والهوية والسلطة والمقاومة والعولمة** مواضيع مركزية.

أصبحت الأنثروبولوجيا المعاصرة تُعنى بفهم ديناميات التغير الثقافي والاقتصادي والسياسي، مستندة إلى أدوات ميدانية رصينة مثل **الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المعمقة، والتحليل الرمزي والخطابي**. كما أصبحت حقلًا تفاعليًا يربط بين علوم أخرى كعلم الاجتماع، والدراسات الثقافية، والعلوم السياسية، بل وحتى الذكاء الاصطناعي والدراسات الرقمية.

إذ تعددت مهام الأنثروبولوجيين في السياق المعاصر، فلم يعودوا مجرد مراقبين محايدين، بل فاعلين في فهم وتحليل قضايا اجتماعية راهنة كـ:

- دراسة الهويات الهجينة والتحولات الثقافية في سياق العولمة.
- تحليل العلاقة بين الثقافة والسياسة، خصوصًا في المجتمعات ما بعد الاستعمارية.
- فهم التفاعل بين الإنسان والتكنولوجيا فيما يُعرف بـ"الأنثروبولوجيا الرقمية."
- المشاركة في التنمية المستدامة من خلال مشاريع ميدانية حساسة ثقافيًا.
- تحليل النزاعات، والهجرة، واللجوء من منظور إنساني ونسقي.
- المساهمة في صياغة السياسات العمومية ذات البُعد الثقافي والاجتماعي.

تفتح **الأنثروبولوجيا اليوم آفاقًا** واعدة أمام الباحثين، خصوصًا في ظلّ الأزمات العالمية: من التغير المناخي، إلى التحوّلات الاقتصادية، إلى الصراعات الهوياتية.

بات الأنثروبولوجي يُنظر إليه كمحلل استراتيجي للمجتمع، له القدرة على الغوص في طبقات المعنى والخطاب، وتقديم رؤى نقدية تعيد رسم حدود الفهم التقليدي للثقافة والسلطة. وفي سياق التعليم، وسوق العمل، والمجال الإنساني، تزداد الحاجة إلى هذه النظرة العميقة التي توفرها الأنثروبولوجيا، لا سيما في عالم بات يعاني من الاختزال والتبسيط المفرط للظواهر.

كما يمكننا النظر إلى أبعاد الدراسات والمواضيع الأنثروبولوجية وفقا للنظم الاجتماعية والثقافية التي اعتبرت مواضيع رئيسية بل مركزية في جلّ الأعمال الأنثروبولوجية باختلاف توجهاتها النظرية وطروحاتها المختلفة، وفيما يلي عرض ذلك:

3.2. أبعاد الدراسات والمواضيع الأنثروبولوجية وفقا للنظم الاجتماعية والثقافية المركزية:

يعتبر نظام الزواج والقرابة والدين من بين المواضيع المركزية في الدراسات الأنثروبولوجية:

أ. الأنثروبولوجيا ونظام الزواج والقرابة [1]

"هنري مين" Henry Maine هو الذي أسس القانون المقارن في إنجلترا وكان يدّعي أنّ العائلة الأبوية تشكل الصيغة الأصيلة والشاملة للحياة المجتمعية وأنّ سلطة الأب المطلقة التي هي العمود الأساسي في هذا البناء قد أدّت في مرحلة معينة إلى ولادة كل المجتمعات وإلى ولادة التصليب أي النسب المنحدر من صلب الذكور.

بينما كان باحث آخر هو السويسري **"باشوفن" Bachofen** يصل إلى نتيجة مناقضة تماما من حيث شكل العائلة البدائية والغريب في الأمر أنهما نشرا نتائج أبحاثهما في العام نفسه. ففي رأي **"باشوفن"** كان هناك في البداية اختلاط جنسي متعدد في كل مكان ثمّ ظهرت الأنظمة المجتمعية التي تعتمد على النسب الأمّي وسيطرة الأمّ ولم تستبدل هذه الأنظمة النظام الذي يعتمد النسب الأبوي وسيطرة الأب إلاّ في فترة متأخرة من تاريخ البشر.

كما تحدث **"ماكلينان" McLennan** عن النظام الأموي والزواج الخارجي نظرا لانتشار وأد البنات الأمر الذي يحتم البحث عن الزوجات من الخارج.

كان يعتقد آخرون أنّ البشر الأوائل كانوا يعيشون في حالة من الفلتان الجنسي في حين أنّ كل الأدلة المعروفة تتفق على القول بأنهم كانوا يعيشون أينما كانوا على شكل جماعات تعتمد النسب الأمّي الطوطمي، وأنهم علاوة على ذلك يمارسون عادة تأثر الدم، وأنّ هذه الأرهاط كانت مستقلة على الصعيد السياسي بعضها عن بعض. إذ أنّ كل رهط منها كان يكوّن جماعة تعتمد الزواج الخارجي الذي هو نتيجة مباشرة لوأد البنات ضمن الجماعة، بحيث أنّ الرجال يضطرون للبحث عن زوجات لهم في قبائل أخرى، ثمّ اعتمدت هذه المجتمعات البدائية على نظام تعدد الأزواج إلى استبدال نظام النسب الأمّوي بنظام النسب الأبوي، في حين بدأت العائلة تتخذ شيئا فشيئا البنية التي نعهدها عليها الآن. كانت هناك القبيلة أولا ثمّ كان الرهط ثمّ العائلة، وقد استبعدت أطروحة **"ماكلينان"** هذه من قبل اسكتلندي آخر كان **"وليم روبرستون سميث"** William Robertson Smith فطبقها على الوثائق الأولى التي تروي تاريخ العرب والعبرانيين [2].

كما ادعى **"جون بوبوك"** هو الآخر أنّ الزواج كما نعرفه اليوم قد نشأ عن الاختلاط الجنسي البدائي ويبدو أنّ هذا الرأي كان قد اتخذ لدى كُتَاب ذلك العصر أبعادا جعلته أقرب إلى الهوس.

---

[1] بريتشارد إفتز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.39.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.40.

في حين ادعى "مورغان" أنّ تطوّر العائلة والزواج قد مرّ فيما لا يقل عن 15 مرحلة، بدءا بحالة الاختلاط الجنسي الفوضوي وانتهاء بالزواج الأحادي، والعائلة كما نجدها اليوم مستتبة في الحضارة الغربية.

يعتقد "فروبرستون سميث" كما كان يعتقد "ماكلينان" قبله ، أنّ تقليد زواج السُلْفَة يؤيد الفرضية القائلة بأنّ تعدد الأزواج في مجتمع معيّن كان يمارس في زمن سابق، وفي السياق نفسه من الأفكار كان "مورغان" يدّعي أنّ النظام التصنيفي لقاموس ألفاظ القُربى الذي يطلق الفرد بموجبه اسم "أب" على جميع الأفراد الذكور الذين ينتمون إلى جيل أبيه و "أمّ" على جميع النساء اللواتي ينتمين إلى جيل أمّه و "أخ" و "أخت" على جميع أبناء هؤلاء و "ابن" و "بنت" على جميع أبناء هؤلاء الأبناء، إنما يبرهن على أنّ أعضاء هذه المجتمعات الغابرة قد عاشوا قبل ذلك حالة من الاختلاط الجنسي أو حالة شبيهة بها[1].

ب. الأنثروبولوجيا والدين:

أعتبر الدين موضوعا مهما ومركزيا في الدراسات الأنثروبولوجية باعتباره بُعدا مهما في فهم الثقافات البشرية المختلفة وتجلياتها السلوكية، إذ حاول الأنثروبولوجي "إدوارد تايلور" أن يُبَيِنَ أنّ جميع المعتقدات الدينية وجميع العبادات تنشأ عن تفسير خاطئ لبعض الظاهرات والأحلام والغيبيات والرؤى والأمراض وحالة اليقظة وحالة النوم والحياة والموت[2].

كما كان يعتقد "جيمس فريزر" هو الآخر اعتقادا راسخا بقوانين الاجتماع، فتطوّر المجتمعات يمر في رأيه بثلاث مراحل متعاقبة هي السحر والدين والعلم، وهو يرى أنّ الإنسان البدائي كان خاضعا للسحر وأنّ السحر شأنه شأن العلم يُفَسِرُ الطبيعة بوصفها "سلسلة من الأحداث التي تتم وفقا لنسق ثابت دونما تدخّل من عوامل مشخصّة"[3].

ورغم أنّ الساحر يسلم بقوانين الطبيعة كالعالم فإنّ هذه القوانين التي يظن أنه على معرفة بها و أنّ بوسعه تسخيرها لغاياته الخاصة ليست في حالة الساحر قوانين حقيقية بل مجرد قوانين وهمية لكن بعض الأفراد الأذكياء في المجتمع يتوصلون مع الوقت إلى إدراك وهمي لهذه القوانين، فيعوضون عن عملية نزع الأوهام هذه باختراع كائنات روحية ذات قدرات تفوق قدرات البشر، فهي بالتالي آلهة تستطيع تغيير مجرى الطبيعة لصالح الإنسان شرط أن يدأب على عبادتها عبادة معينة، هكذا يصل البشر إلى مرحلة الدين ، لكن الإنسان لا يلبث أن يتنبّه من جديد لهذا الخطأ الذي وقع فيه، فيكون هذا التنبه إيذانا بنشأة المرحلة الثالثة والأخيرة من تطوره وهي المرحلة العلمية[4].

وبالتالي تعتبر مواضيع الأنثروبولوجيا مواضيع ثرية وشاملة كونها تحاول البحث في كل الأنظمة الاجتماعية والثقافية المكونة للمجتمعات المختلفة.

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.41

[2] ***المرجع نفسه*** ،ص.41

[3] ***المرجع نفسه*** ،ص.42

[4] ***المرجع نفسه*** ، ص.42

وقد "حذرت تأملات **نيتشه وفوكو** الحاجة إلى إنهاء الارتهان بمعيار الأناسة ذات النزعة التجريدية، فَعَمَّقت تأملات **همبولت** وأدّت إلى توسيع موضوعات الأناسة ونقاط الوصل لتتجاوز التاريخ والثقافة الأوروبيين وتشمل آفاق علم السلالات ومناظيرها (الإثنولوجيا). وتحاول الأناسة اليوم أن تصل تاريخية مفهوماتها ومناظيرها ومناهجها وطابع هذه الأبعاد الثقافي أن تصلها بتاريخية موضوعاتها وطابعها الثقافي. فبوصفها تاريخية تثمر الأناسة حصائل العلوم الإنسانية والأناسة النقدية ذات التأسيس الفلسفي التاريخي والفلسفي الثقافي، فتجعل الطرح الحديث للمسائل طرحا مثمرا. إنّ نواة جهودها تسود عليها حركية فكرية لا يمكنها أن تتوقف وبحوث الأناسة التاريخية لا تقتصر على أحياز ثقافية محددة أو على عهود جزئية. كما يمكنها تفكرها في تاريخيتها وثقافيتها الخاصتين من أن تتخلص من المركزية الأوروبية التي تجدها في العلوم الإنسانية لتفتح مشكلات الحاضر والمستقبل[1].

لتكون بذلك علما موضوعيا شاملا وكليا يسعى إلى فهم الذات الإنسانية في إطار الذات الثقافية والتعددية السياقية. وهنا تحديدا تتجلى أهداف الانثروبولوجيا كعلم إنساني:

2. أهداف الأنثروبولوجيا كعلم:

تهدف الأنثروبولوجيا كعلم إلى:

- ✓ **دراسة التنوع البشري**: فهم الاختلافات الثقافية والاجتماعية بين الشعوب في مختلف أنحاء العالم.
- ✓ **تحليل السلوك البشري**: دراسة سلوك الأفراد والجماعات في سياقات اجتماعية وثقافية متنوعة.
- ✓ **فحص الأنماط الثقافية**: دراسة القيم، التقاليد، المعتقدات، والعادات التي تُشَكِّلُ ثقافات الشعوب وتؤثر في حياتهم اليومية.
- ✓ **دراسة الهويات الاجتماعية**: فهم كيفية تَشَكُّل الهويات الفردية والجماعية بناءً على عوامل مثل العِرْق، الجنس، الدين، والطبقة الاجتماعية.
- ✓ **تحليل التفاعل بين الإنسان وبيئته**: دراسة كيفية تأثير البيئة الطبيعية والمادية على ثقافات البشر وأسلوب حياتهم.
- ✓ **دراسة التطور البشري**: فحص تطور الإنسان من منظور بيولوجي وثقافي عبر العصور المختلفة.
- ✓ **تفسير التغيرات الاجتماعية والثقافية**: فهم التغيرات التي تطرأ على المجتمعات عبر الزمن، مثل التحولات الاقتصادية، السياسية، والتكنولوجية.
- ✓ **تطبيقات الأنثروبولوجيا**: استخدام نتائج البحث الأنثروبولوجي في مجالات مثل التعليم، التنمية البشرية، الصحة العامة، وصنع السياسات الاجتماعية.

وبالتالي "إذا كان السعي إلى تحقيق كمال الفرد يُعَدُّ مهمة التربية فإنّ واجب الأناسة هو تحسين الإنسانية، وقد ميّز **إمانوال كانط** في كتابه الأناسة من منظور ذرائعي الذي ألفه سنة **1798** بين أناسة

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.14.

عضوية وأناسة ذرائعية، وفي حين تحدد الأناسة العضوية الشروط الثابتة التي تمد بها الطبيعة الإنسان تحدد الأناسة الذرائعية مهمة تحضير الإنسانية وتثقيفها[1] . فالأناسة الذرائعية ترسم المجال الذي يُشَكّل فيه الإنسان إمكانية مستقبله ورسالته، وبالمقابل مع **كانط** يؤكد **جفريد هردروفلهالم فون همبولت** على الخاصية التاريخية والثقافية للأناسة، ومن ثمّ فهمًا قد وضعا محددات تبرز أناسة الحاضر ، في مقتضى نظرة **همبولت** ينبغي للأناسة المقارنية أن تدرس خصائص الإنسان التاريخية الثقافية في المجتمعات المختلفة. وهي تسعى بذلك إلى أن تبحث في الفروق بين المجتمعات والثقافات والأفراد وأن تفهم في نفس الوقت مثال الإنسانية الأعلى، ضمن التنوع والفروق وعوارض الأحداث، ويقتضي ذلك نهج علم الطبيعة و نهج التأويل التاريخي كما يحتاج إلى نهج التفكّر الفلسفي ونهج الحكم الجمالي. وبفضل البحث في عهود وثقافات مختلفة تتكوّن معرفة أناسية تُقَدِّمْ لنا فهمًا أفضل للنمو والتطور الاجتماعيين والثقافيين. وليس هدف المعرفة الأناسية حسب **همبولت** ***العلم من أجل العلم بل هي تهدف كذلك إلى التمهيد لعمليات التربية بغاية تحسين الإنسانية***[2] .

- **ثالثا. خصائص الأنثروبولوجيا وأهميتها:**

1. خصائص الأنثروبولوجيا كعلم إنساني اجتماعي-ثقافي:

ما يميّز هذا العلم عن بقية العلوم أنه:

- يدرس المجتمع ككل دون التركيز على جانب محدّد بذاته، وبذلك فهو يستخدم **المنهج الكلي** في الدراسة فهو يدرس المجتمع في عقائده وشعائره واقتصاده وسياساته...
- يستخدم **المنهج المقارن** في دراسة الإنسان فهو أنسب الطرق في دراسة الأنثروبولوجيا، حيث تتم دراسة مقارنة لمجتمعات متعددة في أبنيتها الاجتماعية وثقافتها حتى يمكن التوصل إلى تعميمات عملية مجردة تحدد خصائص تلك المجتمعات.
- تعتمد الأنثروبولوجيا الثقافية أو الاجتماعية المعاصرة على ما يسمى **بالبحث الحقلي أو المعاينة الميدانية** للنموذج المختار للدراسة.
- من أهم الخصائص التي تميزه عن بقية العلوم الإنسانية هو اختياره لنوعية معينة من النماذج المجتمعية التي يدرسها. وقد كان النموذج المختار للدراسة في القرن 19/18م هو المجتمع الذي يوصف بأنه بدائي لأنه مجتمع صغير نسبيا ومحدود الكثافة تسهل دراسته دراسة كلية شاملة.

ونظرا لكون هذا العلم يمتاز بكل هذه الخصائص التي تجعله يقع موقع التشارك مع عديد العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، مما يكسبه طابعا خاصا ويمنحه أهمية بالغة تظهر من خلال:

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.12.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.ص:12-13

2.أهمية الأنثروبولوجيا:

الأنثروبولوجيا كما سبق ورأينا لا تقتصر فقط على دراسة الإنسان من خلال عدسة علمية محضة، بل تحمل أهمية كبيرة على مستويات متنوعة، سواء في إطارها الإبستمولوجي (المعرفي)، المنهجي، الثقافي أو العملي. وسنعرض في هذه النقاط المختلفة أهمية الأنثروبولوجيا في مجالات عدّة:

1.2. الأهمية الإبستمولوجية - النظرية:

الأنثروبولوجيا تُقَدم إسهامًا كبيرًا في تطوير المعرفة الإنسانية بشكل عام، إذ توفر إطارًا معرفيًا يسمح بفهم الإنسان في سياقاته المختلفة. من خلال الدراسات الأنثروبولوجية نتمكّن من فهم كيفية تشكّل الأفكار والمفاهيم والقيم داخل المجتمعات، ومن هنا تُسهم الأنثروبولوجيا في تحليل الأسس المعرفية التي تبنيها المجتمعات حول مفاهيم مثل: **العائلة، الدين، السلطة، الثقافة، الهوية والعِرْق**، مما يساعد في إعادة التفكير في الطريقة التي
نشكّل بها المعرفة في سياقات متعددة.

كما أنها تساهم في تقديم رؤية نقدية للمفاهيم السائدة في العلوم الاجتماعية الأخرى، مثل الاقتصاد والسياسة، من خلال تسليط الضوء على التشابك بين الثقافات وطرق تفسير الظواهر الإنسانية.

3.2. الأهمية المنهجية:

الأنثروبولوجيا تقدم أدوات ومنهجيات فريدة تسمح للباحثين بمقاربة الواقع البشري بشكل معمق ودقيق. فهي تعتمد على الملاحظة الميدانية كأداة أساسية لفهم حياة الأفراد والجماعات من خلال تفاعلاتهم اليومية. هذه المنهجية التي تركز على التفاعل المباشر مع المجتمعات المدروسة تتيح للأنثروبولوجيين جمع معلومات غنية عن ثقافات متنوعة إلى جانب المقابلات والملاحظة بالمعايشة، تعتمد الأنثروبولوجيا على التحليل المقارن بين المجتمعات والثقافات المختلفة لفهم تنوع السلوكيات الإنسانية، مما يساهم في تطوير أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية وحتى الطبيعية الأخرى.

كما أنّ الأنثروبولوجيا تتميّز باستخدام تقنيات البحث النوعي التي تتجاوز الأرقام والإحصائيات لتغطي الجوانب الإنسانية العميقة التي لا يمكن قياسها بطريقة تقليدية أو كمية محضة لأنها تركز على المعنى الثقافي والاجتماعي المشترك والمغاير.

3.2. الأهمية الثقافية:

تلعب الأنثروبولوجيا دورًا هامًا في فهم الثقافات المتنوعة والحفاظ عليها من الاندثار، خاصة في عالم يتسارع فيه التحديث والعولمة، إذ تساهم في دراسة وتوثيق العادات والتقاليد، واللغات، والفنون، والمعتقدات التي تُشَكِّل هوية الشعوب وتضمن الاستمرار الثقافي للأجيال القادمة.

كما ساهمت وتساهم الأنثروبولوجيا بشكل كبير في تطوّر **"الأنثروبولوجيا الجديدة"**، خاصة في دول العالم الثالث التي لعبت دورًا محوريًا في تطوّر هذا المجال في القرن العشرين. فالأنثروبولوجيا الجديدة تركز على مناهضة الاستعمار، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والعمل على **إحداث التغيير في المجتمعات**

النامية بهدف تجاوز قضايا التخلّف والتهميش، كـ" الدور الذي لعبته دول العالم الثالث في وضع أساسيات " الأنثروبولوجيا الجديدة" التي تقوم على مناهضة الاستعمار والعمل على إحداث التغييرات في مجتمعاتها بهدف تحقيق التقدم ومجابهة مشاكل التخلف [1].

وهي بذلك تسعى إلى إحداث **تقدّم اجتماعي و اقتصادي**، وتحقيق التمكين الثقافي والسياسي من خلال المساهمة في رسم الاستراتيجيات التنموية بناءً على الطبيعة الثقافية للمجتمعات المختلفة.

وبالتالي تُعدّ الأنثروبولوجيا أداة فعالة في بناء **تعاون دولي** على مستوى الشعوب، إذ تدعو إلى **إحلال السلام العالمي** وتُسْهِم في نشر **التفاهم المتبادل بين الثقافات** وتعزيز التعاون بين الدول والشعوب المختلفة، مما يساعد في تقليل النزاعات وتعزيز التفاهم بين الأمم ومن ثمّ "تحقيق قدر أكبر من التعاون والتواصل الدولي وإحلال السلام العالمي كغاية إنسانية كبرى "[2].

4.2. الأهمية العملية:

على الصعيد العملي، تساهم الأنثروبولوجيا في العديد من المجالات التطبيقية التي تؤثر بشكل مباشر على حياة الأفراد والمجتمعات، فمن خلال تطبيقات الأنثروبولوجيا في التنمية البشرية، يُمكن تحسين البرامج الاجتماعية والصحية، وتوجيه السياسات العامة بما يتناسب مع الاحتياجات الثقافية والاجتماعية للمجتمعات المختلفة.

كما تسهم الأنثروبولوجيا في إدارة النزاعات من خلال دراسة الأسباب الثقافية والاجتماعية للنزاعات وصياغة استراتيجيات لحلها بشكل مستدام.

دون إغفال اعتبارها أيضاً أداة تعليمية مهمة، حيث تساعد في تطوير مناهج تربوية تتناسب مع ثقافات متعددة وتراعي التنوع الثقافي. وكذا دورها البارز في استشارات الأعمال، حيث يمكن استخدامها لفهم الثقافات التنظيمية داخل الشركات متعددة الجنسيات وتحسين بيئة العمل من خلال تعزيز التنوع والاحترام المتبادل بين الموظفين من خلفيات ثقافية مختلفة.

وتزداد أهمية الأنثروبولوجيا كعلم مستقل بذاته من خلال العلاقة القوية التي تربطه بباقي العلوم، الأمر الذي أكسبها حضورا قويا في عدّة مجالات وتخصصات، وهذا ما سنلمحه من خلال التالي:

---

[1] حسين فهيم، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.10

[2] ***المرجع نفسه***، ص.10

علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى وأهم ميادينها:

في سياق تطوّر المعرفة الإنسانية، تسعى الأنثروبولوجيا إلى تقديم رؤى شاملة وعميقة حول الإنسان وسلوكه في مختلف البيئات الاجتماعية والثقافية. لكن هذا السعي العلمي لا يتم بمعزل عن العلوم الأخرى، فالعلاقة بين الأنثروبولوجيا وبقية العلوم تُعَدُّ من أبرز الجوانب التي تُمَيِّزُ هذا العلم وتمنحه عمقًا وتنوعًا، عبر التفاعل مع **العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية** تمكنت الأنثروبولوجيا من إثراء فهمنا للإنسان من عدّة جوانب، سواء من الناحية **البيولوجية، الاجتماعية، الثقافية**، أو **التاريخية**.

إذ تستمد الأنثروبولوجيا قوتها من هذا التداخل المعرفي، حيث تتعاون مع **العلوم السياسية، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس** وغيرها، مما يسمح لها بتوسيع آفاقها في دراسة الظواهر الإنسانية في سياقات متنوعة ومعقدة.

وعليه يمكن بناء هذه العلاقة وفقا لمعيارين هما:

- **نوعية العلاقة**: مباشرة وغير مباشرة.
- مضمون هذه العلاقة وماذا يتضمن كل علم من الناحية المعرفية والمنهجية.

ومن هنا، يُطرح سؤالنا:

ما هي ميادين هذا العلم التي تلتقي فيها الأنثروبولوجيا مع العلوم الأخرى، وكيف يُمكن لهذا التداخل أن يُغني دراساتنا للإنسان ومجتمعاته؟

▪ أولا. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى:

بناءً على المعيارين السابقين يمكن جمع العلوم في علاقتها بالأنثروبولوجيا في ثلاث مجموعات رئيسية هي:

1. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الإنسانية:

العلوم الإنسانية هي مجموعة من التخصصات التي تهتم بدراسة جوانب الثقافة البشرية، مثل الأدب، التاريخ، وعلم المكتبات والأرشيف... وتتمثل العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الإنسانية في التقاطع بين دراسة الإنسان في سياق ثقافي وفكري وتاريخي:

ث. التاريخ:

الأنثروبولوجيا والتاريخ يشتركان في دراسة الماضي البشري، إلّا أنّ الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة الحياة اليومية والثقافات في فترات زمنية مختلفة، في حين أنّ التاريخ يركز على الأحداث الكبرى والشخصيات التاريخية. ومع ذلك، فإنّ دراسة الأنثروبولوجيا تساعد في بناء فهم أعمق للسياقات التاريخية الاجتماعية والثقافية.

يدرس هذا العلم الإنسان من خلال أحداث تاريخية ومراحل زمنية تبحث في الحضارة والثقافة والعادات والتقاليد وعلم الأنثروبولوجيا يبحث في ذات الموضوعات ولكن بوصف وتحليل من خلال المراحل الزمنية للحضارة الإنسانية. فإذا كان "التاريخ يحاول إدراك السير الكرونولوجي للأحداث وإعادة

بناء مراحل التطوّر فإنّ الأنثروبولوجيا تحاول فهم البناء الوظيفي للمؤسسات الاجتماعية والثقافية"[1]، كما يمكن القول بأنّ الأنثروبولوجيا هي علم تاريخي ، وهذا ما يتفق مع الفكرة التي أكّد عليها "ميتلند" "Maitland F w" سنة 1999م حينما صرّح بأنه يجب على الأنثروبولوجيا أن تختار بين أن تكون تاريخا أو لا تصبح شيئا على الاطلاق، وقد دعم هذا الرأي أيضا "ميتشال أوكيشوت" "Michael Oakeshot"[2]، غير أنّ هذه المغالاة في اعتبار الأنثروبولوجيا تاريخا محضا قد يقصي الفروقات المنهجية والابستيمية الموجودة بين العلمين، وهذا ما يشير إليه **"بريتشارد"** في كتابه[3]: ولو أنّ العلاقة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ لا تظهر بشكل واضح للأسباب التالية:

- أنّ **الأناسين** يقومون بدراسات مباشرة على الحياة المجتمعية في حين أنّ **المؤرخين** يقومون بدراسة غير مباشرة بمعنى أنهم يستقون معلوماتهم من الوثائق المكتوبة وغيرها من المصادر.
- لأنّ **الأناسين** يدرسون المجتمعات البدائية التي لا تملك تاريخا مكتوبا.
- لأنّ **الأناسين** يدرسون عادة **مشكلات تزامنية** في حين يدرس **المؤرخون مشكلات تعاقبية**.

هنا يرى **"كروبر"** أنّ هذه الفروقات ليست إلاّ فروقات تقنية على صعيد المنظور لا على صعيد الغاية والمنهج وأنّ منهج التأريخ والأناسة المجتمعية يقوم بالدرجة الأولى على التكامل الوصفي رغم أنّ الأناسة المجتمعية تقع عادة على صعيد من التجريد أرفع من صعيد التوليف التاريخي وأنّ الأناسة تذهب في صياغة المقارنات والتعميمات مذهبا أبعد من التاريخ[4].

وبالتالي تعتبر العلاقة بين **علم التاريخ والأنثروبولوجيا** علاقة وطيدة تحوي بين تفاصيلها بعض الفروقات التي لا تُقْصِي تلك العلاقة التساندية بل المتداخلة بين العلمين، لهذا "يستمر الاختلاف بين الأنثروبولوجيا والتاريخ في ميدان **مشروع المعرفة**..."[5]، خاصة وأنّ التاريخ يخضع مثله مثل المعارف الأخرى لضرورة استخدام الرمز Code لكي يحلل موضوعه، وخاصة إذا كان هذا الموضوع بمثابة واقع مُقَوَّمْ بالوصل ، فما يميز المعرفة التاريخية ليس غياب الترميز ، وهو غياب وهمي ، بل طبيعة هذا الترميز المخصوصة : فالرمز هنا هو متوالية زمنية ، فلا يوجد تاريخ دون تاريخ أو تواريخ (...) فإذا لم تكن التواريخ مجمل التاريخ ولا ما يثير الاهتمام التاريخي ، إلّا أنها تبقى ما يضمحل دونه التاريخ نفسه ، ذلك أنّ أصالته وخصوصيته تكمنان في تعيين العلاقة بين القبل والبعد ، وهي تتعرض للزوال إذا تعثّر تاريخ عناصرها" [6].

فإذا حاولنا تعيين مجالات البحث التاريخي المهمة سنجد مجالاته التي تمّ فيها تطوير المسائل والأغراض الأناسية حصلنا على الأعمال الستة التالية على الأقل[7]:

---

[1] Kilani Mondher, ***Introduction à L'anthropologie***, édition Payot Lusanne, Paris, France, P .P :103-104.

[2] محمد علي محمد، ***علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرائق البحث وأساليبه***، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1981، ص.ص:130-131.

[3] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.74.

[4] ***المرجع نفسه***، ص.74.

[5] زنقوفي فوزية، ***مرجع سبق ذكره***، ص.77.

[6] كلود ليفي شتراوس، ***الفكر البري***، ترجمة وتعليق نظير جاهل، ط3، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007،ص.309.

[7] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.107.

- ✓ البحث الثقافي التاريخي.
- ✓ الديموغرافيا التاريخية والبحث الأسري.
- ✓ البحث التاريخي في الحياة اليومية.
- ✓ البحث في الجنس والمرأة.
- ✓ البحث في الذهنيات.
- ✓ الأناسة الثقافية التاريخية.

وكلها مواضيع في صميم علم الأنثروبولوجيا، ومن هنا يعتبر التاريخ علما لصيقا بالأنثروبولوجيا بدرجة قوية رغم اعتباره كعلم مختلف عن الأنثروبولوجيا في صفة التدقيق التاريخي والاستناد على صياغة الأحداث زمنيا وتاريخيا وفقا للتأريخ الذي يعتبر تتبعا في السيرورة الزمنية للأحداث التاريخية، و"الواقع أنّ الترميز التعاقبي يخفي عندما يعتبر التواريخ كمتوالية بسيطة طبيعة أشد تعقيداً بكثير مما يتصور عادة، فالتاريخ يلحظ بداية لحظة ما في **سياق التعاقب**: أي أنّ لـ (2) هي بعد لـ (1) وقبل لـ (3) ، ومن هذه الزاوية يلعب التاريخ دور الرقم ، إلّا أنه من جهة أخرى عدداً يُعَبِّرُ عن المسافة التي تفصله عن التواريخ المجاورة له ، وقد تستخدم لترميز بعض حقبات التاريخ عدداً كبيراً من التواريخ وعدداً أقل لحقبات أخرى[1] ، والمعنى الضمني من كل هذا هو أنّ خلف ذلك التاريخ والتأريخ يوجد تجليات اجتماعية وثقافية تعتبر محط اهتمام رئيسي لعلم الأنثروبولوجيا

ولنأخذ "مثلاً واحداً فنقول: إنّ الرمز الدال على المراحل ما قبل التاريخية لا يمهد لذاك الذي ينطبق على التاريخ الحديث أو المعاصر: فإنّ كل رمز منهما يُحِيلُ إلى **نظام من الدلالات ينطبق نظرياً بالقوّة على تاريخ البشرية** [2].

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول بأنّ التاريخ كعلم إنساني يؤكد من خلال معرفته بأنّ كل مرحلة تاريخية هي إنجاز ثقافي، وهنا تحديدا تتجلى **"الأنثروبولوجيا التاريخية"** كفرع مهم من فروع الأنثروبولوجيا والتاريخ معا والتي تعبر عن العلاقة القوية ما بين هذين العلمين.

فمنذ أن تمّ تطوير دراسات الأغراض الإنسانية المتعلقة **بتاريخ الذهنيات** في مدرسة **الحوليات الفرنسية** وما صدر عنها نشأ توجّه جديد في كتابة التاريخ، فقد استكملت العروض والتحليلات دارسة الحدث التاريخي وكذلك البحوث في البُنى التاريخية والاجتماعية بأغراض وضروب علاج منهجية جديدة، وبفضل التركيز على مسائل الأناسة أصبحت البنى الاجتماعية للواقع الاجتماعي وكذلك الوجوه الذاتية لعمل الذوات الاجتماعية من أغراض البحث، فتمّ بذلك البحث في بسائط السلوك الإنساني وفي الوضعيات الأساسية.[3]

---

[1] كلود ليفي شتراوس، ***المرجع السابق***، ص.ص: 309-310

[2] ***المرجع نفسه***، ص.311

[3] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.17

واتسعت العلاقة بين المعرفة التاريخية والأنثروبولوجية في عدّة مدارس نظرية منها المدرسة الفرنسية وكذا المدرسة الألمانية، وإذ يشير **"كريستوف فولف"** في كتابه إلى وصف شامل لطبيعة هذه العلاقة التي كانت تربط الدراسات التاريخية بالدراسات الأنثروبولوجية كون أنّ المشترك بينهما هو ببساطة "الإنسان"، إذ يشير قائلا:

في **فرنسا** دراسات **لوسيان فافرومارك بلوخ** دراساتهما التي حصلت بنحو ما في نفس الوقت مع نشأة أعمال الأناسة الفلسفية ذات الصلة **بالمؤرخ فردينان برودال وأمانوال لوروا لادوري وفيليب أرياس وجورج دوبي وجاك لوجوف**، وهي أمثلة من البحوث الناجحة في أغراض الأناسة وفي علم التاريخ وفي المعرفة التاريخية التي تنشأ في الفسحة المتوترة الفاصلة والواصلة بين الحدث وقص الحدث وبين الحقيقة الفعلية والأبدوعة الخيالية وبين البنية التاريخية وقص الكتابة التاريخية[1].

كما تمّ في **ألمانيا** علاج مسائل أناسية وأغراض في **البحث الثقافي التاريخي والبحث الأسري التاريخي وفي بحث مسألة المرأة والجنس كما في بحث التاريخ العيني للذهنيات والحياة اليومية**. وقد بلغ طيف الأغراض إلى حد دراسة الحالات العينية لترجمات الأشخاص حول تاريخ مناطقهم وأقاليمهم وإلى تاريخ الذهنيات وأناسية الثقافة التاريخية والذهنيات المختلفة متواشجة وقابلة للتوليف فيما بينها. إنها تقدم تشكيلا أوليا للأعمال في وضعيات عينية وتقدم مساعدات توجيهية تساعد على خيارات العمل الاجتماعي. إنها ذات خصوصية نوعية في الثقافة والطبقات والجماعات والذهنيات تنشأ وتتكون في شروط اجتماعية خاصة وهي تحدد بنى العمل الاجتماعي للذوات الاجتماعية تحديدا مسبقا دون أن تثبتها فتفرضها عليهم. إنها تُمَكِّن الأفراد من أن يكونوا مختلفين ومن أن يعملوا بصورة مختلفة. وهي في غالب الحالات تشجع على التحولات والتغير التاريخي وفهم تاريخيتها يجعل النظر متحررا ومستعدا لانفتاح التاريخ[2].

هذا الانفتاح الذي ساهم إلى حد كبير في توسع الدراسات الأنثروبولوجيا زمانيا ومكانيا وابستيميا ومنهجيا أيضا مما يوحي بصلابة العلاقة بين العلمية رغم عدم وضوح الحدود الفاصلة بينهما تماما.

ج. علم الآثار:

يُعَدُّ علم الآثار أحد الفروع الهامة للأنثروبولوجيا، ويُعْنَى بدراسة آثار البشر السابقة، سواء من خلال الحفريات أو الفحص المباشر للمواقع الأثرية. ويُمَثِّلُ علم الآثار عنصرًا رئيسيًا في فهم تاريخ الإنسان الثقافي والاجتماعي.إذ بدأ هذا العلم في العصور القديمة، حيث كانت الحفريات الأولية تركز على اكتشاف الآثار الفنية والمباني القديمة، مثل الأهرامات المصرية، ليتطوّر خلال العصور الحديثة (خلال القرن التاسع عشر) أين بدأت الحفريات المنظمة على يد علماء مثل **هنري لويس مورغان وأوغست بوسن**، مما ساعد في تأسيس علم الآثار كعلم مستقل، ليشمل في القرن العشرين جوانب أخرى من حياة الإنسان

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.18.

[2] ***المرجع نفسه*** ص.ص:18-19

القديم، مثل دراسة الأدوات اليومية، العظام، والهياكل من خلال تقنيات مثل الفحص الميكروسكوبي والتاريخ الكربوني.

كما شهد علم الآثار تطورًا ملحوظًا في فروعه المختلفة، ويمكن تلخيصها كما يلي:

- **الآثار الكلاسيكية**: تركز على دراسة آثار الحضارات القديمة مثل اليونان وروما.
- **الآثار ما قبل التاريخية**: تركز على دراسة الإنسان القديم قبل ظهور الكتابة، ويعرّف علم آثار ما قبل التاريخ (أركيولوجي) بأنه " العلم الذي يدرس الفترات التاريخية في حياة المجتمعات والثقافات، وقد يجد علماء الآثار بعض البيانات في وثائق قديمة، وذلك بالنسبة لبعض المجتمعات وهو أمر ممكن بالنسبة للحضارات القديمة في كل من اليونان ومصر على سبيل المثال..."[1]
- **الآثار التوراثية**: تركز على فحص الثقافة المادية للأشخاص عبر الفترات التاريخية المختلفة.
- **الآثار البيئية**: تركز على العلاقة بين الإنسان وبيئته في العصور الماضية.

ويستند علم الآثار على علوم أخرى مساعدة **كعلم الأحياء** الذي يستخدم في دراسة العظام والآثار البيولوجية الأخرى، **وعلم الكيمياء** في تحليل المواد الموجودة في الآثار مثل المعادن والفخار، وكذا الجيولوجيا التي تساعد في تحديد المواقع الجغرافية وفحص الطبقات الجيولوجية للآثار المتحصّل عليها، دون أن ننسى دور الأنثروبولوجيا الاجتماعية في فهم السياقات الاجتماعية والثقافية التي نشأت فيها الآثار المختلفة.

وبالتالي هناك ارتباط وثيق بين العلمين، إذ أنّ علم الآثار يعتمد على الدراسات التتبعية، أي يتتبع من خلالها المجتمعات والثقافات القديمة من خلال دراسة مخلفاتها وآثارها ويعيد بعد ذلك رسم صورة الأشكال الثقافية الماضية وذلك بتتبع نموها وتطورها عبر الزمان، وما يعثر عليه الباحث التاريخي من آثار يستفيد منه الباحث الأنثروبولوجي في وصف الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية التي وُجِدَتْ فيها، ومن ثمّ معرفة حضارة الإنسان الكلية عبر هذه المواد التي يجدها عالم الآثار.

وباختصار يمكننا اعتبار علم الأركيولوجي ذلك العلم الذي يقوم "بدراسة ماضي الإنسان في عهده القديم، بهدف إعادة البناء التاريخي القائم على الأدلة المادية لنمو ثقافة الإنسان، وهذا ما يتساوى نسبيا مع اهتمامات الانثروبولوجيا الاجتماعية أوالثقافية في البحث عن كيفية نمو وتغيّر الثقافات..."[2].

---

[1] محمد الجوهري، ***الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية***، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، مصر، 1999، ص.ص:25-27.

[2] الخطيب محمد، ***الأنثروبولوجيا الاجتماعية***، ط2، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، سوريا، 2008، ص.16.

ت. علم اللغويات:

اللغة هي الوسيلة التي يُعَبِّرُ بها الإنسان عن ذاته وعن سلوكه الاجتماعي ويرمز بها لعناصر حضارته، إذ أنّ "اللغة هي المظهر الخارجي للتعبير عن الذات والشخصية"[1] . وعلم اللغويات يدرس جميع لغات البشر الحية منها أو المندثرة أو المتطورة وحتى البدائية، حيث يَتَرَكَّزُ البحث على أصول اللغات وتطورها وبناءها والمختصين في هذا المجال يبحثون في اللغة على اعتبار أنها وسيلة لفهم التراث الأدبي لأي شعب، ومن هذا المدخل يرتبط علم الأنثروبولوجيا بالدراسات اللغوية، حيث من خلال اللغة يفهم الأنثروبولوجي العادات والتقاليد والثقافة، وكذلك معرفة مكانة شعب من الشعوب بمكانة لغته وثقافته مثل: الرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والمناسبات الدينية...، فاللغة ليست مجرد أداة تواصل بل اللغة فكر أيضا.

ومن هنا "تؤدي اللغة خاصة والرمزي عامة دورا مهما، فالكلام صار ممكنا لكل البشر بفضل قدرة فطرية لها شروطها القبلية في وجود النُطق لديهم، والقدرة على تأليف جمل ملكة فطرية عند جميع البشر، إلّا أنه بصرف النظر عن هذا الشرط القبلي لا يتعلم البشر الكلام إلّا في لغات عينية ذات خصائص تاريخية وثقافية معينة. وفي ذلك تؤدي الوجوه المحاكية والطقسية والإنشائية الفعلية دورا مهما، فاللغة تكون مجالا تتراكب فيه معارف الأناسة العامة على الوجوه الثقافية العينية للأناسة التاريخية فتتداخل وتتفاعل. وبالتالي فعن الكلام تنشأ تقاطيع جسدية في وضعيات استعمال معينة ألعاب اللغة تتكون في علاقتها مع أشكال من الحياة التاريخية والثقافية مختلفة[2].

ليأتي وفقا لذلك اهتمام علماء الأنثروبولوجيا بلغات الجماعات البشرية المختلفة، لِمَ تمثله هذه الأخيرة من أداة اتصال فعالة في تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض ومع غيرها (...)وعامل جوهري في كيان وهوية الجماعة الإنسانية..."[3].

وعليه تعتبر الأنثروبولوجيا اللغوية فرعًا مهمًا من فروع الأنثروبولوجيا والتي تعكس العلاقة ما بين علم اللغويات وعلم الأنثروبولوجيا، إذ يرى الباحث **محمد حسن غامري** أنّ مجال اهتمام هذا الفرع هو "...ظهور اللغة وأيضا في تباين أو تنوع اللغات ، ويطلق على هذا الفرع من الأنثروبولوجيا اللغوية اللغات التاريخية، والجانب الآخر الذي تبحث فيه الأنثروبولوجيا اللغوية هو كيف تختلف اللغات المعاصرة وخاصة في طريقة تكوين اللغة واستخدامها، ويعرف هذا الفرع باللغات الوصفية، أما المجال الأخير الذي تدرسه الأنثروبولوجيا اللغوية هو كيف تستخدم اللغة في الحديث اليومي ويطلق على هذا الفرع بلغات الشعوب أو علم اللغة المجتمعي"[4].

ولما كانت اللغة سابقة الوجود عن الفرد الاجتماعي، أي اعتبارها كمعطى ثقافي يجده الإنسان في مجتمعه بعد ولادته فيسعى إلى اكتسابه حتى يحقق التكيّف والاندماج مع الجماعة ثقافيا واجتماعيا

---

[1] عامر مصباح، ***المدخل على الأنثروبولوجيا***، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2009، ص.64.

[2] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.22

[3] عامر مصباح، ***المرجع نفسه***، ص.64.

[4] محمد حسن غامري، ***مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة (علم الإنسان)***، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص.24.

وحتى نفسيا يحيلنا ضمنيا للاتفاق مع ما أشار إليه **"كلود ليفي شتراوس"** في كتابه **"الفكر البري"** حينما أشار إلى أنّ " الألسنية تضعنا أمام كائن جدلي مقوم للكلية، إلّا أنه كائن خارج الوعي والإرادة (أو دونها)، فاللغة بوصفها كلية خارجة عن مدار التفكّر، هي عقل انساني يقوم على حيثيات عقلية، لا يتوصل الإنسان إلى أن يَعْقِلها. وإذا قيل لنا إنها لا تكون هكذا إلّا بالنسبة للذات التي تستبطنها انطلاقاً من النظرة الألسنية، نقول أنّ هذا المخرج الذي تجده الذات وهي هنا ذات ناطقة أو متكلمة مردود: ذلك أنّ البديهة عينها التي تظهر هذه الذات طبيعة اللغة تظهر لها أيضاً، إنّ اللغة كانت كما هي عليه قبل أن تدركها الذات لأنها كانت حينها قادرة على نوع من البلاغة وهي ستبقى كذلك غداً دونما تدرك هذا الأمر أيضاً ، ذلك أنّ خطابها لم يكن يوماً ولن يكون أبداً نتاجاً لمعرفة كلية واعية تدرك سنن الألسنية وتحيط بها ، أما إذا كان الإنسان كذات ناطقة قادراً على تمثّل تجربته اليقينية في كلية أخرى مغايرة لكليته ، فإننا لا ندري لماذا والحال هذه يمتنع عليه أن يصل بوصفه كائناً حياً إلى هذه التجربة نفسها عندما يواجه كائنات غير إنسانية ولكن حية[1].

وتعقيبا على ما سبق يمكننا القول أنّ الأنثروبولوجيا في علاقتها بعلم اللغويات هي علاقة منهجية ابستيمية في نفس الوقت، فسعي الأثروبولوجي لفهم ثقافة مجتمع من المجتمعات ودراستها لا يتم إلّا من خلال البحث في الأصول اللغوية لذلك المجتمع ودلالاتها المحلية، كون أنّ اللغة هي مرآة الثقافة والمجتمع، كما أنها تمثّل المراحل التاريخية التطورية للسيرورة الديناميكية لتلكم الجماعات المبحوثة أو المدروسة عيانيا، ويبقى أن نقول أنّ اللغة كمعطى تواصلي ثقافي إنساني هو النقطة المشتركة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغويات والتي تتجلى من خلال **الأنثروبولوجيا اللغوية** بكل أبعادها المعرفية، فاللغة ليست رموزا فقط بل هي حمولة دلالية وفكر أوسع، يعكس الذهنيات الثقافية المختلفة في أعقد وأبسط تجلياتها.

2. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية:

العلوم الاجتماعية هي مجموعة من العلوم التي تهتم بدراسة المجتمعات البشرية من جوانب اقتصادية اجتماعية، وسياسية، إذ تتداخل الأنثروبولوجيا مع هذه العلوم في العديد من المجالات، حيث يتم التركيز على دراسة الإنسان في مجتمعاته من خلال جوانب تنظيمية وتفاعلية.

وهنا تظهر الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تركز على دراسة العلاقات الاجتماعية والتفاعلات بين الأفراد داخل المجتمعات، وتتناول الأنظمة الاجتماعية مثل الأسرة، الدين، الاقتصاد، والسياسة. كما تساهم في تحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة، مثل العنف، الطبقات الاجتماعية، والتمييز، دون أن ننسى الأنثروبولوجيا النفسية والأنثروبولوجيا الثقافية، والسياسية والاقتصادية، وفيما يلي عرض لأهم العلوم الاجتماعية ذات الصلة بالأنثروبولوجيا:

[1] كلود ليفي شتراوس، *الفكر البري*، *مرجع سبق ذكره*، ص.302.

أ. علم الاجتماع:

يتداخل علم الاجتماع مع الأنثروبولوجيا في العديد من المواضيع، خصوصًا في دراسة العلاقات الاجتماعية والهياكل التنظيمية، وعلى الرغم من أنّ علم الاجتماع قد يركز أكثر على المجتمعات الحديثة والمؤسسات الاجتماعية، فإنّ الأنثروبولوجيا تهتم بالمجتمعات التقليدية والبنية الثقافية الكلية، كما أنّ علم الاجتماع يتعامل مع الدراسات الجزئية القائمة على العينات المختارة أو دراسات الحالة في حين أنّ الأنثروبولوجيا قد تكون أكثر مرونة في التعامل مع مواضيعها بشكل كلي شامل.

كما يدرس علم الاجتماع الحضارة المعقّدة وتركيبها وخصائصها، بحيث يعتمد على التحليل وكشف العوامل المؤدية إلى وجود المشكلة بينما الأنثروبولوجيا تدرس الشعوب البدائية البسيطة والمنعزلة في بداية الأمر وتعتمد على المنهج البسيط في الحصول على المعلومة الذي يعتمد أساسا على الوصف والتوثيق.

لكن بتطور المعرفة وتطوّر الأنثروبولوجيا الذي أصبح يدرس الإنسان في مجتمعه المتطور اقتربت الأنثروبولوجيا من علم الاجتماع في موضوعه وطرقه المنهجية وأدواته القياسية: كطريقة دراسة الحالة، التجريبية، التاريخية، تحليل المضمون، وكذا استخدام **الأدوات القياسية:** كالاستمارة، المقابلة الشخصية، الملاحظة.

فمثلا نجد من حيث الموضوع: **الثقافة** باعتبارها موضوعا مركزيا مشتركا بين العلمين (علم الاجتماع الثقافي) (الأنثروبولوجيا الثقافية)، وبالتالي الأنثروبولوجيا علم يدرس الإنسان في المجتمع المتطوّر من ضمن البناء الاجتماعي كعاداته وتقاليده وأمثاله الشعبية وسلوكه الاجتماعي المحدد، في حين يدرس علم الاجتماع الإنسان في مجتمعه المتطوّر على أنه سلوك اجتماعي وعلاقات اجتماعية وبنية اجتماعية وطبقية.

ضف إلى ذلك، نجد أنّ " علم الاجتماع لا يهتم بدراسة جميع الوحدات الاجتماعية والظواهر في آن واحد، بل ينفرد في دراسته لكل ظاهرة وهذا ما نسميه في علم الاجتماع بموضوع الدراسة، على خلاف الأنثروبولوجيا الشاملة لكل مكونات البيئة الاجتماعية..."[1]

كما يمكننا النظر إلى **الفرق بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية** وفقا لِمَ أشار إليه "**إيفنز بريتشارد**"[2]: الفرق بينهما يكمن في اختيار حقل النشاط ومناهج البحث، فالأناسة يدرس المجتمعات البدائية بصورة مباشرة إنه يقيم بين الأهالي لأشهر أو سنوات، في حين قد يشتغل البحث الاجتماعي بصورة رئيسية على الوثائق والإحصائيات .الأنّاس يدرس المجتمعات بوصفها كيانات، يدرس البيئة، الاقتصاد، السياسة، المؤسسات القضائية والبُنى العائلية ونُظُم القرابة والأديان والتقنيات و الفنون بما هي أجزاء لا تتجزأ من أنظمة مجتمعية كلية، أمّا عمل الباحث في الاجتماع فهو من ناحية أخرى شديد التخصص عامة نظرا لانكبابه على ظاهرات معزولة كالطلاق والجريمة والصحة العقلية والاندماج المجتمعي والعوامل المحفزة للصناعة. والاجتماعيات تتقاطع بنقاط مشتركة عديدة مع الفلسفة

---

[1] زنقوفي فوزية، ***مرجع سبق ذكره***، ص.71.

[2] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.18.

المجتمعية والتخطيط المجتمعي، فهي لا تسعى فقط إلى اكتشاف كيفية قيام المؤسسات بوظيفتها بل تحاول أيضا أن تبث في الكيفية التي ينبغي لها أن تقوم بها، وبالتالي في الوسائل الآيلة إلى تعديلها وتبديلها، هذه الاهتمامات جميعا لا علاقة لها البتة بالأناسة.

فالاجتماعيات ومن ضمنها **علم الاجتماع** بوصفها مجموعة من المعارف النظرية المتعلقة بالمجتمعات البشرية إنّ الصلة القائمة بين مجموعة المعارف النظرية هذه وبين الحياة المجتمعية البدائية هي التي تُشَكِّلُ موضوع الأناسة المجتمعية[1]. ويستدل "بريتشارد" في هذه المقارنة بالأمثلة التالية:

- دراسات طلبة أكسفورد كانت دراسات للمجتمعات أكثر مما هي دراسات للثقافات[2].
- إنّ الفرق العميق بين هذين المفهومين قد وجّه البحث الأناسي والنظرية الأناسية في اتجاهين مختلفين.

مثال:

عندما يدخل المرء إلى كنيسة انجليزية يرى أنّ المؤمنين يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم ويظلون منتعلين أحذيتهم لكنه إذا دخل إلى أحد الجوامع فإنه سيرى أنّ المسلمين يخلعون أحذيتهم ويظلون معتمرين قلانسهم وهو سيلاحظ الظاهرة إياها داخل منزل انجليزي أو دلف تحت خيمة بدوية هذه فروقات في الثقافة أو في الأعراف، هدف السلوك ووظيفته يبقى واحدا في الحالتين: إنه سلوك يرمي للإعراب عن الاحترام، لكن التعبير عنه يجري بطريقة مختلفة في كلتا الثقافتين[3].

فالعلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع "أشبه بالعلاقة الجدلية التي تؤدي إلى نمو البناء النظري في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع"[4]، بمعنى آخر تتجسد العلاقة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجي في المستوى الاجتماعي للإنسان والذي يتضمن التفاعلات الاجتماعية والأبنية والنظم والأنساق والمؤسسات الاجتماعية وهذا ما يتجلى في بروز **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** التي تكتسي طابعا ابستيميا ومنهجيا أقرب إلى علم الاجتماع.

ب. علم النفس:

يدرس علم النفس الإنسان في إطار مشكلة سلوكية واهتمام كبير بالسلوك الفردي والأنثروبولوجيا تميل إلى وضع تقييمات جماعية على أسس ثقافية، فبينما تدرس الأنثروبولوجيا السلوك في سياقه التاريخي يقوم علم النفس بدراسته في سياقه الحاضر وبالتالي يعتمد على الملاحظة والمسح الاجتماعي والتجريب والمنهج الوصفي في تحليله[5].

ولكن العلاقة بين علم النفس وعلم الأنثروبولوجيا لم تكن لتتضح إلاّ بعد أن بدأ علماء الأنثروبولوجيا يركزون اهتمامهم على موضوع **العلاقة بين الثقافة والفرد** فأخذ الأنثروبولوجيون يهتمون بموضوعات

---

[1] بريتشارد إفتز، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.19.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.19.

[3] ***المرجع نفسه***، ص.24.

[4] محمد حسن غامري، ***المرجع السابق***، ص.ص:15-16.

[5] عامر مصباح، ***مرجع سبق ذكره***، ص.25.

ومصطلحات ومفاهيم التحليل النفسي والطب النفسي، إذ ظهر اهتمام متبادل بين **علماء الأنثروبولوجيا الثقافية وعلماء نفس الشخصية** كل بمجال الآخر، فاهتم علماء الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة الشخصية لمعرفة تأثير الثقافة على شخصيات حاملها كما اهتم علماء النفس بالثقافة كعامل محدد للشخصية لا يمكن إهماله حين تدرس الشخصية في حالة السواء أو المرض[1].

ومن هنا تتداخل الأنثروبولوجيا مع علم النفس في دراسة السلوك البشري، حيث تركز **الأنثروبولوجيا** الثقافية على تأثير الثقافة في تشكيل الهوية والسلوك، بينما يهتم **علم النفس** بدراسة العمليات العقلية والفردية. هذا التداخل يظهر بوضوح في مجالات مثل **الأنثروبولوجيا النفسية**، التي تدرس تأثير البيئة الثقافية على التكوين النفسي للفرد، وسنرى ذلك بالتفصيل في مدرسة الثقافة والشخصية لاحقا.

وبالتالي سعى أغلب الباحثين في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية لمحاولة البحث في العلاقة بين الثقافة والشخصية في دراسة الإنسان ومحاولة فهم أبعاده السيكولوجية على اعتبار أنّ أي حقيقة ثقافية هي في الأصل حقيقة سيكولوجية تاريخية أو سيكوثقافية، خاصة الأنثروبولوجيا الأمريكية التي ركزت على طبيعة عمق العلاقة ما بين الثقافة والفرد أو الثقافة والشخصية، وبالعودة إلى الباحثين في علم نفس الشخصية أو البنية الاجتماعية أو الأنثروبولوجيا الثقافية نجدهم مشتركين في نفس الاهتمامات، فحاجة الأنثروبولوجيا إلى علم النفس هي من أجل فهم الظواهر الثقافية باستخدام منهج الاستبطان لمعرفة أصل الثقافات..."[2].

دون أن ننسى أنّ أصل هذه العلاقة هو الارتباط الوثيق بين الثقافة والشخصية كما سنفصل فيها لاحقا وفقا للطرح النفسي الثقافي الأنثروبولوجي او مدرسة الثقافة والشخصية في الأنثروبولوجيا.

د. الفلسفة:

تشترك الأنثروبولوجيا مع الفلسفة في دراسة قضايا الإنسان، مثل طبيعة الوجود، المعنى، والهوية. الفلاسفة مثل **فريدريك نيتشه وميشيل فوكو** قدموا مفاهيم مؤثرة في فهم الإنسان وتطور الأفكار الثقافية التي ساعدت في تشكيل النظرية الأنثروبولوجية، وحتى الفلاسفة الأوائل الذين طرحوا عديد الإشكالات الفلسفية والأنطولوجية والقيمية التي تخص الإنسان ونمط عيشه وثقافته واجتماعيته ساعدت وتساعد الأنثروبولوجيا في أبحاثها والعكس. ومن هنا يمكننا اعتبار الصلة الموجودة ما بين الفلسفة وعلم الأنثروبولوجيا صلة متجسدة فيما يُعْرَفُ **بالأناسة الفلسفية**، التي " لم تنشأ إلّا بعد الحرب العالمية الأولى في حقبة بدأ فيها الإنسان يشك في التقدّم العام وفي ذاته، فأراد أن يفهم نفسه من خلال صلته بالمعرفة البيولوجية والمقارنة بين الإنسان والحيوان لاستخراج أسس هذا الفهم. إذ تشغل أعمال **ماكس شلر** (1892-1985) **وهلموت بلاسنار** (1892-1985) و **أرنولد جيلن** (1904-1976) المركز من الأناسة الفلسفية، ورغم الاختلاف الكبير بين هؤلاء المؤلفين الثلاثة فإنّ جهودهم قد عُرفت خلال

---

[1] سامية حسن الساعاتي، **الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافي**، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1983، ص.45

[2] Ralph Linton, ***Le fondement culturel de la personnalité***, Bordas, Paris, France, 1973, P.36

النصف الأول من القرن العشرين بكونها **أناسة فلسفية** يُعتقد أنها تسعى إلى تحديد ما يتميز به الإنسان عن الحيوان والشروط الخاصة به وطبيعة الشرط الإنساني[1].

ومثلما أنّ نظرية التطور تستهدف تحديد مفهوم الحياة ومفهوم الإنسان فكذلك تسعى **الأناسة الفلسفية** إلى تحديد خصوصية الإنسان بفضل المقارنة بينه وبين الحيوان، وبذلك يدرك ممثلو الأناسة الفلسفية أحيانا أنّ "الإنسان الكلي الذي يؤسسون عليه نظرياتهم فكرة مجردة ليس لها ما يطابقها في عالم التاريخ والثقافة الفعلي وأنها مع ذلك توحي بظاهر يجعلنا نعتقد وكأنه يوجد إنسان خارج المحددات التاريخية الثقافية. وفي المقابل مع هذه الفكرة المجردة يثبت علم التاريخ وعلم الأناسة الثقافية ضرورة أن ندرس الإنسان فيما هو بارز من خصائصه التاريخية والثقافية التي تتكون منها خصائصه النوعية بحسب الحالات العينية أعني من مميزاتها المختلفة[2].

واجمالا لذلك، يمكننا الحديث عن وجود الطرح الفلسفي ضمن الدراسات الأنثروبولوجية المختلفة التي تنطلق من الشك والتساؤل والتأمل لتبحث عن غجابات واقعية عقلانية مقنعة في محاولة منها لفهم الطبيعة البشرية بكل أبعادها وحيثياتها.

ت. علم السكان:

تتقاطع **الأنثروبولوجيا** و**علم السكان (الديموغرافيا)** في عدّة محاور نظرية ومنهجية، ليركز كلا التخصصين على دراسة البشر وتفاعلاتهم ضمن البيئات الاجتماعية والثقافية، لكن بينما تهتم الديموغرافيا بالتحليل الكمي للظواهر السكانية مثل النمو السكاني، والهجرة، والمواليد، والوفيات، تتناول الأنثروبولوجيا الأبعاد الثقافية والاجتماعية لهذه الظواهر، ما يجعل العلاقة بينهما تكاملية بامتياز، فتعتمد **الديموغرافيا** على البيانات الإحصائية والنماذج الكمية لدراسة التغيرات السكانية عبر الزمن والمكان، بينما تفسر **الأنثروبولوجيا** هذه التغيرات عبر دراسة العوامل الثقافية، والعادات، والمعتقدات التي تؤثر على سلوكيات الخصوبة، وأنماط الزواج، والهجرة، وغيرها من الظواهر السكانية.

فيدرس هذا العلم التركيب النوعي للسكان شعوبا وقبائل، التركيب العمري (فئات الأعمار)، التركيب الحركي (الهجرة والولادات والوفيات)، وهنا يأتي الباحث الأنثروبولوجي ليستفيد من علم السكان لأنه باحث يريد معرفة البنية السكانية للمجتمع المدروس ومعرفة تركيبه العمري والنوعي[3].

فعلى سبيل المثال، قد تكشف الدراسات الديموغرافية عن معدلات مواليد مرتفعة في مجتمع معين، لكن وحدها الأنثروبولوجيا تستطيع تفسير الأسباب الثقافية والاجتماعية لذلك، مثل الأعراف المتعلقة بالزواج المبكر أو القيم الأسرية التي تشجع على الإنجاب. ففي حين توثق الديموغرافيا الاتجاهات في معدلات المواليد والوفيات، تفسر الأنثروبولوجيا كيف تؤثر العادات الغذائية، والممارسات الطبية التقليدية، والنظرة إلى الصحة والمرض على هذه الاتجاهات أيضا.

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.64

[2] ***المرجع نفسه***، ص.17

[3] أنظر: إيفنز بريتشارد، ***مرجع سبق ذكره***.

كما تعدّ ظاهرة الهجرة مجالًا بحثيًا مشـــتركًا بين التخصـــصـــين، حيث تحلل **الديموغرافيا** معدلات الهجرة، التدفقات السـكانية، والتغيرات في التركيبة الديموغرافية، وتدرس **الأنثروبولوجيا** تجارب المهاجرين، ديناميكيات الاندماج الثقافي، والتغيرات في الهوية الاجتماعية، وكذا تأثير العوامل البيئية على توزيع السـكان، بينما تبحث الأنثروبولوجيا في كيفية تكيف المجتمعات مع بيئاتها الطبيعية والاقتصـادية عبر الزمن...[1].

وعليه يمكننا القول بأنّ الديموغرافيا هي علم يقدم رؤية أوضـح عن التركيبة البشـرية والنوعية للمجتمعات الإنسـانية مما يجعله يُمد الأنثروبولوجيا بمعطيات أولية ضـرورية وأسـاسـية لتنطلق من بناء فهم كامل متكامل للمجتمع المدروس.

ث. علوم التربية:

يدرس هذا العلم مراحل نمو الفرد في المجتمع والمشـكلات التربوية التي تواجه كل مرحلة من هذه المراحل، كما يبحث في كيفية تكيّف الفرد مع المجتمع عبر عملية التنشـئة الاجتماعية وتلك الموضـوعات هي من أهم مجالات علم الأنثروبولوجيا في المجتمعات البدائية، حيث كانت الأسـرة والعشـيرة والقبيلة هي المؤسسة الاجتماعية التي تقوم على عملية تربية الطفل وتنشئته وهي من أهم دراسات علم الإنسان **(علي الحاجي)**، فالتربية كعملية معقدة تهدف إلى نقل التراث الثقافي وتشكيل الهوية الثقافية.

لذا تجمع **الأنثروبولوجيا** و**علوم التربية** بين البعد الثقافي والاجتماعي لفهم عملية التعلّم والتنشـئة الاجتماعية إذ تساهم الأنثروبولوجيا في دراسة الظواهر التربوية من خلال تحليل النظم التعليمية، وتأثير البيئة الثقافية على ممارسـات التعلّم، بينما تركز علوم التربية على تطوير المناهج والطرائق البيداغوجية لتحقيق الأهداف التعليمية مرتكزة في ذلك على الأساس الاجتماعي والثقافي الذي يعتبر من المحاور المركزية في علم الأنثروبولوجيا.

وبفضل هذا التقاطع بين العلمين نشأ فرع **الأنثروبولوجيا التربوية** كحقل بحثي يهتم بدراسة التعليم كظاهرة ثقافية، حيث يتمحور حول دراسة **التنشئة الاجتماعية** وكيف تُنقل القيم والمعارف من جيل إلى آخر عبر المدرسة والمؤسسات التربوية المختلفة، كما يقوم بمقارنة بين التعليم المؤسسي والتعليم الشعبي أو التقليدي في المجتمعات المختلفة من خلال دراسـة العلاقة بين الطلاب والمعلمين وتأثير الخلفيات الثقافية في أسـاليب التدريس والتعلّم عموما، مع التركيز على كيفية بناء المعرفة وفقًا لخصـوصـيات كل مجتمع، وكيف تسـاهم البيئة الثقافية في تحديد ما يُعتبر "علماً" أو "معرفة نافعة" وفق رؤية معيارية ثقافية قيمية.

ومن هنا يمكننا القول بأنّ الأنثروبولوجيا تسـاعد على إدراك أهمية الخلفيات الثقافية للأفراد، مما يساهم في تطوير **مقاربات تربوية قائمة على التنوع الثقافي**، إذ يمكن أن يساعد التحليل الأنثروبولوجي في

[1] Cf: Greenhalgh, Susan, ***Situating Fertility: Anthropology and Demographic Inquiry***, Cambridge University Press,1995.

تحسين المناهج الدراسية لتراعي الهوية الثقافية للأفراد، وكذا فهم الفجوات التعليمية التي قد تنتج عن اختلاف السياقات الاجتماعية واللغوية، مع تطوير استراتيجيات تدريس تلائم البيئات المتعددة الثقافات[1].

كما توفر الأنثروبولوجيا رؤى حول كيفية تطور التعليم من أشكال **التعلّم التقليدي** (التلقين الشفهي، التعليم عبر الطقوس والممارسات اليومية) إلى **التعليم الحديث** القائم على المدارس والجامعات، مما يساعد علماء التربية على فهم نقاط القوّة والضعف في كلا النظامين.

دون أن نغفل الدور الذي تلعبه الأنثروبولوجيا في تحليل تأثير العوامل الاجتماعية مثل **الطبقة الاجتماعية، النوع الاجتماعي (الجندر)، والدين** على فرص الوصول إلى التعليم والسياق التربوي عموما.

ويكفي أن نقول أنّ العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الإجتماعية هي علاقة قوية بحيث "أنّ بحوثها في هذه المجالات المختصة لها ميل إلى إزالة الحواجز الفاصلة بينها وإلى أن تصبح عابرة لحدود الاختصاص، لذلك فهي قد دشنت في العلوم المختصة أنواعا جديدة من ضروب طرح الأسئلة وأغراض البحث كما طرحت أشكالا جديدة من التفاعل والتعاون العلميين. وتستعمل الأناسة في هذه العمليات الكثير من مناهج البحث، فمن بين هذه المناهج المنهج التاريخي التأويلي لفهم النصوص والمنهج الكيفي للبحث الاجتماعي والتفكّر الفلسفي الذي يعسر صوغه المنهجي (تنهيجه) ، وهي تستعمل في الكثير من البحوث مواد فنية وأدبية كذلك، ومن ثمّ فهي تتجاوز الحدود التقليدية الفاصلة بين العلم والأدب والفن...[2].

ولا تقف العلاقة بينها وبين العلوم الأخرى عند حد ما ذكرناه، بل تساهم **الأنثروبولوجيا الاقتصادية** أيضا كتخصص يربط بين الأنثروبولوجيا وعلم الاقتصاد في دراسة الأنظمة الاقتصادية عبر الثقافات المختلفة، من خلال تحليل كيفية توزيع الموارد، وتأثير القوى الاقتصادية على الأفراد والجماعات. وقد يتم دمج النظريات الأنثروبولوجية مع **الاقتصاد السياسي** لفهم تأثير الهيمنة الاقتصادية على المجتمعات المختلفة. وعلى الرغم من أنّ الأنثروبولوجيا تركز بشكل أكبر على الأنماط الثقافية والاجتماعية، فإنها تتداخل مع العلوم السياسية عند دراسة كيفية تأثير الأنظمة السياسية على بناء الهوية الجماعية والهياكل الاجتماعية، **فالأنثروبولوجيا السياسية** تدرس الأنظمة السياسية من منظور ثقافي، وتسعى إلى فهم كيفية تشكيل السلطة والصراعات الاجتماعية في مختلف السياقات الثقافية.

ولم تقف العلاقة بين الأنثروبولوجيا كعلم عند حد العلوم الإنسانية والاجتماعية بل تعدته إلى العلوم الطبيعية والتقنية مما أكسبها شمولية في الطرح والمناهج، **فما طبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الطبيعية؟**

---

[1] Cf: Levinson, B. A., Foley, D. E., & Holland, D. C, ***The Cultural Production of the Educated Person: Critical Ethnographies of Schooling and Local Practice***, Albany, State University of New York Press, 1996.

[2] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.15.

3. علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الطبيعية:

العلوم الطبيعية هي مجموعة من العلوم التي تركز على دراسة الظواهر الطبيعية مثل البيولوجيا، الجيولوجيا، الطب، علم التشريح...، إذ تتقاطع الأنثروبولوجيا مع العلوم الطبيعية من خلال ما يُعرف بـ **الأنثروبولوجيا البيولوجية** أو **الأنثروبولوجيا التطورية**، التي تدرس الإنسان باعتباره كائنًا بيولوجيًا نشأ وتطوّر عبر الزمن، وفيما يلي عرض لطبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الطبيعية ذات العلاقة المباشرة بها -على وجه التبسيط لا الحصر-:

أ. البيولوجيا:

تتعامل مع دراسة الإنسان من منظور بيولوجي، حيث تركز على تطور الإنسان البيولوجي، ودراسة الهياكل العظمية، والجينات، والآثار الوراثية. وتساهم **الأنثروبولوجيا البيولوجية** في فهم الأصل المشترك للبشر وأشباه البشر، فضلاً عن التكيفات البيئية التي حدثت عبر التاريخ الجيولوجي، ويتجسد وفقا للعلاقة بين البيولوجيا والأنثروبولوجيا تخصص **الأنثروبولوجيا البيولوجية** والتي تهتم "بالتنوع البشري الجيني وتعدد الأعراق والجماعات الإثنية والعلاقات بين هذه الجماعات داخل المجتمع وعلاقة السلوك بالتنوع البشري، من ذلك، سادت في فترة معينة من المجتمع الأمريكي افتراض وجود علاقة بين العِرق الأسود والإجرام، وكذلك ادعى **لومبروزو** أنّ الإجرام والانحراف هو ذو أصل بيولوجي وليس اجتماعي"[1].

وبالتالي يرتبط علم الأحياء بعلم الأنثروبولوجيا من جانبين: **الجانب الأول** هو دراسة الإنسان من الناحية الفيزيقية والتشريحية أو البيولوجية، **والجانب الثاني** أنها تلتقي معها في محاولة البحث في التطوّر البيولوجي، وهنا تحديدا ظهرت النزعة التطورية في الأنثروبولوجيا خاصة مع اسهامات العالم الفرنسي **لامارك J.B.Lamark** والعالم الإنجليزي **تشارلز داروين Charles Darwin** وذلك استنادا للطبيعة البيولوجية لتطوّر الإنسان، والتي أثّرت بدرجة كبيرة في نشأة وتطور **الأنثروبولوجيا الطبيعية** فكلاهما يدرس موضوعا مشتركا "الإنسان""[2].

أي أنّ المشترك بينها هو "الجسد" غير أنّ وجهة أو زاوية معالجته البحثية أو دراسته تختلف ما بين البيولوجيا وعلم الأنثروبولوجيا، "فالجسد يوجد في مركز علم الأناسة، ويصح هذا الحكم كذلك على بحث التطور والأناسة الفلسفية وأناسة علم التاريخ وأناسة الثقافة والأناسة التاريخية، وبالفعل فإنّ هذه النماذج تُمَثِّلُ أساس تصورات ومفهومات مختلفة حول جسد الإنسان، فالأمر في النموذجين الأولين التطوّر والأناسة الفلسفية يتعلّق **بالجسد الإنساني** من حيث هو جزء من تاريخ الحياة كما يتعلّق بخصوصيته وبالفرق بينه وبين جسد الحيوان. أما في النماذج الثلاثة الموالية (أناسة علم التاريخ وأناسة الثقافة والأناسة التاريخية) فإنّ الجسد الذي حدد خصائصه المجتمع والثقافة والمكان والزمان يشغل مركز الاهتمام. ورغم أنّ الشروط الأساسية وحاجات الجسد الإنساني (واحدة بالنسبة إلى جميع البشر) فإنّ تشكيل التاريخ والثقافة لها مختلف، ويصح ذلك مثلا على العلاقات الجنسية وعلاقات الأجيال

---

[1] عامر مصباح، ***التنشئة الاجتماعية والسلوك الإنحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية***، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص-ص: 241-77.

[2] الشمّاس عيسى، ***مرجع سبق ذكره***، ص.32.

بعضـها بالبعض وعلى التغذية واللباس، كما أنّ الجسـد في علاقته بالمحاكاة وبالمحيط قد تشـكل بصـور مختلفة بحسب اختلاف الثقافات، إنه يوجد في مركز عمليات التعلم بالمحاكاة التي بواسطتها يفتح البشر لأنفسهم عالمهم المشترك ومحيطهم وهي تؤدي في تربية الجماعات بالشعائر والطقوس دورا مهما. وعندما يتعلّق الأمر بفهم خاصـيات الفاعلية الإنشـائية للثقافات فإنّ الصـلة بمنظرة الجسـد (خطة ظهوره) وركحته وتمثيل أدواره تكون مما لا غناء عنه، وحتى اللغة والخيال فإنّ لهما فاعلية إنشائية وهما لا يقبلان الفهم من دون تأصيل في الجسد[1]، مما يجعل العلاقة ما بين علم الأحياء أو البيولوجيا وعلم الأنثروبولوجيا علاقة وطيدة جدا خاصـة وأنّ الأنثروبولوجيا البيولوجية تتعاون مع علم الوراثة لفهم التنوع الجيني بين البشر، كدراسة الطفرات الجينية والاختلافات الوراثية بين الأفراد في المجتمعات المختلفة والتي تساهم في بناء صورة متكاملة عن تطور الإنسان.

ب. علم التشريح :

تعتمد الأنثروبولوجيا البيولوجية على علم التشريح لفحص الهياكل العظمية للبشر وأشباه البشر، مما يساعد في فهم التطور البيولوجي للإنسان.

وبالتالي إذا كانت الأنثروبولوجيا الطبيعية تركز على الأبعاد البيئية والتطورية، وتُظهر تأثير العلوم الطبيعية في كيفية فهمنا للبشر باعتبارهم كائنات حية في سياقهم الطبيعي، فإنّ **علم التشريح والأعضاء والوراثة** تقدم كعلوم موضـوعات عن الإنسـان من الناحية البيولوجية أو العضـوية وهذا هو موضـوع الارتباط بين العلمين، حيث تستند الأنثروبولوجيا على الأصـول الأولى للإنسـان وخصـائصـه العضـوية وشكله.

فالأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية تهتم بدراسة الأشكال البيولوجية للكائنات البشرية التي وجدت في المجتمعات القديمة وتأثير الظروف الطبيعية عليها[2].

ت. علم الجيولوجيا:

الجيولوجيا تتعلّق بعلم الحفريات القديمة وهي مصـدر رئيس لعلم الأنثروبولوجيا، إذ من خلال هذا العلم يمكن تحديد عمر البقايا العظمية لإنسـان ما قبل التاريخ مثلا ودراسـة حضـارته وثقافته وهي مادة علمية مهمة للأنثروبولوجيا.

فالأنثروبولوجيا تستفيد من الدراسات الجيولوجية من خلال التوزيع الجغرافي وعلاقته بالأجناس وبكل البيانات العلمية الجغرافية الخاصة بكل منطقة من تضاريس، محيطات، بحار...[3]

خاصـة وأنّ البيئة الجغرافية تلعب دورا هما في التشـكيل الثقافي للإنسـان عبر الفترات التاريخية والجيولوجية المختلفة، الأمر الذي يجعل من علاقة هذين العلمين بالأنثروبولوجيا علاقة تقنية وعملية جدا.

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.20.

[2] عامر مصباح، **المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، مرجع سبق ذكره**، ص.53.

[3] ***المرجع نفسه*** ، ص.80.

وعليه وإجمالا لِمَ سبق يمكننا اعتبار العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى علاقة مساندة علمية وتكامل ينجم عنها ميادين وفروع مختلفة في علم الأنثروبولوجيا، كما سبق ورأينا بالتفصيل من خلال عرض العلاقة بين العلوم المختلفة وكيفية انبثاق ميادين وفروع الأنثروبولوجيا، ويمكننا اجمالا لذلك ذكرها كالتالي:

- **ثانيا. بعض ميادين علم الأنثروبولوجيا:**

ينطوي هذا العلم على عدّة فروع، أهمها:

أ. الأنثروبولوجيا البيولوجية: دراسة الإنسان عبر المنظور التطوري:

تدرس **الأنثروبولوجيا البيولوجية** تطور الإنسان من منظور بيولوجي، حيث تشمل مجالات مثل **علم الوراثة البشرية**، ودراسة التكيفات البيئية، وعلاقة الإنسان بالكائنات الأخرى. تبحث أيضًا في تطور الدماغ والسلوك البشري، مما يساعد على فهم الإدراك، والتواصل، والذكاء البشري.

بفضل التقدم في العلوم الوراثية، أصبحت الأنثروبولوجيا البيولوجية قادرة على تقديم رؤى جديدة حول تاريخ البشرية، مثل أصول التجمعات السكانية، والتفاعلات الجينية بين المجموعات المختلفة، والتكيفات البيئية التي أثرت على تطور الإنسان.

ب. الأنثروبولوجيا الثقافية: استكشاف أنماط الحياة والمعتقدات:

تركز **الأنثروبولوجيا الثقافية** على دراسة النظم الرمزية والممارسات الاجتماعية التي تميز مختلف المجتمعات. فهي تتناول العادات، والقيم، والمعتقدات، والأساطير، والطقوس، التي تمنح معنى للحياة اليومية للأفراد. ومن خلال **الملاحظة بالمشاركة**، يندمج الباحث الأنثروبولوجي في المجتمعات محل الدراسة، مما يتيح له تحليلًا معمقًا للسلوكيات الاجتماعية ودلالاتها الثقافية.

تتطرق الأنثروبولوجيا الثقافية إلى قضايا مثل تأثير العولمة على الهويات الثقافية، والتغيرات الاجتماعية الناتجة عن الهجرة، والتفاعلات بين الثقافات المختلفة. كما أنها تساهم في مجالات تطبيقية مثل تصميم السياسات الثقافية، وحماية التراث غير المادي، ودراسة تأثير التكنولوجيا على التقاليد الاجتماعية. خاصة وأنّ "الأناسة الثقافية قد أدت إلى أشكال أخرى من المعرفة بوصفها عملا مصدريا تاريخيا وفكرا فلسفيا فهي لا تكتفي بتحسيسنا بغرابة الثقافات الأخرى بل هي كذلك تحسسنا بما في ثقاتنا الذاتية من غرابة، ومن ثمّ فتطبيق المناظر الأناسية الثقافية على الثقافات الأوروبية قد أدى إلى إبراز للبحث الأناسي وتعميق مهمين[1].

ت. الأنثروبولوجيا الاجتماعية: فهم البناء الاجتماعي والديناميات الجماعية:

تهتم **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** بدراسة التنظيمات الاجتماعية، والهياكل الأسرية، والعلاقات بين الأفراد والجماعات. كما تحلل كيفية تشكّل المجتمعات، وكيف تؤثر الأعراف والتقاليد في العلاقات الاجتماعية، وما دور المؤسسات في تنظيم الحياة اليومية.

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.21.

تشمل موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسة نظم القرابة، والمعتقدات الدينية، والعلاقات بين الجنسين، والتغيرات الاجتماعية في ظل الحداثة والتكنولوجيا. كما أنها تساهم في تطوير سياسات اجتماعية تراعي السياقات الثقافية، مما يساعد على حل المشكلات المجتمعية مثل الفقر، والتمييز، وعدم المساواة.

ث. الأنثروبولوجيا اللغوية: اللغة كمرآة للثقافة:

تدرس **الأنثروبولوجيا اللغوية** العلاقة بين اللغة والثقافة، حيث تُعَدُّ اللغة أداة أساسية في تشكيل الهوية الثقافية والتواصل الإنساني. فاللغات ليست مجرد وسائل للتواصل، بل هي نظم رمزية تعكس تصورات المجتمعات للعالم.

يتناول هذا الفرع قضايا مثل **كيفية تأثير اللغة على الفكر**، وكيف تعكس الهياكل اللغوية البنية الاجتماعية. كما يبحث في اللغات المهددة بالإنقراض، وتأثير العولمة على التنوع اللغوي، ودور اللغة في تشكيل الخطابات السياسية والاجتماعية.

خاصة وأنّ "اللغة والفكر يكونان عند **همبولت** وحدة ذات علاقة بالعالم، إلّا أنّ اللغة ليست مقصورة على الصوت والفم بل هي في نفس الوقت سمع الصوت من المتكلم نفسه والآخرين المخاطبين بها [1]، أي أنّ اللغة هي حمولة قيمية ثقافية تحمل دلالات مختلفة باختلاف السياقات الجغرافية والثقافية، كما أنها تعتبر بنية ثقافية رمزية.

ج. الأنثروبولوجيا السياسية: تحليل السلطة والأنظمة الحاكمة:

تبحث **الأنثروبولوجيا السياسية** في كيفية نشوء وتطور الأنظمة السياسية، ودور السلطة في تنظيم العلاقات الاجتماعية. كما تركز على دراسة أشكال الحكم، والهياكل السياسية، والتفاعلات بين الأفراد والمؤسسات.

تحلل الأنثروبولوجيا السياسية مواضيع مثل القوة، والصراعات الاجتماعية، والتغيرات السياسية، وتأثير الأيديولوجيات على المجتمعات، كما تدرس كيف تؤثر المعتقدات الثقافية على مفاهيم الشرعية، والعدالة، والمشاركة السياسية.

ومنه تتجه "الأنثروبولوجيا السياسية إلى تأسيس علم سياسي متناولة الإنسان كإنسان سياسي، مفتشة عن الخصائص المشتركة لكل الأنظمة السياسية المعروفة بتنوعها التاريخي والجغرافي (...) وتحدد الأنثروبولوجيا السياسية بوجهها الثاني ميدانا دراسيا في وسط الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسلالة، كما تعكف على وصف وتحليل الأنساق السياسية (بنى، سيرورات وتصورات) الخاصة بالمجتمعات المعتبرة بدائية قديمة"[2]، وحتى الحديثة والمعاصرة.

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.323.

[2] جورج بالانديه، ***الأنثروبولوجيا السياسية***، ترجمة علي المصري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 2007، ص.15.

بفضل هذا الفرع، أصبح بالإمكان فهم التفاعلات بين السياسة والثقافة، مما يساعد في تحليل الظواهر السياسية الراهنة مثل الحركات الاجتماعية، والثورات، والعولمة السياسية، وتأثير الإعلام على السلطة.

ح. الأنثروبولوجيا التاريخية أو الآثارية: البحث في ماضي البشرية:

تهدف **الأنثروبولوجيا الآثارية** (أو علم الآثار) إلى دراسة المجتمعات البشرية القديمة من خلال بقاياها المادية. وتعتمد على الحفريات، وتحليل القطع الأثرية، ودراسة الهندسة المعمارية القديمة، لفهم كيفية تطور الحضارات ونظمها الاجتماعية والاقتصادية.

يُستخدم في هذا المجال العديد من التقنيات الحديثة، مثل **تحليل الكربون المشع** لتحديد أعمار البقايا الأثرية، والتصوير الجوي للكشف عن المواقع المدفونة، وتحليل الحمض النووي القديم لفهم الروابط الجينية بين الشعوب القديمة والمعاصرة.

تساهم الأنثروبولوجيا الآثارية في إعادة بناء تاريخ البشرية، وفهم التحولات الكبرى مثل نشأة الزراعة، وتطور المدن، وصراعات القوى القديمة.

خ. الأنثروبولوجيا الاقتصادية: البحث في أنماط معيشة المجتمعات:

الأنثروبولوجيا الاقتصادية هي أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية التي تبحث في كيفية تنظيم المجتمعات لوسائل كسب العيش، وتوزيع الموارد، وأنماط التبادل، عبر سياقات ثقافية متنوعة.

تختلف هذه المقاربة عن الاقتصاد التقليدي من حيث اهتمامها بالبعد الرمزي والاجتماعي للممارسات الاقتصادية، حيث لا يُنظر إلى "السوق" باعتباره نظامًا مجردًا، بل كنتاج ثقافي-تاريخي معقّد.

يركز هذا الحقل على فهم كيف يدمج الإنسان النشاط الاقتصادي داخل نسيج حياته اليومية، وكيف تتفاعل المعتقدات الدينية، والأعراف، والسلطة السياسية مع تنظيم الموارد والملكية. فعلى سبيل المثال، في مجتمعات الصيد وجمع الثمار، يُلاحظ أن مبدأ "الاقتصاد الأخلاقي" أو "اقتصاد الكفاف" يتجاوز مفاهيم الربح ليؤسس لممارسات تشاركية تقوم على التوزيع العادل[1].(Scott, 1976)

من أبرز رواد الأنثروبولوجيا الاقتصادية **برونيسلاف مالينوفسكي**[2] **Bronislaw Malinowski** ، الذي درس تبادل الهدايا في جزر تروبرياند من خلال ما يُعرف بـ"حلقة الكولا(Kula Ring) "، مبرزًا البُعد الرمزي والاجتماعي في عمليات التبادل. وكذلك **مارشال ساهلينز**[3] **Marshall Sahlins** ، الذي ميّز بين "الاقتصاد الجوّاني domestic mode of production "و"الاقتصاد السوقي market mode of production "، معتبرًا أن المجتمعات البدائية لم تكن "فقيرة" كما يدّعي الاقتصاد الرأسمالي، بل كانت تعيش ضمن نموذج "الوفرة الأصلية (Original Affluent Society) " (Sahlins, 1972)

---

[1] Scott, J. C. (1976). *The Moral Economy of the Peasant: Rebellion and Subsistence in Southeast Asia*. Yale University Press.

[2] Malinowski, B. (1922). ***Argonauts of the Western Pacific***. London: Routledge & Kegan Paul.

[3] Sahlins, M. (1972). ***Stone Age Economics***. Chicago: Aldine-Atherton

كما نجد **كارل بولاني Karl Polanyi**[1] ، الذي ميّز بين أنماط التبادل: المعاوضة(reciprocity) ، وإعادة التوزيع(redistribution) ، والتبادل السوقي(market exchange) ، مشددًا على أن الاقتصاد مضمَّن اجتماعيًا.(embedded)

وتهتم الأنثروبولوجيا الاقتصادية المعاصرة بقضايا مثل العولمة، الاقتصاد غير الرسمي، الهجرة والتحويلات المالية، واقتصاديات الحياة اليومية في المناطق الحضرية والريفية، كما تتبنى مناهج متعددة مثل الإثنوغرافيا، وتحليل الشبكات، والنظرية النقدية.

استنتاج عام:

تُظهر العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الطبيعية، الإنسانية، والاجتماعية مدى تكامل وتداخل المعرفة في فهم الإنسان. إذ تساهم الأنثروبولوجيا في تجسير العلاقة بين هذه العلوم من خلال تبني منهجيات متعددة تتيح تحليل الإنسان في سياق بيولوجي، ثقافي، واجتماعي. هذه التداخلات تجعل الأنثروبولوجيا علمًا غنيًا وواسع النطاق قادرًا على تقديم رؤى شاملة حول الإنسان وتفاعلاته مع البيئة والمجتمع عبر الزمن.

رغم أن كل فرع من هذه الفروع يركز على جانب معين من التجربة البشرية، فإنها لا تعمل بمعزل عن بعضها البعض، بل تتكامل لتقديم رؤية شاملة للإنسان عبر الزمان والمكان. فاللغة ليست مجرد وسيلة تواصل، بل تعكس الثقافة والسياسة والهوية. والسلطة ليست مجرد مفهوم سياسي، بل ترتبط بأنماط القرابة، والدين، والمعتقدات الثقافية.

ومن خلال هذه المقاربة الشمولية، تساهم الأنثروبولوجيا في مجالات متعددة، مثل التنمية، والصحة، والسياسات الثقافية، والتحليل السياسي، والتكنولوجيا. وهي بذلك تقدم أدوات فعالة لفهم العالم المعاصر وتحليل التغيرات التي تطرأ عليه من منظور علمي وإنساني عميق.

ولا يمكن حصر ميادين الأنثروبولوجيا فيما ذكرناه فقط، بل هناك العديد من الفروع والتخصصات الأخرى كالأنثروبولوجيا الطبية أو أنثروبولوجيا الصحة، والأنثروبولوجيا الاقتصادية والعسكرية ...

لذلك نجد أنّ "هناك آراء شديدة التباين بين الذين **يعتبرون الأناسة علما من العلوم الطبيعية** وبين الذين يجعلونها في حيّز الإنسانيات، علما بأنّ هذا الاختلاف في الرأي يزداد حدّة عندما يسعى المرء إلى تحديد العلاقات القائمة بين الأناسة والتاريخ[2].

هذا التاريخ الذي يرى فيه "سارتر: "أنه تاريخ يصعب علينا اكتشاف ما إذا كان التاريخ الذي يصنعه النّاس دون أن يعلموا أم تاريخ النّاس كما يصنعه المؤرخون الذين يعلمونه أم تفسير الفلاسفة الذي يتناول تاريخ النّاس أو تاريخ المؤرخين "[3].

---

[1] Polanyi, K. (1944). ***The Great Transformation: The Political and Economic Origins of Our Time***. Boston: Beacon Press.

[2] بريتشارد إفتز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.13

[3] كلود ليفي شتراوس، ***الفكر البري***، ***مرجع سبق ذكره***، ص.300

لتتجلى بذلك أمامنا الأنثروبولوجيا بكل تعقيداتها، فهي ليست علما بسيطا أحادي القطب بل هي علم معقد يتراوح بين البساطة والتعقيد وبين الوضوح والغموض خاصة فيما تعلّق بإمكانية رسم الحدود الفاصلة بينها وبين العلوم الأخرى، لتكتيب بذلك قوتها من هذه التعددية والترابط.

وبعد أن تعرفنا على هذا العلم وأهم ما يميزه لابد من استكشاف أهم مناهجه البحثية وكيفية انتقاله لمرحلة التأسيس العلمي وبروز المدارس والنظريات الأنثروبولوجية المختلفة.

وعرض ذلك فيما سيأتي:

مدخل منهجي نظري لأهم مناهج ونظريات الأنثروبولوجيا:

تُعَدُّ الأنثروبولوجيا من العلوم التي تنطوي على تنوع كبير في أساليب البحث والنظريات التي تستند إليها. هذا التنوع ليس مجرد انعكاس للتطورات التاريخية في العلم، بل يعكس أيضًا تعقيد الظواهر البشرية التي تسعى الأنثروبولوجيا لفهمها. فالعالم الذي نعيش فيه مليء بالتنوع الاجتماعي والثقافي، مما يجعل دراسة الإنسان في مختلف بيئاته وفي سياقات مختلفة أمرًا بالغ الأهمية.

من هذا المنطلق، جاءت الحاجة إلى تبني مناهج ونظريات متنوعة تُستخدم لتحليل سلوك الإنسان وثقافاته عبر الزمن والمكان.

إذ تتعدد **المناهج** التي يعتمد عليها الأنثروبولوجيون في دراساتهم، حيث تسهم هذه المناهج في بناء فهم شامل للإنسان، ليس فقط على مستوى الأفراد، بل على مستوى الجماعات والمجتمعات ككل.

من خلال هذه المناهج، تسعى الأنثروبولوجيا إلى تحليل الإنسان في سياقه الثقافي والاجتماعي والبيئي، وهو ما يجعل هذه المناهج تتمتع بقدرة فريدة على استكشاف الأبعاد المتعددة للوجود البشري.

أما بالنسبة لـ **الاتجاهات النظرية**، فإنها تُمثل الإطار المفاهيمي الذي يوجه الأنثروبولوجيين في تفسير الظواهر التي يدرسونها، هذه الأخيرة التي تتعدد وتتنوع بدورها وفقًا للمسائل التي يواجهها كل مجتمع بشري، وتستند إلى مدارس فكرية مختلفة قد تركز على الجانب الثقافي أو البيولوجي أو الاجتماعي أو النفسي في طروحاتها ومواضيعها.

وعليه واستنادا على هذه النظريات، يتمكّن الباحثون من طرح أسئلة جديدة حول معنى الهوية، والتفاعلات الاجتماعية، والاختلافات الثقافية، مع السعي لتقديم إجابات تساهم في تطور علم الأنثروبولوجيا.

ومن هنا وباعتبارنا طلبة في مجال العلوم الاجتماعية فإنه وجب علينا الانطلاق من فكرة أنّ فهم المناهج والنظريات في الأنثروبولوجيا يتطلب فحصًا دقيقًا ودراسات معمقة حول الطرق التي يتبعها الأنثروبولوجيون في فحص تلك الظواهر الإنسانية، حيث تبقى هذه المناهج والنظريات حجر الزاوية لفهم الإنسان بكل تعقيداته وتعدد جوانبه، ووفقا لذلك لنا أن نتساءل:

ما هي أهم المناهج الأنثروبولوجية وما هي أهم اتجاهاتها النظرية الكبرى؟

3. أولا. أهم المناهج في الدراسات الأنثروبولوجية:

المنهج العلمي هو الطريقة التي يتبعها الباحثون لتنظيم وتوجيه دراساتهم بهدف الوصول إلى نتائج دقيقة وموضوعية، " فمجموع المساعي التي يعتمدها الباحث أو الباحثة تكشف وبمعنى واسع عن تصوره للبحث أو لمنهجه، إنّ هذا المنهج لا يتحدد بكيفية غامضة، ولكنه يكون قائما على اقتراحات تمّ التفكير فيها ومراجعتها جيدا والتي تسمح له بتنفيذ خطوات عمله بصفة صارمة بمساعدة الأدوات والوسائل التي تضمن له النجاح، وفي نفس الوقت مدى صحة المسعى أي الطريقة..."[1].

[1] موريس أنجرس، *منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية: تدريبات عملية*، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرونK دار القصبة للنشر ، الجزائر، 2006، ص.37.

في الأنثروبولوجيا، يعتمد هذا المنهج على جمع البيانات من الواقع الميداني ودراستها بطرق منهجية لتحليل الظواهر البشرية وفهمها، ويشمل المنهج العلمي في الأنثروبولوجيا مجموعة من الأدوات والطرق مثل **الملاحظة بالمشاركة أو المعايشة، والمقابلات، والتحليل المقارن**، وهو يساعد الباحثين في تفسير سلوكيات الإنسان، ثقافاته، وعلاقاته الاجتماعية.

كما يعتمد المنهج في الأنثروبولوجيا على **مبدأ الموضوعية**، أي الابتعاد عن الأحكام المسبقة والتركيز على فهم العالم البشري كما هو، من خلال تفاعل الإنسان مع بيئته الاجتماعية والثقافية وفقا للمعنى الذي يمنحه هو بذاته والرؤية التي يتفاعل بها الفرد ذاته مع جماعته أو مجتمعه وثقافته، بعيدا عن أي تأويلات قيمية ثقافية متعلقة بذات الباحث وانتماءه الثقافي.

وتتعدد **المناهج العلمية** في الأنثروبولوجيا بما يتناسب مع تنوع الموضوعات التي يتناولها هذا العلم، إذ يعتمد الباحثون في دراستهم للإنسان والمجتمعات على مجموعة من المناهج التي تُمَكِنُهم من تحليل سلوك الإنسان وثقافاته في سياقاتها المختلفة. ومن بين **أهم المناهج العلمية** في الأنثروبولوجيا نذكر:

1. **المنهج الميداني (الدراسات الحقلية الميدانية Fieldwork in Anthropology):**

يُعتبر هذا المنهج من أبرز المناهج في الأنثروبولوجيا، حيث يعتمد على **الملاحظة التشاركية** والعيش ضمن المجتمع المستهدف لفترة طويلة، ما يُمَكِّنُ الباحث من فهم سلوكيات الأفراد والجماعات من داخلها.

يُستخدم هذا المنهج في الأنثروبولوجيا الثقافية بشكل رئيسي، حيث يقوم الباحث بمراقبة التفاعلات اليومية، والتعرّف على القيم الثقافية والعادات الاجتماعية من خلال **الاحتكاك المباشر** مع أفراد المجتمع.

وتعتبر **الدراسات الحقلية** أو **العمل الميداني** من الركائز الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا، فهي الوسيلة التي يعتمد عليها الباحثون لجمع البيانات الأولية ودراسة المجتمعات والثقافات من خلال التفاعل المباشر والمشاركة الفعّالة في الحياة اليومية للمجتمع المستهدف، ويتمثّل الهدف الرئيسي من الدراسات الحقلية في فهم عميق وسياقي للظواهر الثقافية والاجتماعية، بعيدا عن التحليل النظري المجرّد، وذلك عبر التواصل المستمر والملاحظة المباشرة، ففي تمهيده المشهور في **شرير و بحارة المحيط الهادي الغربي**، ميّز **مالينوفسكي** بين **ثلاثة أصناف** من العلاج متكاملة تخص الشروط المنهجية للبحث الميداني الأنثروبولوجي وهي[1]:

- ✓ التوثيق والاستعلام الإحصائي اللذين نحصل عليهما بفضل الاستجواب والملاحظة اللذين يمكنان من عرض القواعد وآليات النظام في المجتمع الأجنبي.
- ✓ الملاحظات المتواصلة والتفصيلية للنّاس في يوميات الميدان والتي بفضلها يمكن ملاحظة ضروب السلوك النوعية واستكمال المعلومات الجافة للتوثيق الإحصائي بالمشاهدة العيانية.
- ✓ تحقيق مجموعة القصص الممثلة والعبارات السحرية وضروب الخطاب التي يمكن من خلالها فك مغلقات ذهنية الناس. وبفضل هذه المعلومات يصوغ الباحث صورة متعددة الطبقات عن

[1] كريستوف فولف، *مرجع سبق ذكره*، ص.135

المجتمع ويمكنه على أساسها أن يقوم ببعض التعميمات. فأحد الشروط الهامة لنجاح البحث هو «توحد الباحث الميداني (= عزلته) الذي لا يمكنه من دونه أن يعتمد على ممارسة النّاس لحياتهم وأن يتغلب على بنى الأحكام المسبقة التي ورثها من ثقافته الخاصة.

واستنادا على ما تمّ ذكره من شروط منهجية في المنهج الميداني للدراسات الأنثروبولوجية يمكننا القول بأنّ هذا النوع من الدراسات يكتسي أهمية بالغة من خلال:

- **التركيز على السياق المحلي:**

إذ توفر الدراسات الحقلية فرصة لفهم عادات المجتمع وتقاليده وسلوكياته في سياقها الفعلي فالباحث لا يقتصر على جمع المعلومات من المصادر الثانوية أو الأدبية، بل يعايش المجتمع ويختبر الحياة اليومية لأفراده، ولا شك أنّ "الملاحظة بالمشاركة تُمَكّن من التغلب على الانفصال الموجود بين «أناسي الكرسي الجامعي» و «رُواتهم (من أهل البلد الذي تتعلق به الدراسة) إلّا أنه مع ذلك ورغم التقدم المنهجي تتكون حتى في هذه الطرق بعض مشاكل البحث التي لم تحل بعد. فمثلما أنّ الفرق بين المتفرج والممثل لا يمكن تجاوزه[1].

- **الفهم العميق للثقافة:**

يسمح العمل الميداني للأنثروبولوجيين بفهم كيفية تعامل الأفراد مع القيم الثقافية، والعلاقات الاجتماعية، والنظم السياسية، والممارسات الدينية في إطارها الاجتماعي والثقافي الحقيقي، كما تساعد الدراسة الحقلية من التحقق من الأفكار النظرية، وذلك من خلال الملاحظة المباشرة في الحياة اليومية للمجتمع، التي تُمكّن الباحث الأنثروبولوجي من اختبار صحة الفرضيات النظرية المتعلقة بالثقافات، والأيديولوجيات، والعادات، والعلاقات الاجتماعية.

وتوجد في مركز البحث «الملاحظة» وهي ليست فيه على سبيل المشاهدة المجردة بل هي ملاحظة تقودها النظرية لأنّ الباحث الميداني له حول الموضوع علم مسبق وله إطار مرجعي وضروب طرح للأسئلة كلاهما نما خلال تكونه ليقودا ملاحظاته من دون أن يحتماها مع ذلك [2]

- **الاندماج في المجتمع المدروس:**

يُعتبر الباحث جزءًا من هذا المجتمع، مما يساعد في جمع معلومات تفصيلية ودقيقة عن سلوكيات الأفراد، مع التأكد من أنّ هذه الملاحظات تُفهم في سياقها الصحيح.

ويأتي في المقدمة من ذلك كله الاهتمام بـ«موقف أصيل البلد وفهم علاقته بالحياة وإيصاله إلى رؤية رؤيته لعالمه، وعلى هذا الأساس ينبغي للباحث أن يعتاد على الثقافة الأجنبية وأن يتعلم لغتها وألا يكون محترزا في مشاركة النّاس حياتهم، لذلك فعليه أن يقطن بينهم وأن يعيش معهم خلال عملهم. ولما كان مع ذلك مشاركا في ممارسة حياتهم مع السعي إلى حماية موقعه كملاحظ من الخطر حتى يحافظ على تلك الحال

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.135

[2] ***المرجع نفسه***، ص.134

فإنه لا يستطيع أن يصبح عضوا بكامل المعنى من جماعتهم. ولن يغير ذلك شيئا من التعرّف على الثقافة الأجنبية ومن تحقيق صلة الثقة المتنامية مع الأغراب[1].

- **تحقيق المصداقية:**

بما أنّ الباحث يتفاعل بشكل مباشر مع المجتمع المدروس، فإنه يحصل على **بيانات غنية** وصحيحة يتم جمعها من الواقع، مما يعزز بدوره من مصداقية النتائج التي يخلص إليها.

وتقوم الدراسات الحقلية الميدانية في الأنثروبولوجيا على جملة من **الشروط المنهجية العلمية**، يمكننا تلخيصها في التالي:

- **الحياد الموضوعي:**

من أهم شروط الدراسات الحقلية في الأنثروبولوجيا هو الحفاظ على **الحياد الموضوعي** والابتعاد عن الانحياز أو إصدار الأحكام المسبقة، إذ يجب على الباحث أن يتعامل مع ثقافة المجتمع المدروس بتفهّم واحترام، دون فرض أفكاره أو قيمه الشخصية على الأفراد أو تأويلاته الخاصة.

- **الملاحظة بالمشاركة أو المعايشة** (Participant Observation)[2]:

وهي أسلوب يعتمد فيه الباحث على التفاعل المباشر مع المجتمع المستهدف، حيث يعيش في نفس بيئة أفراده التي يدرسها ويشارك في أنشطتهم اليومية، وهذه الطريقة تعزز من قدرة الباحث على فهم الثقافة من الداخل.

- **الاستمرارية والمدّة الزمنية:**

لضمان دقة النتائج، فإنّ **الدراسات الحقلية** تتطلب وقتًا طويلاً من التفاعل مع المجتمع المدروس. فالتواجد لفترة طويلة يساعد الباحث على بناء علاقات ثقة مع الأفراد في المجتمع وفهم التفاصيل الدقيقة التي قد تغيب عن الأنظار في فترات قصيرة.

- **المرونة والتكيّف:**

يحتاج الباحث الأنثروبولوجي إلى **المرونة** والقدرة على التكيّف مع متغيرات المجتمع وأعرافه، فقد يواجه تحديات غير متوقعة تتطلب منه تعديلات في أسلوب جمع البيانات أو في طريقة التفاعل مع السكان المحليين.

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.134.

[2] وقد طور مالينوفسكي في تمهيد كتابه «شريرو البحارة في المحيط الهادي الغربي لسنة 1922 مفهوم «الملاحظة المشاركة » المفهوم الذي تأسست بفضله المرحلة الكلاسيكية من البحث في الأناسة الثقافية. ومثلما بدأت الملاحظة المشاركة مع عمل مالينوفسكي فكذلك كانت نهايتها مع نشر يومياته بعد وفاته سنة 1967. ففي هذه اليوميات يتبين بوضوح ضآلة ما توصل إليه المؤلف نفسه في تحقيق مبادئه الأساسية، لمزيد من التفاصيل يمكنكم الاطلاع على: كريستوف فولف، ***علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة، المرجع نفسه.***

- التوثيق الدقيق (Documentation and Writing):

توثيق البيانات هو شـرط أسـاسـي في الدراسـات الحقلية، ومن الضـروري أن يحفظ الباحث كل ملاحظاته، سواء كانت مكتوبة أو مسجلة، ويجمعها بطريقة منظمة لضمان الاستفادة منها لاحقًا وتحليلها بشكل منهجي.

- احترام خصوصية المجتمع:

يجب على الباحث أن يلتزم بأعلى درجات **الأخلاقيات** في تعاملاته مع الأفراد في المجتمع، مع احترام خصوصياتهم وحمايتها، إذ يُعتبر الحصول على **موافقة صريحة** من المشاركين في الدراسة شرطًا أساسيًا قبل جمع البيانات.

- الإلمام بالثقافة المحلية أو الاستعانة بالوسيط:

من المهم أن يكون الباحث على دراية بالثقافة المحلية، بما في ذلك اللغة والعادات والتقاليد، مما يعزز من قدرته على التفاعل بشكل سليم مع الأفراد المحليين وفهم سلوكهم بشكل دقيق.

في حالة صعوبة التواصل أو نقص الإلمام بالثقافة المحلية، قد يلجأ الباحث إلى الاستعانة بـ **الوسيط الثقافي**، وهو شخص من المجتمع المحلي يساعد الباحث في فهم لغة الأفراد، عاداتهم، وتفسيراتهم الثقافية، **فالوسيط** يمكن أن يكون شخصًا محليًا ملمًّا بالثقافة واللغة، ويقوم بتيسير التواصل بين الباحث وأفراد المجتمع المستهدف، كما يمكنه أن يساعد في تفسير العادات الثقافية الغامضة أو الممارسات التي قد يصعب على الباحث الأجنبي فهمها.

خاصة وأنه من المحتمل أن يجد الباحث صعوبة في تكوين علاقات ثقة مع أفراد المجتمع بسبب الاختلافات الثقافية واللغوية، وهنا يأتي دور الوسيط الذي يساعد في بناء هذه العلاقات ويُساهم في جعل الملاحظات الميدانية أكثر دقة وموضوعية.

ومن هنا يمكن لوجود **وسيط محلي** أن يُجنب الباحث **الانحياز الثقافي** الناتج عن عدم فهمه العميق للثقافة المحلية، فالمساعد المحلي قادر على تقديم **تفسيرات دقيقة** للسلوكيات التي قد يراها الباحث غريبة أو صعبة التفسير بناءً على ثقافته الخاصة، وفي بعض الحالات، قد تكون هناك **ممارسات ثقافية** يصعب على الباحث فهمها من الخارج أو التعامل معها، مثل العادات التي تتعلّق بالخصوصية أو الدين ليقوم الوسيط الثقافي بلعب دور مهم في توجيهه حول كيفية التعامل مع مثل هذه المواقف بشكل أخلاقي، واحترام القيم الثقافية المحلية.

وعليه، يعتبر الإلمام بالثقافة المحلية أو الاستعانة بالوسيط الثقافي من **العوامل المهمة** التي تسهم في نجاح أي دراسة حقلية في الأنثروبولوجيا، فإضافة للملاحظة بالمعايشة يعتمد الباحث الأنثروبولوجي **المقابلات**(Interviews) الفردية أو الجماعية مع أفراد المجتمع المدروس، وهي وسيلة مهمة لجمع المعلومات الذاتية والتجارب الشخصية، بحيث تنقسم إلى نوعين: مقابلات غير موجهة (حيث يترك الباحث حرية

كبيرة للحديث)، ومقابلات موجهة (حيث يتبع الباحث مجموعة من الأسئلة)، وهي تساعده على فهم وجهات نظر الأفراد وتجاربهم الشخصية من داخل سياق المجتمع والثقافة التي يعيشون فيها.

لذلك تتراوح دراسات الباحث الأنثروبولوجي ما بين الدراسة الساكنة والمتحركة (Static and Dynamic Study)، ففي البحث الميداني، هناك عنصر آخر يتمثّل في دراسة الظواهر الثقافية كما هي في الوقت الحالي (الساكنة)، ولكن أيضًا فهم التغيرات الاجتماعية والثقافية في الزمن (المتحركة)، إذ من خلال دراسة هذه الديناميكيات، يمكن للباحث أن يحدد كيفية تطوّر العادات والممارسات عبر الزمن، ومدى تأثير العوامل الخارجية (مثل العولمة أو الاستعمار) على المجتمع.

ذلك أننا "لن نبلغ التفسير إلّا حين نتوصل إلى تكوين موضوعنا، فدور العقل الجدلي هو في تمكين العلوم الإنسانية من امتلاك واقع لا يقدمه غيرها فيما ينصب الجهد العلمي على تفكيك هذا الواقع وإعادة توليفه على صعيد آخر ... "[1].

غير أنه ورغم أهمية الدراسات الحقلية الميدانية في الأنثروبولوجيا إلّا أنها تواجه العديد من التحديات منها:

- الانحياز الثقافي(Cultural Bias) :

حيث يدخل الباحث إلى مجتمع ما ويحمل معه قِيَمًا ومعتقدات ثقافية خاصة به، مما قد يؤثر على طريقة تفسيره للظواهر الثقافية في المجتمع المدروس.

- المشاكل الأخلاقية(Ethical Issues) :

تتطلب الدراسة الحقلية التزامًا أخلاقيًا شديدًا في التعامل مع الأشخاص المدروسين، حيث يجب على الباحث أن يحترم خصوصية الأفراد ويحصل على موافقتهم المبدئية في جميع مراحل البحث.

- التفاعل مع السلطة والهيئات المحلية(Power Dynamics) :

يمكن أن يواجه الباحث صعوبة في بناء علاقات متوازنة في المجتمعات التي تكون فيها العلاقات بين السلطات المحلية والأفراد معقدة، وبالتالي التفاعل مع هذه الهياكل قد يتطلب مهارات اجتماعية كبيرة.

- التحديات اللوجستية(Logistical Challenges) :

قد يواجه الباحث تحديات تتعلّق بالتخطيط اللوجستي، مثل الوصول إلى المناطق النائية، توفير وسائل النقل، التكيّف مع الظروف المعيشية الصعبة في بعض الحالات، والتعامل مع نقص الموارد.

لتبقى الدراسة الحقلية رغم تحديات التطبيق عنصرًا حيويًا في الأنثروبولوجيا، لأنها تتيح للباحثين فرصة فريدة لفهم المجتمعات والثقافات في سياقاتها الطبيعية.

---

[1] كلود ليفي شتراوس، ***الفكر البري، مرجع سبق ذكره***، ص.299

2. **المنهج الوصفي أو الإثنوغرافي:**

يركز هذا المنهج على **وصف** الثقافات والأنظمة الاجتماعية بشكل دقيق وشامل، بحيث يعمل الباحث من خلال هذا المنهج على تقديم **صورة مفصّلة** عن سلوكيات الأفراد داخل المجتمعات التي يدرسها، دون تقديم تفسيرات نظرية أو فرضيات.

يعتمد هذا المنهج على **الملاحظة المباشرة** والوثائق الميدانية التي تجمع من خلال التفاعل المباشر مع أفراد المجتمع المدروس.

3. **المنهج التاريخي:**

يعتمد هذا المنهج على دراسة **الأنماط الثقافية والتاريخية** التي شكّلت المجتمعات البشرية عبر الزمن. يستخدم الأنثروبولوجيون هذا المنهج لفهم **التحولات الاجتماعية والثقافية** من خلال دراسة السجلات التاريخية، الوثائق القديمة، والآثار المادية التي تُوَثِقُ التطوّر البشري، كما يساهم هذا المنهج في فحص كيف شكّلت الأحداث التاريخية **الأنماط الاجتماعية** والاقتصادية والثقافية المختلفة.

4. **المنهج المقارن:**

يعتمد هذا المنهج على **مقارنة الثقافات** والمجتمعات البشرية لفهم أوجه التشابه والاختلاف بينها، بحيث يقوم الأنثروبولوجيون باستخدام هذا المنهج لدراسة المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ وفي مختلف البيئات الجغرافية، في محاولة لاكتشاف **الأنماط المشتركة** بين الشعوب والأفراد ومن ثمّ البحث في أوجه التشابه والاختلاف بينها، الأمر الذي يُمَكِّنُهُم من تصنيفها لاحقا.

5. **المنهج البنيوي:**

يتمحور هذا المنهج حول **البنية الاجتماعية** والثقافية للمجتمعات البشرية ويركز على فهم كيفية **تركيب العلاقات الاجتماعية** والأنظمة الرمزية (مثل اللغة والدين والأساطير) التي تُشَكِّلُ الثقافات، ويتبع هذا المنهج العديد من علماء الأنثروبولوجيا منهم **كلود ليفي شتراوس** -كما سنراه لاحقا بالتفصيل في الاتجاه البنيوي-.

وبالتالي يمكننا القول أنّ تنوع هذه المناهج يعكس الغنى الفكري والتعدد المنهجي الذي يميز علم الأنثروبولوجيا، فالمناهج الأنثروبولوجية ليست مجرّد أدوات بحثية، بل هي **طرق منهجية متكاملة** تهدف إلى **فهم الإنسان** من جميع جوانب حياته: البيولوجية، الاجتماعية، الثقافية، والرمزية.

فمن خلال **المنهج الإثنوغرافي** يتسنى للباحث أن يدرس المجتمعات الإنسانية من الداخل، في تفاعل يومي مع الأفراد والجماعات المدروسة بتقديم وصف **دقيق وشامل**. كما أنَّ التنوع في المناهج مثل **المنهج المقارن**، و**المنهج التاريخي**، و**المنهج النوعي**، وغيرها، يُتيح للباحثين فرصة لفحص الظواهر الاجتماعية والثقافية من زوايا متعددة، مما يُسهم في تقديم **صورة أعمق وأشمل** للإنسان في سياقاته المختلفة.

ومن خلال هذا التنوع المنهجي، يستطيع الأنثروبولوجي تقديم تحليل نقدي للأنماط البشرية وفهم التطور الاجتماعي والبيولوجي للإنسان عبر العصور، مع الأخذ بعين الاعتبار **الظروف التاريخية والجغرافية** التي أدّت إلى ظهور هذه الأنماط.

إنّ هذا التنوع يعكس قدرة علم الأنثروبولوجيا على **التأقلم مع المستجدات** والمتغيرات في **مجتمعات الإنسان**، ما يجعله أحد العلوم الإنسانية الرائدة التي تسهم في **إثراء المعرفة** حول الإنسان في أبعادها المختلفة، **مما يدفعنا للتساؤل عن أهم المدارس والاتجاهات النظرية الرائدة في الأنثروبولوجيا...**

- **ثانيا. المدارس الكبرى والاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا:**

الأنثروبولوجيا، كعلم إنساني، تتسم بتنوعها في المدارس النظرية والاتجاهات المنهجية التي تبنتها على مرّ العصور، هذه الأخيرة قد نشأت في سياقات ثقافية واجتماعية مختلفة، وركّزت كل منها على جوانب معينة من دراسة الإنسان، بدءًا من تفسير السلوك الاجتماعي وصولاً إلى فهم تطوّر الثقافات والأنماط البشرية. لذا، سعت هذه المدارس إلى بناء أطر فكرية متنوعة لدراسة المجتمعات البشرية وتقديم تفسيرات متعددة لظواهرها، وفيما يلي عرض لأهمها:

1. **المدرسة التطورية** (Evolutionism):

1.1. **التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها:**

شهدت الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر تطورات فكرية عميقة، متأثرة بالنهضة العلمية والفلسفية التي طرأت على مختلف العلوم الاجتماعية والطبيعية، ومن بين أبرز الاتجاهات التي ظهرت خلال هذه المرحلة: النظرية التطورية، التي سعت إلى تفسير التطور الثقافي والاجتماعي للبشر استنادًا إلى مفهوم التقدم التدريجي من البسيط إلى المعقد.

استلهمت هذه النظرية أفكارها من التطور البيولوجي كما قدمه **تشارلز داروين(Darwin, 1859)** ، لكنها ركزت على تطور المجتمعات البشرية بدلًا من الكائنات الحية. ورغم تأثيرها العميق في الفكر الأنثروبولوجي، تعرضت النظرية التطورية للعديد من الانتقادات، مما أدى إلى ظهور مدارس فكرية جديدة.

ظهرت النظرية التطورية في سياق فكري تأثّر بنظرية التطور البيولوجي، حيث حاول علماء الأنثروبولوجيا الأوائل تطبيق فكرة التطور التدريجي على الثقافات والمجتمعات البشرية(Evans-Pritchard, 1962) ، بحيث اعتقد التطوريون أنّ جميع المجتمعات البشرية تمر بمراحل تطورية متسلسلة، تبدأ من الحالة البدائية وتنتهي بالحضارات المتقدمة. وقد تأثرت هذه الأفكار إلى حد كبير بأعمال **داروين** في علم الأحياء، وكذلك بآراء الفيلسوف الألماني **جورج هيغل**، الذي رأى أنّ التاريخ البشري يسير وفق منطق ديالكتيكي نحو التقدم.

ترتكز النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا على عدّة مبادئ أساسية، من أبرزها:

- **التقدّم الثقافي المتدرج:** ترى النظرية أنّ جميع المجتمعات تمر بمراحل تطورية متشـــابهة، تبدأ من الصيد والالتقاط، ثمّ الزراعة، ثمّ الصناعة، وصولًا إلى المجتمعات الحديثة(Tylor, 1871) .
- **الوحدة الثقافية** (Unilinear Evolution) : تفترض هذه الفكرة أنّ جميع المجتمعات تتبع نفس المسار التطوري، وأنها تتحرك من البسيط إلى المعقّد وفق نمط ثابت.
- **الارتقاء الاجتماعي:** يشير هذا المبدأ إلى أنّ المجتمعات التي طورت أنظمة سياسية وتعليمية معقدة تُعتبر أكثر "تقدمًا" من المجتمعات التي لا تزال تعتمد على تقنيات بدائية.

2.1. من أهم رواد النظرية التطورية:

- **تشارلز داروين (1809-1882):**

يُعَدُّ أحد أبرز العلماء في تاريخ البيولوجيا، حيث قدم نظرية التطور التي غيرت فهمنا لكيفية نشـــوء وتغير الكائنات الحية عبر الزمن، نشـــر **داروين** أفكاره في كتابه الشـــهير ***"أصـــل الأنواع(1859)"*** ، حيث أوضـــح أنّ الكائنات الحية تتغير تدريجيًا عبر الأجيال من خلال عملية الانتخاب الطبيعي، مما يؤدي إلى ظهور أنواع جديدة وتكيفها مع بيئاتها المختلفة.

وقد ميز **أرنســـت ماير** في مقال نشـــره في (مجلة) **طيف العلوم** أربعة مســـلمات تعد مركزية في نظرية **داروين** للتطور، وفيها يتبين أنّ العـالم لا يُفْهَمُ ســـكونيا بل هو يُفْهَمُ كحركـة دائبـة، **فأولا** الأنواع تتغير بصـــورة متصـــلة وبعضـــها يفنى والبعض الآخر ينشـــأ من جديد، وكما تثبت البقايا الإحاثية فإنّ هذا التغيّر ينتج عن تغير في شـروط الحياة. **والتطور ثانيا** يتحقق ببطء شـديد وبصـورة متصـلة فلا يحصـل فيه قفزات مفاجئة. **وثالثا** يعتبر داروين أنه بوســـعنا أن نرجع كل ما هو حي إلى قفزة أصـــلية واحدة مشـــتركة، **ورابعا** ينطلق داروين من نظريـة الانتخـاب الطبيعي أو الاختيـار. وخلال توالي الأجيـال ينشـــأ تنوع كبير في الزاد الوراثي. وبذلك تتواصل دون شك حياة الأنواع التي تكون أفضل توليفات صفاتها أكثر مناسبة للتوافق مع الوسط البيئي ويتحقق التطور بفضل التناوب بين مراحل من الركود ومراحل من التغير المتسارع[2].

وبالتالي تعتبر نظرية **الانتخاب الطبيعي** [3] (Natural Selection) أحد أهم النظريات العلمية التي تفسـر كيفية تطور الكائنات الحية عبر الزمن، وتشـــرح كيف تؤدي **الاختلافات الوراثية** بين الأفراد داخل النوع

---

[1] ولد داروين في إنجلترا لعائلة مهتمة بالعلم، ودرس الطب أولًا، لكنه تحول إلى دراسـة التاريخ الطبيعي. كانت رحلته على متن سـفينة البيغل (1836-1831) نقطة تحول في حياته، حيث سـافر إلى عدّة أماكن، أبرزها جزر غالاباغوس، حيث لاحظ تنوع الطيور والحيوانات، مما ألهمه لتطوير نظريته حول التطور. بعد سـنوات من البحث، نشـر داروين كتاب *"أصل الأنواع(1859)"* ، حيث قدم فيه آلية التطور من خلال الانتخاب الطبيعي، مما أحدث ثورة علمية كبيرة.

[2] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.34.

[3] لكن التطور لا يحدث بالقفزات المفاجئة، وتبقى المواد الوراثية ثابتة وهي لا تتغير إلّا بالتوالد والتحوّل الطفري. وكون التطور لا يخضـــع لمبدأ التقدم يتبين كذلك من كوننا نجد اليوم بين أنواع النبات والحيوان ما هو كثير القدم والاختلاف وما هو في نفس الوقت أقدم وأحدث من الأنواع التي تتعايش. فالســـرطان ذو الذيل Der Schwertschwanzkrebsالذي هو في الحقيقة من العناكب مثلا يمثل جنسا كان موجودا منذ 180 مليون سنة. وشجرة الجنكو هي النوع الوحيد البتار .ومن قوى التطور الأكثر أهمية الانتخاب الذي ينطبق على التخلق الجيني بواســـطة التواليف الجديدة للجينات والتحولات الطفرية فيحدد في كل مرة وجهة التطور. ذلك أن أغلب الأنواع تظهر في شـــكل جنس ذكر وجنس أنثى وتنتج خلائفها توليف جديد في كل جيل توليف يمكن للمحيط أن يختبره. فأي قوة طاغية تقيم في ما يحصـــل من التوليف الجيني المتحقق خلال التوالد بالاتصال الجنسي يكون بينا عندما لا يغيب عن بالنا أنه في الأنواع ذات التوالد بالاتصال الجنسي لا يوجد أبدا بالاتصال الجنسي فيحصل مزيج مؤلف من نوعين من المعلومات الجينية فتنشـأ إعادة توليف جيني في تخلق جيني خارق للعادة. وينتج عن الاتصـال الجنسـي حصـول فردان لهما نفس الزاد الجيني . لكن

الواحد، إلى بقاء بعضهم وتكاثرهم على حساب الآخرين، مما يؤدي إلى تغيّر تدريجي في صفات الأنواع عبر الأجيال.

وتقوم هذه النظرية على عدّة فرضيات، منها:

- ✓ **التباين الوراثي(Variation)** : بحيث يولد الأفراد داخل النوع الواحد بصفات مختلفة نتيجة الطفرات العشوائية والاختلافات الوراثية، هذه الأخيرة قد تؤثر على قدرة الفرد على البقاء والتكاثر.
- ✓ **الصراع من أجل البقاء(Struggle for Existence)** :

نظرًا لمحدودية الموارد مثل الغذاء والمأوى، يتعيّن على الكائنات التنافس للبقاء على قيد الحياة، وعليه الأفراد الذين يمتلكون صفات تمنحهم ميزة تنافسية يكونون أكثر قدرة على البقاء والتكاثر.

- ✓ **البقاء للأصلح(Survival of the Fittest)** :

الأفراد الذين يمتلكون صفات تساعدهم على التكيّف مع بيئتهم لديهم فرصة أكبر للبقاء والتكاثر، هذه الصفات المفيدة ستنتقل إلى الأجيال القادمة، مما يؤدي إلى انتشارها بمرور الوقت.

- ✓ **التوريث (Heredity)** :

الصفات المفيدة تنتقل من الآباء إلى الأبناء عبر المادة الوراثية (DNA) وبهذه الطريقة، تتراكم التغيرات المفيدة على مدى الأجيال، مما يؤدي إلى نشوء أنواع جديدة.

الانتخاب الطبيعي في نظر داروين هو **الآلية الرئيسية** التي تفسر كيف يحدث التطور، لكنه ليس العامل الوحيد فالتطور هو عملية طويلة الأمد تتأثر بعدّة عوامل.

ورغم ذلك، إلّا أننا نجد أنّ نظرية داروين حول الانتخاب الطبيعي ألهمت العديد من المجالات العلمية والتطبيقية، ومنها **علم الأحياء التطوري**، حيث تستخدم لدراسة تطور الكائنات الحية عبر الزمن، **الطب** لفهم كيفية تطور الفيروسات والبكتيريا، مما يساعد على تطوير لقاحات وأدوية جديدة، وحتى **الذكاء الاصطناعي والخوارزميات التطورية** حيث يتم استخدام مبادئ الانتخاب الطبيعي في تطوير أنظمة ذكية تحاكي عملية التحسين التدريجي.

على الرغم من أنّ **داروين** لم يكن يمتلك الأدوات الجينية الحديثة، فإنّ نظريته استندت إلى أدلة متعددة، منها السجلات الأحفورية التي أوضحت وجود كائنات منقرضة تشبه الكائنات الحية اليوم، مما يدل على حدوث تغيرات تدريجية على مدى ملايين السنين. ووفقا لعلم التشريح المقارن (Comparative Anatomy) فإنه عند مقارنة الهياكل العظمية للكائنات المختلفة، نجد تشابهًا بينها رغم اختلاف وظائفها، مما يشير إلى وجود سلف مشترك، مع وجود التشابه الجنيني(Embryology) عند دراسة الأجنة في مراحلها المبكرة، بحيث نجد أنّ أجنة الفقاريات تتشابه في المراحل الأولى، مما يدل على تطورها من أصل مشترك،

نسبة الطفرات التي تظهر في التغيرات الجينية العفوية قليلة جدا وهي تؤدي دورا ضئيلا في نشأة التخلق بوصفها توليفا جينيا جديدا...**لمزيد من التفاصيل يمكنكم الاطلاع على:** كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص: 34_38.

ضـف إلى ذلك في علم الوراثة – (Genetics) وبعد اكتشـاف الحمض النووي(DNA) ، أصـبح لدينا دليل مباشـر على كيفية انتقال الصـفات الوراثية من جيل إلى آخر، مما أكد صحة آلية الانتخاب الطبيعي التي اقترحها داروين.

ومن هنا يمكننا القول أنّ نظرية داروين حاولت البحث في إجابة علمية للسـؤال: ما هو أصـل الأنواع؟ وما هي العوامل التي تسـاهم في اسـتمرارية بعضـها على حسـاب الآخر؟، الأمر الذي أحاله لضـرورة البحث فيما أسـماه بنظرية الانتخاب الطبيعي القائم على ثنائية التكيّف والقدرة على التوريث أو الاسـتمرار رغم التغيّر الجزئي أو الكلي تحت تأثير عوامل عدّة.

ولم يقف العلم عند هذا الحد بل بعد داروين، تطورت نظريته بفضل التقدم في علم الوراثة والبيولوجيا الجزيئيـة، ممـا أدى إلى ظهور "النظريـة التطوريـة الحـديثـة(Modern Evolutionary Synthesis) "، التي تجمع بين نظرية داروين في الانتخاب الطبيعي ومبادئ علم الوراثة(Mendelian Genetics) ، التي تفسـر كيفية انتقال الصـفات عبر الأجيال والطفرة الوراثية (Mutation) كعامل أسـاسـي في إحداث التغيرات الجينيـة، إضـافـة للانجراف الجيني(Genetic Drift) ، وهو تغيّر عشـوائي في الترددات الجينيـة داخـل المجموعات السكانية المختلفة.

واجمالا لِمَ سـبق ووفقا لنظرية داروين في التطوّر والانتخاب الطبيعي يمكن التمييز بين ثلاثة أوجه في التطور تمكن من تفسير تخلّق الحياة بعملها المشترك[1]:

- ✓ كل تغير في التطور يَتَقَوَمُ من سـلسـلـة خطوات، وأولى هذه الخطوات تتمثّل بالذات في توليد التخلّق الجيني،وفي ذلك يسـيطر الاتفاق المطلق (الصـدفة)، إلّا أنّ الصـدفة تُعنى بكون الطفرة والتوليف الجيني يبقيان على تنوع الزاد الجيني وتخلقه.
- ✓ وما يحصل بالصـدفة من تنوع جيني للكائنات الحية ليس مقصـورا على كونها مختلفا بعضـها عن البعض بل هي تختلف كذلك بدرجات صلاحيتها للقيام بوظيفتها ، فهي مختلفة التجهيز بخصوص نجاحها في وظيفة التكاثر. وبسـاطة فالانتخاب يوفر كل ما يرجح الرفع من حظوظ البقاء الجيني دون أن يتبع مبدأ عقليا معينا.
- ✓ والعوامل الخارجية وعوامل الكيانات العضـوية تكتسـب في كل مرة شـروطا تشـريحية وشـروطا وظيفية محدودة لكن لها إمكانية تطور لا حد لها، فتربط التطور بما لها من تفاعل معقد تربطه بوجهات معينة.

وعلى الرغم من قبول النظرية التطورية على نطاق واسع في الأوساط العلمية، إلّا أنها واجهت انتقادات، بعضـها علمي وبعضـها ديني. من أبرزها عدم قدرة **داروين** على تفسـير آلية انتقال الصـفات، وهو ما تمّ حلّه لاحقًا بعد اكتشـاف الجينات، إضـافة لنقص الأدلة الأحفورية لبعض المراحل الانتقالية، وهو أمر تمّ تداركه مع الاكتشـافات الحديثة. دون أن ننسـى الاعتراضـات الدينية والأخلاقية، التي تمّ بموجبها رفض

[1] كريستوف فولف، *مرجع سبق ذكره*، ص.41

فكرة أنّ الإنسان نشأ من سلف مشترك مع القردة، رغم أنّ النظرية لا تقول إنّ الإنسان "جاء من القرد"، بل يشير إلى وجود أصل مشترك بين البشر والرئيسيات الأخرى.

وكانت لنظرية داروين أبعادا أخرى قد ساهمت بشكل كبير في انبثاق أفكار أخرى لتفسير أصل الأنواع والاختلافات بين الأنواع، منها ما ذكره **"إيفنز بريتشارد"** في كتابه:

- **"أوغست وايزمان":**

نشر العالم البيولوجي الألماني "أوغست وايزمان" في عام 1875 سلسلة من التجارب تدحض النظرية القائلة بإمكانية وراثة السمات المكتسبة وكان كتابه الذي ترجم إلى الإنجليزية في 1880-1882 سببا في أن تفقد اللامارتية الكثير من أنصارها[1].

وعلى الرغم من أنّ داروين في كتابه الأول تجنب مسألة أصل الانسان، إلاّ أنه كان واضحا تماما أنّ مبدأ الانتخاب الطبيعي يمكن أن ينطبق على التطور البشري ولم يكن هناك آنذاك أي تمييز بين السلالة والثقافة ومن ثمّ بدأ وصف التطوّر من الحالة الهمجية البدائية إلى المجتمع المتحضر الحديث على أساس النظرية الداروينية[2].

غير أنّ فكرة الانتخاب الطبيعي في حد ذاتها أثارت العديد من التساؤلات كما أشار إلى ذلك **"كريستوف فولف"** ، منها : **بم يتعلق الانتخاب؟ ، فهل هو يتعلق بالجينات؟ أم بكيان الأفراد العضوي؟ أم بالجماعات؟ أم بالنوع ؟** وفي ذلك نقاش طويل أسال حبرا كثيرا ولا يوجد الآن جوابا واحدا يجمع عليه العلماء والأرجح أنّ الانتخاب الطبيعي يمكن أن يكون منطبقا على عدّة مستويات، وبالتالي فعلينا أن نأخذ في الحسبان تعدد كيفيات التأثير الذي يحققه الانتخاب الطبيعي. ولكن أيا كان محل انطباقه ومهما كانت حيله التي يعمل بمقتضاها فالثابت أنّ الانتخاب لا يتبع أي مقاصد مسبقة [3].

ونجد أول مثال لهذا الوصف في مقال لعالم الاقتصاد البريطاني:

- **"والتر باجهوت" Bagehot:**

في مجلة "فورت نايتلي" the fortnightly في عام 1867م، والذي اعتبر أنّ البشر الأوائل كانوا لا يعرفون أي شكل من أشكال التنظيم ثمّ وصف كيف نشأت بداية التنظيم الاجتماعي حيث قال:"... إنّ ما يلزمهم ضرورة هو قيام حكومة واحدة ... وسمها ما شئت من أسماء: كنيسة أو دولة لتنظيم مجمل الحياة البشرية ... وهدف مثل هذا التنظيم هو خلق إطار من الأعراف"[4].

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.18.

[2] ***المرجع نفسه***،ص.18.

[3] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.39.

[4] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه*** ،ص.18.

كانوا يعتبرون التطور الاجتماعي تطورا عِرْقِيًا واعتاد "باجهوت" في أول الأمر النظر إلى نموذجه عن التطور البشري باعتباره مماثلا وإن لم يكن مطابقا لنظرية **داروين** ليس بسبب الفارق بين الوراثة الاجتماعية والعضوية ولكن بسبب الفارق بين البشر والحيوانات[1].

وبالتالي يمكننا القول أنّ "باجهوت" يعتبر عنصرا مهما بالنسبة لنظرية **الانتخاب الثقافي** ذلك لأنه يركز على الأعراف والعادات والتقاليد والعقائد والنظم السياسية وغير ذلك من قسمات نراها اليوم عناصر جوهرية للثقافة على عكس السمات الفيزيقية التي نعزوها اليوم إلى الوراثة العضوية في الأساس[2].

- **مؤرخ الأدب الفرنسي "فرديناندو برونتير":**

استلهم نظرية دارون عن التطور وذهب إلى الأدب والفنون الأخرى تطورت بناءً على مجموعة من القوانين التي تُمَاثِلُ وإن لم تطابق القوانين الحاكمة للتطور البيولوجي، يُمايز بين "العِرق" و"الثقافة" إنه يقول إنّ تطور الأدب والفن رهن العِرق مثلما هو رهن البيئة والظروف الاجتماعية والتاريخية وكذلك العوامل الفردية علاوة على هذا فإنه يمايز بين التطور والتقدم[3].

- **"ليزلي ستيفين":**

رأى أنّ التميز بين التطور الثقافي والتطور العضوي مهم لأنّ التطور العضوي شديد البطء بحيث لا نجد له أي علاقة وثيقة بالعلوم الاجتماعية، لكن نظريات "ليزلي ستيفين" النابهة عن التطور الثقافي لقيت الإهمال ولم يكن لها أثر على الفلاسفة الذين جاءوا بعده[4].

- **"بنجامي كيد" "Benjaminkidd":**

يرى أنّ المنافسة الأبدية ضرورية لاطراد تطور العِرق، لذلك نراه يرفض الاشتراكية التي اعتقد أنها سوف تفضي إلى حالة من التحلل[5].

وعليه، يمكننا القول أنّ النظرية الداروينية كانت بداية لانبثاق فكرة التطور والانتخاب الطبيعي التي شهدت موجة من التعديلات في الرؤى والتصورات، خاصة عند محاولة نقلها من السياق الطبيعي وتطبيقها على دراسة الإنسان والعِرْق والثقافة، ومنها ما تطرّق إليه **إدوارد برنت تايلور**:

- **إدوارد برنت تايلور** :(Edward B. Tylor, 1871) :

يُعتبر تايلور من أبرز مؤسسي الأنثروبولوجيا الثقافية، وقد طرح مفهوم "الثقافة" باعتبارها كلًا مركبًا يشمل المعرفة والعقائد والفنون والعادات، ورأى أنّ الأديان والمعتقدات تطورت من الطوطمية والأنيميزم (الإحيائية) إلى الديانات المتعددة، ثمّ إلى الديانات التوحيدية(Tylor, 1871) .

---

[1] بريتشارد إفتز، ***مرجع سبق ذكره*** ،ص.18

[2] ***المرجع نفسه*** ،ص.19

[3] ***المرجع نفسه*** ،ص.26

[4] ***المرجع نفسه*** ،ص.26

[5] ***المرجع نفسه*** ، ص.26

استخدم **"تايلور"** كلمة عُرْف أو سلالة كمرادف لكلمة ثقافة أو قبيلة أُسْوَةً بالغالبية العظمى من معاصريه، كما ترك أثرا واضحا على الفكر التطوري وعلى مفهوم الثقافة، ونحن نعزو أساسا إليه فكرة أنّ المجتمع المتمدن الحديث ظهر نتيجة تطور تدريجي لمجتمعات أكثر بدائية[1].

كما أنه يُطابق بين الثقافة والحضارة ويحددهما بوصفهما ذلك الكلّ المعقد الذي يتضمن العلم والإيمان والفن والأخلاق والقانون والعوائد والتقاليد وكل القدرات والعادات الأخرى أي كل ما اكتسبه الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع ، وبهذا التعريف لا تكون القدرات الثقافية موروثة مثل الصفات الطبيعية بل هي مكتسبة. وحسب ما عليه العلم الحالي بالإنسان فإنّ الثقافة لم تعد قابلة للتمييز عن الطبيعة تمييزا ذا دلالة فريدة، إنما الإنسان في الحقيقة كائن ثقافي بالطبع وهو لا يصبح إنسانا إلّا بفضل الثقافة بل إنّ العمليات الثقافية تنتسب بعد إلى صيرورة الإنسان إنسانا Menschwerdung إنها موجودة بعد عند الإنسان الأول وهي قد أسهمت في صنع الإنسان العارف خلال الحد من دور الطبيعة، فاستعمال الآلات والمؤسسات الاجتماعية يجعلان الإنسان قادرا على البقاء ويسهمان في تمكينه في الانتشار في المعمورة [2].

وتقضي النظرية السائدة في عهده بأنّ الشعوب الهمجية أو البرابرة ظهرت نتيجة تحلل مجتمعات متمدنة، وتشتمل كتبه على وصف شامل للأعراف والتقنيات والعقائد السائدة في ثقافات مختلفة وكيف تغيرت، ويناقش كيف أنّ أوجه التماثل بين الثقافات يمكن أن ترجع إمّا إلى الانتشار أو إلى تطوّر مستقل مواز، ولا نجد في كتاباته إشارة صريحة إلى نظرية داروين عن الانتخاب الطبيعي ولكن لا شك في أنه استلهم نظرية **داروين** كما هو واضح من الرواية التالية[3]:

"إنّ التاريخ في مجاله الدقيق بامتياز، وكذا الإثنوغرافيا يتحددان لبيان أنّ المؤسسات التي تثبت أنها الأفضل والأكفأ في العالم تجب تدريجيا الأقل ملاءمة وتحل محلها، ويحدد هذا الصراع الأبدي المسار العام للثقافة الناجم عن ذلك.

- **لويس هنري مورغان** Lewis H. Morgan (1818-1881) [4]

يُعَدُّ لويس هنري مورغان أحد أبرز علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، وهو رائد في **الأنثروبولوجيا التطورية** التي حاولت تفسير تطور المجتمعات البشرية من خلال مراحل خطية متتابعة

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:18-22.

[2] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.137.

[3] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه***، ص.18.

[4] ولد مورغان في **نيويورك**، **الولايات المتحدة الأمريكية**، وتلقى تعليمًا قانونيًا، لكنه انجذب إلى دراسة **الثقافات والمجتمعات البشرية**، خاصة ثقافة **الهنود الحمر** في أمريكا الشمالية. كان على اتصال وثيق بشعب **الإيروكوا**، مما منحه فرصة لدراسة أنظمتهم الاجتماعية والقرابية، والتي أصبحت الأساس لكثير من أفكاره الأنثروبولوجية. من بين أهم مؤلفاته: **أنظمة القرابة والمصاهرة في العائلة البشرية(1871) "، المجتمع القديم(1877) "**.

كان لفكر مورغان تأثير عميق على **كارل ماركس وفريدريك إنجلز**، خاصة في كتاب إنجلز *"أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة(1884) "* ، حيث استخدم إنجلز نظرية مورغان حول تطور العائلة والمجتمع لدعم أفكاره حول **الصراع الطبقي ونشوء الدولة**. اعتبر إنجلز أن **نظام العائلة المشاعية القديمة** (الذي وصفه مورغان) قد أفسح المجال أمام ظهور **الملكية الخاصة والبنية الطبقية** مع تطور الزراعة وظهور الاقتصاد المعتمد على الموارد المملوكة للأفراد. ورأى أنّ الانتقال من العائلة الممتدة إلى العائلة النووية الحديثة يعكس التحولات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى في المجتمعات البشرية.

ركّز مورغان على دراسة **التنظيم الاجتماعي، و أنظمة القرابة، وتطور الحضارات**، مما جعله من أهم المفكرين الذين أسهموا في تأسيس الأنثروبولوجيا كعلم مستقل.

في كتابه *"المجتمع القديم"* ، قدّم **نظريته حول التطور الاجتماعي**، والتي أثرت لاحقًا على المفكرين مثل **كارل ماركس وفريدريك إنجلز**.

كان **مورغان** من أوائل من تبنوا النهج التطوري في دراسة المجتمعات البشرية، بحيث درس المجتمعات الأمريكية الأصلية وطرح مفهوم التطور الاجتماعي الذي قسّمه إلى ثلاث مراحل رئيسية: **الوحشية** (Savagery)، **الهمجية**(Barbarism) ، **والحضارة** (Civilization) ، واعتبر أنّ الانتقال بين هذه المراحل مرتبط بالتطور التكنولوجي والاقتصادي(Morgan, 1877) :

- ✓ **مرحلة الوحشية**(Savagery) : تُمَثّل أقدم مراحل التطور البشري، اعتمد فيها البشر على الصيد، وجمع الثمار، والعيش في بيئات طبيعية ولم يكن هناك استقرار اجتماعي واضح أو مؤسسات اجتماعية معقدة.
- ✓ **مرحلة البربرية أو الهمجية**(Barbarism) : شهدت هذه المرحلة ظهور **الزراعة** وتدجين الحيوانات أين بدأ النّاس في تشكيل مجتمعات أكثر استقرارًا، مما أدى إلى تطور التنظيمات الاجتماعية كما ظهرت الأدوات المعدنية، وبدأت ملامح الحضارات الأولى في الظهور.
- ✓ **مرحلة الحضارة** (Civilization) : تبدأ هذه المرحلة باختراع **الكتابة** وتميزت بظهور الأنظمة السياسية المنظمة، المدن، والهياكل الاجتماعية المعقدة كما شهدت نشوء الدول والقوانين، وانتشار الفنون والفلسفة والعلم.

هذه المراحل مستوحاة جزئيًا من أفكار **التطور الدارويني**، حيث يرى مورغان أنّ التطور الاجتماعي والثقافي يحدث تدريجيًا عبر الزمن، وفقًا لظروف المجتمع وقدرته على التكيّف مع بيئته، كما قسم كل مرحلة من المراحل السابقة إلى مراحل جزئية مثل: المرحلة الوحشية الدنيا والوسطى والعليا[1]

يعتبر **مورغان** أيضا من أوائل الأنثروبولوجيين الذين **درسوا نُظُم القرابة من منظور علمي تطوري**، حيث لاحظ أنماطًا مختلفة للعلاقات العائلية في المجتمعات البشرية، ولاحظ أنّ **القرابة ليست فقط بيولوجية، بل ثقافية أيضًا**، حيث أنّ لكل مجتمع نظامًا فريدًا يُنَظِّمُ علاقاته الأسرية، كما أنّ **نُظُم القرابة تطورت مع تطور المجتمعات**، فانتقلت من النُظُم المشاعية التي تشترك فيها العائلات الكبيرة في رعاية الأطفال، إلى الأنظمة الأكثر تعقيدًا حيث أصبحت العلاقات الأسرية أكثر تحديدًا.

ومع وجود تصنيف عالمي لنُظُم القرابة، لاحظ وجود أنماط متشابهة للقرابة في مجتمعات مختلفة، مما يشير إلى وجود قوانين اجتماعية مشتركة تحكم تطور العائلات في كتابه أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة الإنسانية[2]، ومن خلال دراسته للإيروكوا، توصّل **مورغان** إلى أنّ القبائل الهندية الأمريكية تتبع

---

[1] لمزيد من التفاصيل أنظر: مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.142.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.142.

نظام قرابة **تصـنيفي(Classificatory)** ، حيث يتم تصـنيف الأفراد في مجموعات قرابية أوسـع بدلاً من التركيز على العلاقات الفردية الضيقة كما في المجتمعات الغربية الحديثة.

ورغم إسـهاماته المهمة، إلّا أنّ أفكاره تعرضـت للعديد من الانتقادات، منها **المبالغة في تبني فكرة التطور الاجتماعي الخطي**، بحيث يرى بعض العلماء أنّ المجتمعات لا تتطور دائمًا وفق مراحل ثابتة، بل قد تأخذ مسـارات مختلفة وفقًا لظروفها الخاصـة، كما أنّ هناك مجتمعات لم تمر بكل المراحل التي ذكرها مورغان لكنها تطورت بطرق أخرى. كما عِيب عليه النظرة الإثنومركزية(Ethnocentrism) من خلال اعتماده على النموذج الغربي للحضـارة كذروة التطور، مما يجعله متحيزًا ضـد الثقافات غير الغربية، لذا يرى بعض النُقاد أنّ تصنيفه للمجتمعات القديمة بـ"الوحشية" و"البربرية" يعكس منظورًا ضمنيا استعماريًا.

إضافة إلى أنه لم يعطِ أهمية كبيرة للعوامل الاقتصادية والتغيرات السياسية في تطور المجتمعات، وهو ما حاول الماركسـيون تصحيحه لاحقًا. كما أنّ بعض الأفكار التي طرحها مورغان حول المجتمعات القديمة كانت تعتمد على مقارنات نظرية أكثر من اعتمادها على أدلة تاريخية قوية.

واجمالا لِمَ سـبق يمكننا اعتبار **لويس هنري مورغان** من رواد الأنثروبولوجيا، حيث قدّم إطارًا لفهم كيفية تطور المجتمعات البشـرية عبر الزمن. رغم أنّ بعض أفكاره تمّ تعديلها أو انتقادها، إلّا أنّ أعماله شـكّلت أسـاسًـا للكثير من الأبحاث اللاحقة في **الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، والفكر الماركسـي** ولا تزال أفكاره حول **التطور الاجتماعي، نظم القرابة، والتغيّر الثقافي** موضـع اهتمام الباحثين حتى اليوم، مما يجعله أحد الأنثروبولوجيين البارزين في تاريخ العلوم الإنسـانية والاجتماعية، فقد كان مورغان شـخصـية محورية في تطور **الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية**، حيث فتح الباب لدراسـة المجتمعات من خلال مقارنة أنماط حياتها وهياكلها الاجتماعية، مسـاهما بذلك في **تأسـيس الأنثروبولوجيا المقارنة وإرسـاء الأسـس العلمية لدراسـة القرابة**، إذ لا تزال دراسـته عن أنظمة القرابة مؤثرة في الأنثروبولوجيا الحديثة والمعاصرة.

- **هربرت سبنسر**(Herbert Spencer, 1896) :

أدخل **سـبنسـر** مفاهيم مسـتمدة من علم الأحياء إلى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، واعتبر أنّ المجتمع يشـبه الكائن الحي الذي يتطور تدريجيًا من البسـيط إلى المعقد، مما أدى إلى انتشـار فكرة "الداروينية الاجتماعية".

ففلسـفته في التطور ارتكزت على فكرة مؤداها أنّ جميع أنواع التطور تخضـع لمبادئ أسـاسـية واحدة، ذلك أنّ الكون والأرض والأنواع والأفراد والمجتمع تتطور جميعها وفق النمط ذاته وفي الاتجاه نفسـه، أي حسـبما رأى **سـبنسـر** في اتجاه المزيد من الاختلاف والتوازن دائما وأبدا، إنها جميعا تمثل جزءا من عملية واحدة:" ليست هنالك أنواع عديدة من التطور تجمع بينها سمات معينة مشتركة، وإنما هناك تطور واحد يمضي في كل الاتجاهات وله الاسم ذاته[1].

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.18.

وذهب "**سـبنسـر**" إلى أنّ تطور المجتمعات يمضـي عبر أربعة مراحل، إذ ظهرت من بين الحالة الهمجية غير المنظمة **المجتمعات البربرية** المؤلفة من البدو الرحل والرعاة، واتحد هؤلاء فيما بعد في مدن ودول قومية تسـمى **المجتمعات المحاربة**، وتسـمى المرحلة الأخيرة في التطور باسـم **المجتمع الصـناعي** الذي سـوف يواصل تطوره في اتجاه التوازن وانعدام النمو والسلم والتناغم[1].

- **جيمس جورج فريزر**(1854-1941) (James George Frazer) :

يُعَدُّ **جيمس جورج فريزر** أحد أبرز علماء الأنثروبولوجيا في أواخر القرن التاسـع عشـر وبدايات القرن العشـرين، حيث أسـهم بشـكل كبير في تطوير **النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا**، خاصـة فيما يتعلّق بدراسـة الدين والأسـطورة والسـحر في الثقافات البشـرية، إذ يُعَدُّ كتابه **"الغصـن الذهبي The Golden Bough, 1890** -كما سبق وأشرنا- من أهم الدراسات المقارنة في الأديان والأساطير. ركّز **فريزر** من خلال أعماله على تحليل الطقوس والمعتقدات الدينية البدائية، وعاش في زمن كانت فيه **النظريات التطورية** تسـيطر على العلوم الاجتماعية، وكان متأثرًا بأعمال: **تشـارلز داروين** في علم الأحياء (الانتخاب الطبيعي)، **هربرت سـبنسـر** في التطور الاجتماعي والثقافي، **إدوارد برنت تايلور ولويس هنري مورغان** في الأنثروبولوجيا التطورية.

سـعى فريزر إلى **تطبيق المنهج التطوري على دراسـة الفكر الديني والسـحري**، حيث رأى أنّ الأفكار والمعتقدات تمر بمراحل تطورية، مثلما تمر المجتمعات البشرية بمراحل تطور اجتماعي واقتصادي.

ووضع **تصورًا تطوريًا للمعتقدات البشرية**، قائلًا إنّ الفكر البشري مرّ بثلاث مراحل أساسية هي:

- ✓ **مرحلة السحر**(Magic) :

اعتقد البشـر الأوائل أنّ بإمكانهم **السـيطرة على الطبيعة** من خلال السحر والطقوس، إذ كان السحر جزءًا من التفكير السـببي البدائي، حيث سـاد الاعتقاد بأنّ **أداء أفعال معينة يمكن أن يؤدي إلى نتائج محددة** مثل طقوس جلب المطر أو النّجاح في الصيد، وانقسم السحر عند فريزر إلى نوعين :

- **السـحر التشـابهي** :(Imitative Magic) : يعتمد على التقليد، مثل الاعتقاد بأنّ تقليد صـوت المطر يمكن أن يؤدي إلى سقوط المطر.
- **السـحر العدائي أو الاتصـالي** (Contagious Magic) : يقوم على فكرة أنّ الأشـياء التي كانت على اتصال ببعضها تبقى مؤثرة في بعضها حتى بعد انفصالها، مثل استخدام أظافر أو شعر شخص في طقوس سحرية تؤثر عليه.

[1] بريتشارد إفتز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.22

- ✓ **مرحلة الدين(Religion) :** عندما فشل السحر في تفسير الظواهر الطبيعية، لجأ الإنسان إلى **الدين وعبادة الآلهة** وأصبح يُنظر إلى الطبيعة على أنها محكومة **بقوى عليا أو كائنات روحية** يجب استرضاؤها بالقرابين والصلوات، ثمّ تطورت الأديان البدائية من عبادة الأرواح (الأرواحية) إلى تعدد الآلهة ثمّ التوحيد.
- ✓ **مرحلة العلم(Science) :** مع تطور الفكر البشري، بدأ الإنسان يعتمد على **العقل والمنهج العلمي** في تفسير الظواهر، بدلًا من الدين والسحر، وفي هذه المرحلة، حلّ **العلم والتكنولوجيا** تدريجيًا محل المعتقدات الدينية والخرافية، مما جعل الإنسان يبتعد عن الطقوس السحرية والدينية كأسلوب رئيسي لفهم العالم.

وفي نفس السياق يوضح **"كريستوف فولف"** الموضوع أكثر من خلال تساؤلاته: **هل مصدر الدين يكمن في الأسطورة أم في الشعيرة مسألة مركزية؟، ليوضح قائلا:** وفي حين أنّ مدرسة **كمبردج** لأعمال الكلاسيكيين تنطلق بالأحرى من القول إنّ بداية الدين توجد في الشعائر ترد **ميرسيا إلياد** بدايته إلى الأسطورة. وعلى العكس من ذلك يرى **جيمس فريزر** أنّ الشعائر الأولى مرتبطة بالمعتقدات الدينية وأنّ الأساطير ليست إلّا أشكالا من عرض وتأويل الممارسات العقدية. والأعمال التي تتبع وجهة **جيمس فريزر** وذات الصلة **بدجين ألن هريسون** تبحث في الأساطير والحكايات لتحديد أي ترسبات مشعرية يمكن أن نعينها فيها. ومن ناحية ثانية فإنّ الأساطير تقبل كذلك الفهم كحكايات مقدسة لا تتضمن إلّا الأفعال المشعرية التي لا تتعين بزمان والتي تمثل من هذا المنظور مجرد إعادة عرض للأساطير الكونية. وكلا الموقفين يتفقان على أنّ الأسطورة والشعيرة يتطابقان في كونهما يسعيان لتأصيل حياة الإنسان في نظام كوني ومدها بالاتصال والتناسق. كما يتفق كلا الموقفين على أنّ الدين وكذلك الحكايات الأسطورية وكذلك الممارسات المشعرية تحتاج كلها إلى التجسد حتى تتعايش[1].

وعليه واستنادا على ما سبق يمكننا القول أنه على الرغم من أنّ **فريزر** اعتبر أنّ الفكر البشري يمر بمراحل متتابعة (من السحر إلى الدين ثمّ إلى العلم)، إلّا أنه لم يكن يرى أنّ المراحل السابقة تختفي تمامًا بل تبقى **بقايا من كل مرحلة** في المجتمعات الحديثة، حيث نجد **عناصر دينية في العصر العلمي، وممارسات سحرية في المجتمعات المتدينة**.

كما كان **فريزر** من أوائل العلماء الذين استخدموا **المنهج المقارن** في دراسة الثقافات البشرية، بحيث جمع بيانات عن الطقوس الدينية والممارسات السحرية من ثقافات مختلفة حول العالم وقارن بين هذه الطقوس ووجد **تشابهات عالمية**، مما دفعه إلى الاعتقاد بأنّ جميع المجتمعات مرت بمراحل متشابهة من

[1] كريستوف فولف، *مرجع سبق ذكره*، ص.288.

التطور الفكري، مما جعله يعتبر أنّ الطقوس التي نجدها في المجتمعات الحديثة يمكن أن تكون **بقايا لمعتقدات قديمة**، الأمر الذي يعكس فكرة "البقاء الثقافي (Survivals) "التي تبناها من **إدوارد تايلور**.

وبالتالي لقد ساعدت اسهاماته الأنثروبولوجية في ترسيخ فكرة أنّ **الأديان ليست ظواهر معزولة، بل هي جزء من التطور الثقافي العام**، ليُقَدِمَ بذلك أنموذجًا لتفسير كيفية تطور الفكر الديني والرمزي عبر التاريخ، مسهمًا في تعزيز دراسة **الطقوس والرموز الدينية** من منظور تاريخي تطوري. كما لم يكن تأثيره مقتصرًا على الأنثروبولوجيا فقط، بل امتد إلى مجالات أخرى مثل: **الأدب** ليتأثر به العديد من الكُتَّاب مثل **ت. س. إليوت، وجيمس جويس، ووليم بتلر ييتس**، الذين استخدموا رموزه في أعمالهم الأدبية، كما تأثّر به **سيغموند فرويد** في علم النفس خاصة في دراسته عن الطوطمية والعقدة الأوديبية، دون أن ننسى مساهمته في تعزيز **الدراسات الدينية**، إذ ألهم الكثير من الباحثين في مقارنة الأديان والطقوس الدينية.

ورغم أهمية أعمال **فريزر**، إلّا أنها تعرضت بدورها لعدّة انتقادات، منها تبني **النظرة التطورية الخطية** بحيث انتقد علماء لاحقون مثل **فرانز بواس** الفكرة القائلة بأنّ جميع المجتمعات تمر بنفس المراحل التطورية. كما أظهرت دراسات لاحقة أنّ **التطور الثقافي ليس خطيًا بالضرورة**، بل قد يحدث بطرق متعددة حسب الظروف البيئية والاجتماعية لكل مجتمع. إضافة لتجاهل العوامل الاجتماعية والسياسية، خاصة وأنه ركّز على التطور الفكري والديني، دون منح الأهمية للعوامل **الاقتصادية والسياسية** التي تؤثر في تطور المجتمعات وممارساتهم الدينية.

ومجمل القول أنّ **جيمس جورج فريزر** يُعَدُّ من أهم علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، حيث ساعد في ترسيخ الفكرة القائلة بأنّ **المعتقدات الدينية والسحرية ليست عشوائية، بل تخضع لقوانين تطورية مثلها مثل المجتمعات نفسها**.

اعتمد فريزر على منهج المقارنة بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الحديثة، لكنه واجه انتقادات لأنه لم يعتمد على دراسات ميدانية مباشرة، بل استند إلى تقارير ووثائق تاريخية. رغم ذلك، كان لعمله تأثير كبير في الأنثروبولوجيا وعلم الأديان المقارن.

3.3. الانتقادات الموجهة للنظرية التطورية:

رغم التأثير الكبير الذي أحدثته النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا، إلّا أنها تعرضت لانتقادات حادة أبرزها:

- ✓ **النزعة الإثنية المركزية** :(Ethnocentrism) :

حيث اتُهم التطوريون بأنهم يقيسون تطور الثقافات الأخرى وفقًا للمعايير الغربية، مما أدى إلى تعزيز تصورات استعلائية تجاه المجتمعات غير الغربية(Boas, 1911) . بحيث تعتبر "النزعة الفردية في احتقار أو سوء تقدير الثقافات الأخرى أمر لازم كل الثقافات، إنّ كلمة أسكيمو تترجم ب " الرجال " وهذه النزعة هي ما تطلق عليها اسم الإثنية المركزية ، وهي تتلخص في توقف من يعتقد أنّ ثقافة حياته أفضل من الثقافات

الأخرى كلها . ومن الواضح أنّ حقل تطبيق هذا التحديد عريض جداً، وهو يتعدى عصور الاستعمار الكلاسيكي، ولا شيء يميز النزعة الغربية بهذا الصدد عن سائر النزعات الأخرى، كما يعتقد **هرسكوفيتز** ، وهي نزعة ساذجة ولا مبرر لها، إلّا أنها مبنية على تقنية متفوقة ، ولكنها ليست بعد كل شيء أكثر من عنصر من عناصر الحياة الثقافية[1].

✓ **إغفال التعقيد الثقافي:**

يرى المنتقدون أنّ النظرية التطورية تتجاهل تباين الثقافات وتعقيدها، حيث لا تسير كل المجتمعات بالضرورة في نفس المسار التطوري(Mead, 1935) .

✓ **نقد الفرضية الأحادية(Unilinear Evolution) :**

رفضت المدارس الأنثروبولوجية اللاحقة فكرة أنّ جميع المجتمعات تمر بنفس المسارات التطورية، وظهرت نظريات بديلة مثل التطور المتعدد الخطوط (Multilinear Evolution) الذي طرحه جوليان ستيوارد(Steward, 1955) .

✓ **إهمال العوامل البيئية والتاريخية والخارجية:**

لم تأخذ النظرية التطورية في الحسبان تأثير البيئة والتغيرات التاريخية في تشكيل الثقافات، وهو ما ركزت عليه الدراسات اللاحقة في الأنثروبولوجيا التاريخية والثقافية(Harris, 1968) كما أنها ركزت على العامل الذاتي الداخلي في التطوّر متجاهلة تأثير العوامل الخارجية في ذلك.

ومن هنا بدأت سيرورة الإنتاج التنظيري المعرفي في الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته، بحيث أفضت الانتقادات والطروحات المختلفة التي تبحث في أصل الأنواع وكيف وجدت وتغيرت إلى بروز العديد من النظريات، واستنادا على ما جادت به نظرية الانتخاب الطبيعي من أفكار، ظهرت نظرية الانتخاب الثقافي التي حاولت أن تفسر لماذا ثقافات أو عناصر ثقافية بعينها تنتشر وتذيع ربما على حساب ثقافات أو عناصر ثقافية أخرى والتي يكون مآلها الاندثار، وتشتمل العناصر الثقافية على الهيكل الاجتماعي والتقاليد والدين والطقوس والفن والمعايير والأخلاقيات والايديولوجيات والأفكار والابتكارات والمعارف والتقانة...واستلهمت هذه النظرية من فكرة **"شارلس داروين"** عن الانتخاب الطبيعي ذلك لأنها تنظر إلى العناصر الثقافية باعتبارها تماثل الجينات بمعنى إمكانية تكاثرها من جيل إلى جيل وأن تتغير خلال هذه العملية[2] .

ولهذا فإنّ الاطار الفكري الحاكم لنظرية الانتخاب الثقافي يتحدى علم الاجتماع التقليدي بفضل ما يتحلى به من قدرة فائقة على تفسير مثل هذه العوامل اللاعقلانية في التطور الاجتماعي، ولا ريب في أنّ ظواهر مثل الدين والايديولوجيا والسياسة والأخلاق ومعايير السلوك لها دور أساسي في أي ثقافة من الثقافات، لذلك تستحيل علينا دراسة التغير الثقافي بدون دراسة التغيرات التي تطرأ على قواعد السلوك هذه وعلى فلسفات الحياة، إننا لا نستطيع وصف عقيدة أو أيديولوجية ما تأسيسا على مصطلحاتها هي

---

[1] جيرار لكلرك، ***الأنثروبولوجيا والاستعمار، مرجع سبق ذكره***، ص.152

[2] أجنر فوج، ***الانتخاب الثقافي***، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة ، 2005، العدد609 إشراف جابر عصفور، ص.11

وحدها دون أن تفقد الموضـــوعية العلمية ومن ثمّ يتعين الحفاظ على مســـافة علمية زاوية نظر خارجية حتى يتسنى لنا دراسة أسباب تطور منظومة عقيدية وفق اتجاه بذاته[1].

وهنا تحديدا تتجلى نقطة الالتقاء بين الطرح التطوري وبروز الطرح الانتشاري لاحقا، خاصة وأنّ عالم الاجتماع الفرنســي "**جابرييل تارد**": يرى أنّ التقدم ليس حتميا ونلحظ أنّ التقليد هو الكلمة المفتاح في نظريته، إذ يرى أنّ الابتكارات تنتشــر من شــعب إلى آخر عبر التقليد[2]، وبالتالي بروز فكرة الانتشــار التي لا تقصــي فكرة التطور بقدر ما تعززها بمنح أهمية للعوامل الخارجية أيضــا، ولعلّ ما أشــار إليه "**جابرييل تارد**" من خلال تمييزه بين نوعين من الابتكارات: **البديلة:** والتي تعني الأفكار والأعراف التي لا يمكن أن تنتشــر دون أن تحل بديلا عن فكرة أو عُرْفٍ آخر، وكذا الابتكارات **التراكمية**[3]، هي فكرة تعزز منطق الانتشار والتطوّر في نفس الوقت.

- **استنتاج:**

على الرغم من الانتقادات التي وُجّهت إلى النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا، فإنها ســاهمت في تشــكيل الفكر الأنثروبولوجي الحديث وأثّرت في العديد من الاتجاهات البحثية اللاحقة. كما أنّ بعض مبادئها لا تزال تُســتخدم في دراســة التطور الثقافي للمجتمعات، خاصــة عند تحليل التغيرات التكنولوجية والاقتصادية عبر الزمن. ومع ذلك، فإنّ الدراسات الحديثة تميل إلى استخدام مناهج أكثر شمولًا، تأخذ في الاعتبار العوامل التاريخية والبيئية والخارجية أيضا، بدلًا من افتراض وجود مسار تطوري واحد لجميع المجتمعات البشرية بشكل خطي ذاتي ومحدود.

وهذا ما تظهره **المدرســة الانتشــارية** من خلال اتجاهاتها النظرية وأهم الأفكار والنظريات التي اقترحها روادها، إذ يعتبر "**إدوارد برنت تايلور**" من بين الأنثروبولوجيين الذين جمعوا في طرحهم بين النظرية التطورية والانتشارية في نفس الوقت:

2. المدرسة الانتشارية (Diffusionism):

1.2. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها:

نشأت المدرسة الانتشارية في الأنثروبولوجيا خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كرد فعل على النظريات التطورية التي افترضت أنّ الثقافات البشرية تتطور وفق مسار خطي موحّد.

يرى دعاة الانتشارية أنّ الابتكارات الثقافية مثل الأدوات، المؤسسات، والمعتقدات نادرًا ما تُخترع بشكل مســتقل في مجتمعات مختلفة، بل تنتشــر من بؤر ثقافية أســاســية إلى مناطق أخرى عبر التفاعل بين الشعوب.

---

[1] أجنر فوج ، *مرجع سبق ذكره* ، ص.12.

[2] *المرجع نفسه* ، ص.40.

[3] *المرجع نفسه* ، ص.40.

وبالتالي يفترض التيار الانتشاري أنّ الثقافات تنتقل وتنتشر عبر التفاعل بين الشعوب المختلفة، ويرى علماء مثل **فريدريك وفرانز بواس** أنّ **التبادل الثقافي** كان العامل الرئيسي في تشكيل الأنماط الثقافية[1].

لهذا ارتبطت النظرية الانتشارية بثلاث مدارس رئيسية، وهي **المدرسة الألمانية، والمدرسة البريطانية، والمدرسة الأمريكية**، حيث طورت كل منها مقاربات مختلفة لتحليل انتقال العناصر الثقافية بين المجتمعات.

وترى النظرية الانتشارية أنّ عملية الانتشار الثقافي هي الآلية الأساسية لتغير الثقافات وتطورها. وبحسب أنصارها، فإنّ الثقافات لا تتطور بمعزل عن بعضها البعض، وإنما من خلال **الاقتراض الثقافي أو الاستعارة الثقافية** والتفاعل عبر الحدود الجغرافية والاجتماعية.

ومن هنا برز الاتجاه الانتشاري من خلال انتقاداتهم، التي كانت تقوم على واقعة بديهية مفادها أنّ الثقافة كثيرا ما تكون مستعارة فلا تظهر بالطريقة ذاتها في المجتمعات المختلفة عبر عملية من عمليات **التولّد الذاتي** التي يمكن عزوها إلى طاقات مجتمعية مشتركة وإلى الظاهرات المشتركة في الطبيعة البشرية إننا نعرف مثلا تاريخ اختراع من الاختراعات في مجال التكنولوجيا أو الفن أو الفكر أو التقاليد، فنكاد نلاحظ دائما أنّ الاختراع الواحد لم يولد بصورة مستقلة لدى شعب من الشعوب وفي أمكنة وأزمنة مختلفة، بل هو من فعل شعب واحد في مكان وزمان محدّد من تاريخ هذا الشعب، ثمّ انتشر انتشارا كليا أو جزئيا انطلاقا من الشعب الذي اخترعه وصولا إلى الشعوب الأخرى[2].

وعليه، تُركز النظرية الانتشارية على كيفية انتقال وانتشار العناصر الثقافية من مجتمع إلى آخر عبر الزمن، بدلاً من نشوئها بشكل مستقل في كل مجتمع كما افترضت النظريات التطورية الكلاسيكية.

فالانتشار وفقا للطرح الأنثروبولوجي هو "انتقال خاصيات النظم الثقافية من مجتمع إلى آخر أو من منطقة إلى أخرى عن طريق عملية الاتصال والاحتكاك بين الشعوب، سواء عبر التجارة أو الحروب والاحتلال أو وسائل الاتصال المختلفة"[3].

وينقسم الانتشار الثقافي إلى أنواع مختلفة، منها:

- ✓ **الانتشار المباشر**: انتقال عناصر الثقافة عبر التفاعل المباشر بين الشعوب.
- ✓ **الانتشار غير المباشر**: انتقال العناصر الثقافية من خلال وسطاء أو مناطق أخرى.
- ✓ **الانتشار المحفَّز**: عندما تؤدي معرفة عنصر ثقافي في مجتمع ما إلى تطوير عنصر مشابه له بناءً على تأثيره غير المباشر.

لهذا نجد الانتشاريون يميزون بين نوعين من الانتشار على أساس المعيار السياقي أو الجغرافي،وهما[4]:

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.58.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.58.

[3] عامر مصباح، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص: 126-127.

[4] ***المرجع نفسه***، ص.58-59.

- ✓ **الانتشار الداخلي**: التراث أو الإرث الثقافي.
- ✓ **الانتشـار الخارجي**: الاسـتعارات الثقافية وتعتمد على الاختراع والاكتشـاف، الهجرة، الاسـتعمار، الثورة ووسائل الاعلام...

وعليه، يعتمد المنهج الانتشاري على دراسة أوجه التشابه الثقافي بين المجتمعات المختلفة وتحليل أصول هذه التشابهات، ومن أبرز المبادئ التي تقوم عليها النظرية الانتشارية التالي:

- ✓ **المركزية الثقافية**: أي أنّ بعض المناطق تُعدّ مراكز أساسية للابتكارات، وتنتشر منها إلى المجتمعات الأخرى.
- ✓ **الاقتراض الثقافي أو الاستعارة الثقافية**: يحدث التطور الثقافي من خلال انتقال السمات الثقافية من مجموعة إلى أخرى وليس من خلال عمليات تطورية مستقلة.
- ✓ **حدود الانتشار**: العوامل الجغرافية، والاجتماعية، والسياسية قد تعيق أو تعزز عملية الانتشار الثقافي.

ووفقا لهذه المبادئ تشمل النظرية الانتشارية عدّة مفاهيم نظرية محورية مثل:

- ✓ **حلقات الانتشار الثقافي**: وهي تُمثّل مدى انتشار عنصر ثقافي معين من بؤرته الأصلية.
- ✓ **المناطق الثقافية**: تقسيم العالم إلى مناطق ذات أنماط ثقافية متشابهة بسبب عمليات الانتشار.
- ✓ **التحليل المقارن**: مقارنة المجتمعات المختلفة لتحديد العلاقات الثقافية القائمة على التبادل والانتشار.

وبالتالي يمكننا القول أنّ الفارق بين التطورية والانتشارية في الإطار الفكري وذلك أنّ الانتشار يركز على البُعد المكاني للتكاثر بمعنى الانتشـار الجغرافي للظاهرة، هذا بينما تركز النزعة التطورية على البُعد الزمني للتكاثر[1].

وعليه يمكن القول بأنّ المدرسة الانتشارية "قد زعزعت إلى جانب الاهتمام الوصفي الذي قام به بواس -إن لم يكن إشـكالية المدرسـة التطورية فعلى الأقل طريقتها- لقد تركت على الأقل الفهم الخطي للتاريخ، ومن جهة ثانية جعلت نظرية التاريخ لاحقة لتحليل التواريخ الجزئية لكل مجتمع باعتباره كلا مستقلا: حين نوضح تاريخ حضارة واحدة ونفهم مؤثرات المحيط والشروط النفسية التي تنعكس فيها نكون قد خطونا خطوة نحو الأمام ، كذلك يمكننا أن نبحث في الأسـباب المؤثرة أثناء تكونه أو إبان تطور تلك الحضـارات وهكذا وبفهمنا لمقاطع النمو يمكننا اكتشاف قوانين عامة . والطريقة هذه أكثر ضمانا من الطريقة المقارنة (التطورية)، والتي غالبا ما تمارس، فبدل وضـع فرضـية تتناول نمطا للتطور، يقدّم التاريخ الفعلي قاعدة الاستنتاجات"[2].

---

[1] أجنر فوج، ***مرجع سبق ذكره***، ص.40.

[2] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.65.

2.2. من أهم رواد النظرية الانتشارية:

تباينت مقاربات العلماء المؤيدين للنظرية الانتشـــارية، حيث أســـس كل منهم إطارًا فكريًا خاصًـــا لفهم كيفية انتقال العناصر الثقافية بين المجتمعات، واجمالا هناك ثلاثة مدارس في الاتجاه الانتشاري وهي:

أ. المدرسة الألمانية النمساوية: الانتشار الدائري:

المدرسة الألمانية النمساوية تقول بوجود 7 إلى 8 نماذج ثقافية أصيلة في العالم ثمّ انتشرت سواء بشكل جزئي أو كلي[1].

وتُعرف المدرســـة الألمانية أيضًـــا باســـم نظرية "المناطق الثقافية"، وهي تفترض أنّ الثقافة تنتشـــر عبر حلقات متداخلة، تبدأ من مراكز حضارية قديمة، ثمّ تتلاشى تدريجيًا كلما ابتعدت عن نقطة الأصل. كان لهذه المدرســـة تأثيرا بارزا على الدراســـات المقارنة في الأنثروبولوجيا. وعليه قامت على فكرة أنّ الثقافات تنتشر من مراكز حضارية رئيسية عبر "حلقات ثقافية"، ومن أبرز روادها:

✓ **فريدريش راتزل**(Friedrich Ratzel):

كان **راتزل** جغرافيًا قبل أن يكون أنثروبولوجيًا، واهتم بدراســـة العلاقة بين الثقافة والبيئة، ففي كتابه *Anthropogeographie* (1882-1891)، طرح مفهوم التفاعل بين الثقافة والبيئة، مما مهّد لفكرة الانتشار الثقافي، ورأى أنّ الثقافات تتأثر بمحيطها الطبيعي، لكنها لا تتطور بشـــكل مســـتقل، بل تتغير نتيجة الاتصال والانتشار من مركز إلى آخر، حيث اقترح أنّ الهجرات البشرية تلعب دورًا أساسيًا في نقل الأفكار والتقاليد من مجتمع إلى آخر[2].

✓ **ليو فروبنيوس**(Leo Frobenius) :

ركّز في كتابه *The Childhood of Man* (1909) على كيفية انتقال العناصـــر الثقافية عبر القارات وافترض أنّ لكل ثقافة "روحًا" أو "شخصية ثقافية(Paideuma) "، وهي ما يميزها عن غيرها. مركزا في ذلك على دراســـة الحضـــارات الإفريقية، ورفض الفكرة التي كانت ســـائدة في أوروبا بأنّ الثقافات الإفريقية أقل تطورًا، كما كان داعما لفكرة أنّ العناصر الثقافية تنتشر من خلال الاتصالات التجارية والحروب، مؤكدًا أنّ الثقافة الإفريقية تأثرت بالحضارات القديمة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

✓ **فريتز غرابنر**(1877-1934) (Fritz Graebner) :

كان من أوائل من صاغوا مفهوم "الحلقات الثقافية"، التي تقوم على افتراض أنّ كل حضارة رئيسية تبدأ في نقطة معينة ثم تنتشـــر على شـــكل حلقات متداخلة، ورأى أنّ دراســـة أوجه التشـــابه بين الثقافات يمكن أن تســـاعد في تتبع أصـــلها الجغرافي وزمن انتشـــارها، مســـهما بذلك في تطوير الأســـاليب المنهجية لدراســـة انتشـــار العناصـــر الثقافية في مختلف المجتمعات، إذ نجد من أبرز أعماله *Methode der Ethnologie* (1911).

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.58-59

[2] Cf :Smith, Woodruff D, ***"Friedrich Ratzel and the Origins of Lebensraum***." *German Studies Review*, 3(1), 1980 , P:51–68. Retrieved from https://www.academia.edu/8789771/Friedrich_Ratzel_and_the_Origins_of_Lebensraum

ب. المدرسة البريطانية:

المدرسة الإنجليزية تقول بأنّ هناك نقطة واحدة محورية لانتشار الثقافة هي الحضارة المصرية التي عمّت العالم إلى أن حلّت محلها الحضارة اليونانية[1].

وتبنى أنصار هذه المدرسة وجهة نظر أكثر تطرفًا، حيث زعموا أنّ معظم الثقافات الرئيسية في العالم تأثرت بالحضارة المصرية القديمة، من رواد هذه المدرسة:

✓ **جيمس جورج فريزر**(1854-1941) (James George Frazer)

من أبرز أعماله(1890) *The Golden Bough* -كما أشرنا سابقا- بحيث درس من خلاله الأساطير والطقوس الدينية في المجتمعات التقليدية، ووجد أوجه تشابه كبيرة بينها، كما اعتقد أنّ هذه الطقوس لم تنشأ بشكل مستقل، بل انتشرت عبر العالم من مركز واحد. وأثّر كتابه بشكل كبير على الدراسات المقارنة في الأنثروبولوجيا وعلم الأديان.

✓ **جرافتون إليوت سميث**(1871-1937) (Grafton Elliot Smith)

كان من أبرز دعاة "النظرية الأحادية للانتشار(Hyperdiffusionism) "، التي تفترض أنّ مصر القديمة كانت المصدر الرئيسي للحضارة العالمية، ورأى أنّ الزراعة، الفخار، والتحنيط انتقلت من مصر إلى باقي العالم عبر الهجرات البشرية والتواصل الثقافي، لكن أفكاره تعرّضت لانتقادات واسعة، بسبب إهماله إمكانية الابتكار المستقل في المجتمعات الأخرى. وكان من أبرز أعماله *The Migration of Early Culture* (1915).

✓ **ويليام بيري**(1887-1949) (William Perry)

دعم فرضية أنّ مصر القديمة كانت المركز الثقافي الأول للعالم، وأنّ الفنون، الهندسة، والدين انتشرت منها إلى آسيا وأوروبا وأمريكا الجنوبية، وكان من أنصار نظرية أنّ البحّارة الفينيقيين لعبوا دورًا رئيسيًا في نقل الثقافة المصرية إلى مناطق بعيدة، من أبرز أعماله (1923) *Children of the Sun* ، وبالتالي جعل هو وإليوث وسميث من مصر المركز الوحيد الذي انتشرت منه المدنية باتجاه المراكز العالمية الأخرى[2].

ح. المدرسة الأمريكية:

المدرسة الأمريكية تطرح تساؤلات حول الآثار المترتبة على عملية الانتشار الثقافي في المجتمعات وهو أقرب للتحليل الاجتماعي[3]، وهي قائمة على المبدأ القائل بأنه إذا دققنا النظر في المسألة وجدنا أنه لم يكن ثمة إلّا عدد محدود من المراكز الهامة التي عملت على تنمية الثقافة ونشرها وإنّ المواصفات المنشورة قد تخضع خلال عملية الاستعارة والاستيعاب إلى تغيرات وتبدلات كثيرة، وبما أنّ لدينا من المعلومات التاريخية ما يمكننا من إقامة البرهان على أنّ الاختراعات قد انتشرت بين البشر على هذا النحو، فإنّ من

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.58-59

[2] جيرار لكلرك، ***الأنثروبولوجيا والاستعمار***، ***مرجع سبق ذكره***، ص.64

[3] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه***، ص.58-59

حقنا أن نفترض في كل مرّة نجد فيها أشياء مادية أو مفاهيم أو عادات وتقاليد متشابهة لدى شعوب بدائية تعيش في أمكنة متفرقة من العالم[1].

ففي الدراسة التي قام بها **"فرانزبواس"** على بعض الشعوب شمال المحيط الهادي وجد أنّ هناك اتصالات حدثت في الماضي بين سكان شرقي سيبيريا وهنود كولومبيا البريطانية آنذاك وذلك من خلال الأدلة المجمعة حول وجود عدد من الأساطير عند قبائل الاسكيمو التي انتقلت بين المنطقتين، وأصبحت هذه الأساطير المنتشرة جراء الهجرة وانتقال هذه القبائل، جزءا من المضمون الثقافي السائد"[2].

ويرى **"بواس"** أنّ وجود هذه الثقافة هو نتيجة لعملية الانتشار من منطقة إلى أخرى، وأنّ هذه العملية تتم عبر الانتشار والتكامل، الانتشار يعني الانتقال أو عملية نقل النمط الثقافي من منطقة إلى أخرى والتكامل يعني تكامل النمط الجديد مع الثقافة المحلية القديمة أو الأصلية"[3].

إنّ هذه الأمور قد انتشرت بنفس الطريقة انطلاقا من عدد محدود من مراكز التطوّر الثقافي وذلك بالرغم من عدم توفر أي دليل فعلي على هذا الانتشار، اللهم سوى ذلك الدليل الذي يكمن في تشابه الأمور المذكورة وتوزعها جغرافيا، خاصة إذا كانت المواصفات المشتركة معقدة ووجدت مجتمعة[4].

لا شك في مدى فعالية هذه الحجة ضد النظريات التكوينية التي كان ينادي بها أنّاسو القرن الماضي كما يشير "إيفنز بريتشارد"، فإذا صير إلى البرهان على أنّ مؤسسات شعب من الشعوب تتواجد بفعل الصدفة التاريخية لدى شعب آخر، أصبح من الصعب اعتبارها بمثابة الامتداد الطبيعي والحتمي لمؤسسات سابقة وتقديمها بالتالي كدليل على صحة قانون التطور[5].

ومن هنا نجد أنّ المدرسة الأمريكية قد تبنّت موقفًا أكثر اعتدالًا، حيث ركّزت على دراسة الانتشار داخل مناطق محددة بدلًا من افتراض مركز واحد لكل الثقافات، ومن روادها:

✓ **فرانز بواس** (1858-1942):

يُعتبر **فرانزبواس** أحد أبرز علماء الأنثروبولوجيا في القرن العشرين، حيث لعب دورًا محوريًا في تأسيس الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة، من خلال رفضه للنظريات التطورية الأحادية، قدّم **"بواس"** مقاربات جديدة لفهم الثقافات عبر التركيز على التاريخ الثقافي والنسبية الثقافية. كما أثّر بشكل خاص في تطور النظرية الانتشارية، وساهم في مجالات أخرى مثل الأنثروبولوجيا اللغوية، والمنهج الإثنوغرافي، ونقد الداروينية الاجتماعية.

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.58-59

[2] عامر مصباح، **مرجع سبق ذكره**، ص.131.

[3] محمد حسن الغامري، ***مرجع سبق ذكره***، ص. 34.

[4] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه*** ،ص.59

[5] ***المرجع نفسه***، ص.58-59

فهو عالم أنثروبولوجيا أمريكي رفض الأساس النظري للنزعة التطورية وعارض التعميمات الكبرى وأكّد على أنه بالإمكان تفسير أوجه التماثل بين ثقافتين في ضوء الانتشار أو التطور المتوازي وأنّ من المستحيل التمييز بين هذين الاحتمالين دون بحث وتمحيص دقيقين[1].

مؤكدا على أنّ" كل من له حس بالأشياء يدرك بسهولة أنّ مجرى التطور الاجتماعي ليس موحدا، بل إنّ العروق المختلفة أو الجماعات المختلفة من العرق نفسه قد تمايزت فعلا وباتجاهات مختلفة ومتعددة"[2].

ومن هنا عُرف بواس بأنه "أبو الأنثروبولوجيا الأمريكية"، حيث طوّر المقاربة التاريخية والثقافية لدراسة المجتمعات، وكان أول من دعا إلى فصل الأنثروبولوجيا عن الفكر العنصري والاستعماري، وركز على دراسة الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية بطرق علمية دقيقة.

كما رفض نظرية التطور الأحادي التي كانت ترى أنّ جميع المجتمعات تمر بنفس المراحل التطورية (بدائية- زراعية - صناعية)، بدلاً من ذلك، اقترح أنّ كل ثقافة لها مسارها الخاص في التطور، ويجب دراستها من خلال سياقها التاريخي الفريد، مؤكدا بذلك أنّ العناصر الثقافية لا تظهر دائمًا بشكل مستقل، بل قد تنتقل بين المجتمعات من خلال التفاعل والاتصال، لذلك نجده يرفض فكرة أنّ الشعوب "البدائية" أقل تطورًا من الشعوب "المتحضرة"، وأوضح أنّ العديد من الابتكارات الثقافية قد انتشرت من مجتمع إلى آخر بدلاً من أن تكون نتيجة تطور داخلي فقط.

وبالتالي كان **بواس** متأثرا بالتاريخانية الألمانية ومقتنعا بأنّ كل ثقافة لها طابعها الخاص ، فما ينبغي البحث فيه حسب رأيه ليس ما بين التطورات الثقافية العامة من تواز بل خصوصية كل ثقافة، وهو يرى أنه ينبغي تجنب الاختزال الإحيائي والتوازي الثقافي ومعايير التقدّم الكونية، ويرى أنه ينبغي تجنب كل شكل من أشكال الحتمية الثقافية والإفراط في قيمة المقارنات التعميمية، وبفضل هذه التأملات في **النسبية الثقافية** التي صارت الثقافة تفهم في إطارها بوصفها جملة منغلقة لتمامها الذاتي أو لاكتفائها بذاتها من أشكال الحياة الخاصة وغير القابلة للاستبدال نشأ الآن موقف معارض للتطورية التي أدت إلى ذلك الحين دورا مهما في الولايات المتحدة[3].

ورغم اعتراف **"بواس"** بدور الانتشار في تطور الثقافات، إلّا أنه لم يكن متطرفًا في اعتماده، على عكس بعض الاتجاهات الأوروبية مثل الانتشارية الألمانية والبريطانية، التي اعتبرت أنّ جميع الثقافات الرئيسية نشأت من عدد قليل من "المراكز الثقافية" الكبرى. لذلك رأى أنّ هناك عوامل محلية تلعب دورًا مهمًا في تطور أي ثقافة، وليس فقط التأثيرات الخارجية .

---

[1] أجنر فوج، ***مرجع سبق ذكره***، ص.41

[2] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره***، ص.66

[3] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***،ص.ص:127-128

كما رفض فكرة "تفوّق" بعض الثقافات على الأخرى، وأكّد أنّ كل ثقافة يجب دراستها وفقًا لسياقها الخاص وليس بناءً على معايير غربية. وأدى هذا المفهوم إلى إحداث ثورة في الأنثروبولوجيا، حيث أصبح العلماء أكثر اهتمامًا بفهم وجهات نظر الشعوب المختلفة بدلًا من إصدار الأحكام عليها .

كان بواس من أوائل العلماء الذين ركزوا على البحث الميداني المباشر، حيث عمل مع الشعوب الأصلية مثل الإنويت (الإسكيمو) والقبائل الأمريكية الأصلية، وشجّع طلابه، مثل **مارغريت ميد وروث بنديكت وألفريد كروبر**، على اتباع مناهج إثنوغرافية قائمة على الملاحظة والمشاركة الميدانية.

في عصره، كانت الأفكار العنصرية منتشرة في الأوساط الأكاديمية، حيث كان يُعتقد أنّ هناك فروقات بيولوجية بين الأعراق تؤثر على الذكاء والسلوك، ليثبت بواس أنّ الاختلافات الثقافية ليست ناتجة عن العِرْق أو الجينات، بل عن البيئة والتنشئة الاجتماعية، وأجرى دراسات على مهاجرين إلى الولايات المتحدة، وبيّن أنّ السمات الجسدية مثل شكل الجمجمة يمكن أن تتغير عبر الأجيال بسبب البيئة، مما أضعف حجج العلماء العنصريين في ذلك الوقت .

كما درس أيضا العلاقة بين اللغة والثقافة، ورفض فكرة أنّ بعض اللغات "أرقى" من غيرها، إذ ساعد في تطوير مفهوم **النسبية اللغوية**، الذي أثّر لاحقًا في أعمال **إدوارد سابير وبنجامين وورف** حول تأثير اللغة على التفكير .

وبالتالي يمكننا القول بأنّ **فرانزبواس** لم يكن منتمياً بشكل كامل إلى الاتجاه الانتشاري، ولكنه كان له تأثير فيه، خاصة من خلال نقده للنظرية التطورية الأحادية واهتمامه بالتاريخ الثقافي وانتقال العناصر الثقافية بين المجتمعات. ومع ذلك، لم يكن أبدا من مؤيدي المدرسة الانتشارية المتشددة، مثل التي ظهرت في ألمانيا أو بريطانيا، والتي ركزت على أنّ معظم العناصر الثقافية انتشرت من مراكز محددة بدلاً من أن تكون وليدة التطور المحلي.

مشيرا وفقا لطرحه إلى أنه "يجب على الأنثروبولوجيا أن تكون -كما يعتقد- نظرية لا مجرد تجميع لوقائع خام، نعلم مسبقا أنها غير موجودة، إنها نظرية تحليلية، لا تجميع تأملي. لقد تمّ انتزاع الأنثروبولوجيا من التاريخ لتدخل مشروع العلم الاجتماعي الجديد، فالتاريخ هو الوصف التطوري لأحداث يمكن أن تقع (إنها "تحصل" هذا كل شيء)، أمّا علم الاجتماع فهو التحليل للأنظمة الاجتماعية المتزامنة، حيث للعناصر كافة معنى باعتبارها مترابطة فيما بينها. إنّ طريقة المقارنة الجديدة هذه لا تستند على عمق تاريخي واحد بل على اختيار عينة أنماط اجتماعية يجب تحليلها"[1].

أمّا فيما يتعلّق بمدرسة **الثقافة والشخصية**، فقد كان **بواس** الأب الروحي لها، حيث كان له تأثير كبير على مؤسسيها، مثل **روث بنديكت ومارغريت ميد وكروبر ورالف لينتون** وغيرهم، فقد ركّزت هذه المدرسة على العلاقة بين الثقافة وتشكيل الشخصية الإنسانية، وهو توجه مستمد من أفكار بواس حول **النسبية**

[1] جيرار لكلرك، *مرجع سبق ذكره*، ص.67

الثقافية وأهمية البيئة الاجتماعية في تشـكيل الأفراد -كما سـنرى لاحقا بالتفصـيل في مدرسـة الثقافة والشخصية-

إذن، يمكن القول أنّ **بواس لم يكن انتشـارياً خالصـاً، لكنه أثّر في النظرية الانتشـارية عبر دراسـاته حول التاريخ الثقافي**، أمَّا مدرسـة **الثقافة والشـخصـية**، فقد وُلدت من رحم أفكاره، لكنه لم يكن جزءًا منها بشكل مباشر.

✓ **كلارك ويزلر**(1870-1947) (Clark Wissler) :

من أبرز أعماله،(1917) *The American Indian* ، والذي قدّم من خلاله مفهوم **"المناطق الثقافية"**، وهو تقسـيم أمريكا الشـمالية إلى مناطق ذات سـمات ثقافية متشـابهة، متأثرة بالانتشـار الثقافي، وأكّد أنّ الانتشار ليس دائمًا عملية خطية، بل يتأثر بالبيئة والممارسات المحلية.

✓ **ألفريد كروبر**(1876-1960) (Alfred Kroeber) :

من أبرز أعماله(1939) *Cultural and Natural Areas of Native North America* الذي يشـير من خلاله إلى أنّ الثقافة تنتقل عبر أنماط تفاعل معقدة، وليس بالضرورة من مركز واحد، وكان من أوائل من ركّزوا على تأثير العوامل البيئية في تشكيل أنماط الانتشار الثقافي، بحيث ساعدت أبحاثه في تطوير مفهوم "السمات الثقافية(Cultural Traits) "، وهو تصنيف للخصائص المشتركة بين المجتمعات المختلفة.

3.2. الانتقادات الموجهة للنظرية الانتشارية:

قدّمت النظرية الانتشارية إطارًا هامًا لفهم التفاعل الثقافي، لكنها تعرّضت لانتقادات، خاصة من دعاة **النظرية الوظيفية والبنيوية** الذين رأوا أنّ الانتشار وحده لا يفسّر تعقيد المجتمعات البشرية، خاصة وأنّ الطرح الانتشاري قد ركز على العامل الخارجي وأهمل عنصر الإرادة البشرية التلقائية، كما أنّ الانتشاريين لم يفسروا كيف ولماذا تنتشر سمات ثقافية دون أخرى.

لذا نجد الوظيفيون يرفضـون الرؤية الانتشـارية الأحادية التي تفسـر ظهور الظواهر الثقافية عبر الاتصـال الخارجي فقط، ويؤكدون على أهمية دراسـة **الوظائف الاجتماعية والسـياقات الداخلية** التي تُعطي كل ظاهرة وظيفتها في المجتمع[1].

كما يُهاجم البنيويون الانتشـارية لتبسـيطها العمليات الثقافية، مؤكدين أنّ **البُنَى العقلية والعمليات الرمزية** تلعب دورًا أساسيًا في تشكيل الثقافة، وهو ما يفسر أوجه التشابه بين الشعوب دون اللجوء دائمًا إلى الاتصال المباشر[2] .

وبالتالي إذا كانت النظرية التطورية قد أهملت العامل الخارجي في تفسـيراتها فإنّ النظرية الانتشـارية قد قصّرت في منح أهمية للعوامل الداخلية على حساب التركيز في العوامل الخارجية أكثر.

---

[1] Malinowski, B. , ***Magic, Science, and Religion***, London: Allen & Unwin,1948, p.78

[2] Lévi-Strauss, C. , ***Structural Anthropology***. New York: Basic Books,1963, P .P :52-68

- **استنتاج:**

رغم هذه التحديات التي قابلت الطرح الانتشـــاري وبينت قصـــوره في بعض جوانبه، لا تزال مفاهيم الانتشار الثقافي تلعب دورًا أساسيًا في الأنثروبولوجيا الحديثة، خاصة في دراسات العولمة والتبادل الثقافي.

وعليه ورغم الانتقادات التي وُجهت إليها، إلّا أنّ مساهمات روادها كانت أساسية في تطوير فهمنا لآليات انتقال الثقافة. وبينما أسرف بعضهم في تبني فرضيات غير مدعّمة، مثل اعتبار مصر القديمة المصدر الوحيد للحضارة، فإنّ آخرين خصوصًا في المدرسة الأمريكية قدموا دراسات دقيقة حول أنماط الانتشار الثقافي الإقليمي، مما مهد لتطور مناهج بحث أكثر توازنًا في الأنثروبولوجيا الحديثة.

كما كان للنظرية الانتشـــارية تأثيرا واســـعا في أمريكا أمّا في إنجلترا فلم يطل أمد هذا التأثير ربما لأنّ **"إليوت ســميث" و"بري" و" فريزر"** قد اشــتطوا في اســتعمالهم لها وربما لأنّ عمليات إعادة التركيب التي اعتمدتها ســرعان ما تبينت أنها لا تقل من حيث نزعتها التخمينية وعدم إمكانية التحقق منها من إعادة التركيب التكوينية التي كانت الانتشارية تدّعي انتقادها[1].

وفي خضـــم هذا الزخم الإنتاجي المعرفي التنظيري تظهر طروحات أخرى تتبنى زاوية معالجة مختلفة من ناحية المنظور والمنهجية، منها الاتجاه الوظيفي والوظيفي البنائي وكذا البنيوية ومن ثمّ مدرســـة الثقافة والشخصية أو ما يعرف بالاتجاه الأنثروبولوجي النفسي.

وفيما يلي عرض ذلك:

3. المدرسة الوظيفية والبنائية (Functionalism and Structuralism):

1.3. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها:

تُعَدُّ المدرســـة البنائية الوظيفية من أهم المدارس التي ســـيطرت على الأنثروبولوجيا في بداية القرن العشرين"[2] ، إذ سعت إلى فهم المجتمعات البشرية من خلال دراسة البنى الاجتماعية والوظائف التي تؤديها مؤسساتها وعناصرها المختلفة، بهدف تفسير كيفية تحقيق التوازن الاجتماعي واستمراريته.

تعتمد هذه المدرســة على تأثيرات الفكر الوظيفي في علم الاجتماع، ولا ســيما إســهامات إميل دوركهايم، وأوغست كونت وهربرت سبنسر...

يشــير التيار الوظيفي إلى أنّ كل جزء من المجتمع يعمل بوظائف معينة للحفاظ على اســتقرار النظام الاجتماعي، ومن أبرز المفكرين في هذا التيار **برونيســلاف مالينوفســكي وراد كليف براون**...، بحيث يرى **مالينوفسكي**" أنّ "التطورية صارت موضة، ويبقى أنّ عباراتها ليست ضرورية وحسب بل لابد منها للعامل الميداني وللمنظّر أيضا"[3] ، غير أنه قدم طرحا مختلفا ركز على فكرة **الحاجة والوظيفة**، في نفس التصـور الذي طرحه **"سـبنسـر"** في كون رؤيته للمجتمع في صورة كائن عضوي حي، حيث شبّه المؤسسات المختلفة بأعضـاء الجسـم التي يؤدي وظائف مماثلة، مثال ذلك أنه رأى الحكومة تُمَاثِلُ المخ والطرق تشـبه العروق

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.58-59

[2] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره***، ص.57

[3] ***المرجع نفسه***، ص.68

والشـرايين وشـاعت هذه الصـور المجازية بين العلماء فيما بعد وأفضـت إلى ظهور تيار فكري عُرِفَ باسـم الوظيفية، وتُعْنَى هذه المدرسة النظرية بوظيفة المؤسسات المختلفة داخل المجتمع[1].

لتهتم وفقها المدرســة البنائية الوظيفية بدراســة المجتمعات على أنها أنظمة متكاملة تتكوّن من عدّة عناصر مترابطة تؤدي وظائف محددة تُسهم في الحفاظ على النظام الاجتماعي واستمراريته.

وترتكز هذه المقاربة على عدّة فرضيات أساسية منها:

✓ **التكامل الاجتماعي:**

حيث يُنظر إلى كل مؤسسة اجتماعية، سواء كانت دينية أو اقتصادية أو سياسية، على أنها تلعب دورًا محددًا في تأمين الاستقرار الاجتماعي، فمثلاً يُعتبر الدين عاملاً موحدًا يساهم في تعزيز القيم المشتركة والهوية الجمعية كما أشار إلى ذلك دوركايم (Durkheim, 1912) .

✓ **الوظائف الظاهرة والباطنة:**

إذ لا تقتصــر الدراســة على الوظائف الظاهرة التي تلبي احتياجات اجتماعية مباشــرة، بل تمتد إلى الوظائف الباطنة التي تنظم العلاقات الرمزية والثقافية بين الأفراد (Radcliffe-Brown, 1952) .

✓ **التركيز على النظام وليس الفرد:**

يتم تحليل المجتمع كوحدة كلية، حيث تُفهم الظواهر الثقافية والاجتماعية في ضــوء البنية الكلية التي تُحقق التكامل بين أجزائها.

إذ يرى **"أوغســت"** أنّ هناك علاقة وظيفية بين الوقائع المجتمعية على اختلاف أنواعها، أي بين تلك التي كان يســميها **"ســان ســيمون"** و**"كونت"** نفســه ب **"ســلســلات"** الوقائع المجتمعية والســياســية والاقتصادية والدينية والأخلاقية، وأنّ كل تغير يطرأ ضمن واحدة من هذه السلسلات يولد تغيرات مقابلة في السلسلات الأخرى[2].

الأنثروبولوجيون الوظيفيون كانوا يعتبرون أنّ الصــراع القائم بين التطوريين والانتشــاريين ما هو إلاّ نزاع محلي داخلي بين النســاســين وأنه من ثمّ لا يعنيهم في شــيء[3]. ورغم ذلك يعتقد كل من **مالينوفســكي ورادكليف براون** بأنّ التطورية تظل تطورية مفتوحة ونافعة مادامت أداة عامة، ثمّ إنّ هذه المدرســة تظل مفتوحة على الأبحاث التجريبية التي تحترم التفاصــيل والفروقات"[4] ، ومع ذلك فقد كانوا يأخذون على كلا هذين التيارين الفكريين أنهما لا يطرحان إلاّ فرضــيات غير محققة ولا قابلة للتحقق منها، وأنهما يفســران الحياة المجتمعية بناءً على الماضي[5].

والحال أنّ هذا الطرح ليس هو المتبنى في دراســة العلوم الطبيعية أي في المجال الذي يعتبره الأنــاســون البريطانيون مجالهم. فلكي نفهم كيف تطير الطائرة أو كيف يعمل الجســم البشــري يجب أن ندرس أولا

---

[1] أجنر فوج، ***مرجع سبق ذكره***، ص.33

[2] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره***،ص.38

[3] ***المرجع نفسه***، ص.59

[4] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره*** ،ص.68

[5] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه*** ،ص.60

قوانين الجســمانيات وليس ثمّة حاجة أبدا إلى معرفة تاريخ الطيران أو الاطلاع على النظريات المتعلقة بالتطوّر الحيوي. كذلك هناك طرق عدّة لدراسة لغة من اللغات: فنحلل النحو أو الصوت أو الدلالة دون أن يكون من الضروري دراسة تاريخ القاموس اللغوي[1].

كما " أنّ افتراض وجود طبيعة إنسانية تقوم بدور الوسيط بين الأنثروبولوجي والبدائي، وتستند على عقل تاريخي موحد وعلى نفي خصائص الحضارات، فرضية مرفوضة من قبل المدرسة الوظيفية لاستنادها على نوع من الاسقاط الاثني وعلى مفهوم ضيق يتعلّق بالإنسان"[2].

لذا إذا كنا بصدد دراسة الشعوب البدائية فالمهمة تقع على عاتق مؤرخ الشعوب البدائية وإذن على عاتق النيّاس ليكتشف -إذا تمكّن- ما هي السبل التي اجتازتها المؤسسات وصولا إلى حالتها الراهنة، أمّا مهمة صاحب العلم أي الأنّاس فهي اكتشاف الوظائف التي تطلع بها هذه المؤسسات داخل الأنظمة المجتمعية التي تنتمي إليها[3].

إنّ المؤرخ لا يستطيع أن يعلمنا مهما كانت مصادر معلوماته إلاّ بتعاقب الأحداث الطارئة التي جعلت مجتمعا ما على ما هو عليه[4]، فليس يسعنا أن نستنتج هذه الأحداث من مبادئ عامة ولا أن نستخلص هذه المبادئ العامة من تلك الأحداث الطارئة، وإذن فأناسو ق19م قد أخطأوا في نقطتين[5]:

- ✓ فقد كانوا يعيدون تركيب التاريخ دون معطيات فعلية تقوم على أنّ المجتمعات أنظمة وأنّ هذه الأنظمة هي أنظمة طبيعية من الممكن ردّها إلى معادلات متحولة، وبالتالي فإنّ تاريخها لا يدخل ضمن نطاق بحثنا حول طبيعتها.
- ✓ يحاولون صياغة قوانين مجتمعية بالاعتماد على منهج لا يمكن بأي حال أن يؤدي إلى الصياغة المنشودة.

والظاهر من خلال التفصيل الذي قدمه لنا "إيفنز بريتشارد" من خلال عرضه للفروقات الابستيمية والمنهجية بين الطرح الانتشاري ذا البعد التاريخي والطرح الوظيفي يجعلنا نقف عند الفكرة أو المبدأ الرئيسي الذي يقوم عليه الاتجاه الوظيفي، خاصة وأنّ الوظيفية تقوم على مفهومين أساسيين هما: مفهوم البنية المجتمعية ومفهوم الوظيفة، فما هي البنية المجتمعية وما هي الوظيفة لدى رواد هذا الاتجاه؟[6]

أ. البنية:

مفهومي "البنية" و "الوظيفة" موجودين عند "مونتيني" الذي كان يتحدّث عن البنيان والصلة في الفصل المتعلق بالقانون والتقاليد بشكل عام: "إنه كبنيان مبني من مختلف الحجارة المتصلة بعضها ببعض، صلة

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره*** ،ص.60.

[2] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.69.

[3] بريتشارد إفنز، ***المرجع نفسه***،ص.60.

[4] ***المرجع نفسه*** ،ص.60.

[5] ***المرجع نفسه*** ،ص.ص:60-61.

[6] ***المرجع نفسه*** ،ص.27.

وثيقة بحيث يستحيل زعزعة واحد منها دون مس الجسم بأسره.." [1] ، ليشير من خلال هذا التعريف إلى العلاقة البينية القوية الموجودة بين العناصر المكونة لهذا البناء أو البنية. كما نجد هذا المفهوم لدى "مونتسكيو" حينما يتحدث عن طبيعة ومبادئ مختلف أنماط المجتمعات، حيث يتكلم عن بنية المجتمع وعن العلاقات القائمة بين مختلف أجزائه[2].

بحيث تتجسد هذه البنية من خلال خاصية الثبات والطبيعة العلائقية البينية بين العناصر والأجزاء المكونة لها، وفي هذه النظرة "يثبت النظام الاجتماعي لمدة زمانية طويلة بفضل تطور التناسق والتعاضد اللذين تتضمنها بنية منتجة لذاتها وهي بنية ينبغي حسب نظرة **رادكليف براون** أن تحقق **ثلاث وظائف**[3] :

- ✓ فعليها أن تعد إلى الحلول التكيفية التي تؤهلها للتكيف مع المحيط الطبيعي أي : أن تحقق إجراءات تستطيع بواسطتها الإبقاء على حياة اجتماعية منظمة وسوية وأن تتضمن آليات ثقافية يمكن للفرد بفضلها أن يحصل على عادات وصفات ذهنية تجعله قادرا على المشاركة في الحياة العامة.
- ✓ ومن ثمّ فلا بد من أن يأتي دور الخضوع للقوانين الاجتماعية في الحياة الاجتماعية

ومن هذه القوانين أو الشروط الضرورية لبقاء الوجود درجة محددة من التناسق بين الأجزاء المقومة للنظام الاجتماعي .... وإلى هذا القانون ... يمكن أن نضيف صنفا ثانيا ... (هو) الحقوق والواجبات التي ينبغي أن تحدد بكيفية تجعل تناقض الحقوق قابلا للعلاج من دون أن يضر بالبنية العامة ... ويوجد قانون اجتماعي آخر ليس هو ضرورة الاستقرار والتجدد والتناسق الاجتماعي فحسب بل هو كذلك ضرورة تواصل الحياة الاجتماعية .

وضد هذا الإلحاح على الطابع الكوني للمبادئ **البنيوية الوظيفية** دعا **إفنز بريتشار** إلى إيلاء عناية أكبر بالبعد التاريخي والثقافي النسبي في البحث الأناسي الاجتماعي عندما بين أنّ صلة الأناسة الاجتماعية بالتاريخ أقوى من صلتها بالعلوم الطبيعية وأنها تبحث في المجتمعات بوصفها نظما خلقية ورمزية وليس بوصفها نظما طبيعية. وهي أقل اهتماما بالمجريات منها بالصيغ التصورية وهي لا تبحث في النماذج والقوانين بل هي تبين تناسق العلاقات بدل العلاقات الضرورية وهي تقدم بالأولى تأويلا لا تفسيرا علميا [4].

مما يحيلنا للحديث عن الفرق الجوهري بين الطرح ذو البعد التاريخي والطرح الذي يركز على البنية والوظيفة بعيدا عن أي تقصي تاريخي، خاصة أنه من الواضح تماما " أننا نجد ثوابتا وعناصر انتظام في الحياة المجتمعية وأنّ على أي مجتمع أن يعمل وفقا لنسق معيّن وإلّا تعذّر على أعضائه أن يعيشوا معا"[5].

لأنّ لكل مجتمع شكلا أو إطارًا، يتيح لنا أن نتحدث عن نظام أو بنية تجري حياة كل فرد ضمنه وبموجبه، وعليه يمكننا اعتبار أنّ استعمال كلمة بُنية بهذا المعنى ينطوي على وجود نوع من التماسك أو

---

[1] بريتشارد إفنز، ***مرجع سبق ذكره*** ،ص.61

[2] ***المرجع نفسه*** ،ص.61

[3] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.131

[4] ***المرجع نفسه***، ص.131

[5] ***المرجع نفسه***، ص.27

ضرب من التسلسل المنطقي في سلوك الأفراد وتصرفاتهم في مجتمع ما، إنّ البنية تنطوي على استمرارية لا تتمتع بها معظم ظاهرات الحياة البشرية، وأفراد المجتمع ليسوا على وعي بكل بنى المجتمع أو أنهم على وعي جزئي، وهنا يأتي دور الأنّاس في الكشف عن هذه البنى، إنّ البنية المجتمعية الكلية أي بنية المجتمع المعين بأسره تتكون من بنى فرعية: نظام القرابة، النظام: الاقتصادي، السياسي، الديني... [1] ،غير أنّ ما يميز هذه البنية هو اعتبارها "الكل المكوّن من مجموعة من الأجزاء المترابطة بينها بشكل يصبح لا معنى للجزء بدون علاقته مع الأجزاء الأخرى، ولا يمكن فهم البنية إلّا من خلال الكل المترابط في عناصره الجوهرية والثابتة التي لا تتأثر بتغيّر الوضعيات والمواقف"[2].

وتقوم كل بنية أو عضو أو جزء منها بوظيفة معينة قد تكون كامنة أو ظاهرة، أساسية أو فرعية. وهنا يظهر المفهوم الرئيسي الثاني في النظرية الوظيفية البنائية وهو مفهوم الوظيفة:

ب. الوظيفة:

تعتبر العلاقة بين البناء والوظيفة علاقة تركيبية معقدة، بحيث تنتظم النشاطات المجتمعية داخل هذه البنى حول بعض المؤسسات كالزواج والعائلة والأسواق والرئاسة، وعندما نتكلم عن وظائف هذه المؤسسات فإننا نعني بذلك الدور الذي تلعبه عملية الحفاظ على البنية[3]. بمعنى أنّ الحفاظ عليها واستمراريتها يكون من خلال الوظائف التي تؤديها. ولعلّ التعريف الذي قدّمه **"راد كليف براون"** يوضح هذه العلاقة بشكل دقيق، في قوله: "إنّ مفهوم الوظيفة في تطبيقه على المجتمعات البشرية مبني على التماثل القائم بين الحياة المجتمعية والحياة العضوية، وظيفة الثقافة تقوم على توحيد الكائنات الفردية داخل بنى مجتمعية متفاوتة الثبات[4]، ويرى أنّ هذه المسلمة لابد من الانطلاق منها في كل دراسة حول الثقافة والمجتمع إذا كانت تتوخى الموضوعية والعلمية[5].

2.3. أهم رواد الاتجاه الوظيفي البنائي:

أ. برونيسلاف مالينوفسكي:

أقام **مالينوفسكي** بين 1914 و 1918 لمدة سنتين في جزيرة **تروبرياند** بشمال غينيا، فطوّر عندئذ منهج الملاحظة بالمشاركة التي يستعملها في البحث الميداني[6]، ورأى من خلال أبحاثه بأنّ النزعة التطورية لا تمثل الآن الاتجاه السائد هذا على الرغم من أنّ فروضها الرئيسية ليست فقط صحيحة بل أنها أيضا ضرورية ولا غنى عنها للباحث الميداني وكذا لدارس النظرية[7].

---

[1] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.28.

[2] عامر مصباح، ***مرجع سبق ذكره***، ص.168.

[3] بريتشارد إفتز، ***مرجع سبق ذكره***، ص.28.

[4] ***المرجع نفسه***، ص.66.

[5] ***المرجع نفسه***،ص.67.

[6] ***المرجع نفسه***، ص.134.

[7] أجنر فوج، ***مرجع سبق ذكره*** ،ص.33.

كما أنه أكّد على ضرورة الدراسة الآنية للمجتمعات المختلفة وسياقاتها الثقافية بنائيا ووظيفيا كما هي الآن، ولا يتم ذلك إلّا من خلال الاستعانة بالدراسات الميدانية، فالعمل الميداني برأي **مالينوفسكي** كفيل بأن يمد الأنثروبولوجي بكل ما يود معرفته[1].

وقد طور **مالينوفسكي** تعريفا للثقافة يدخل في حسبانه بصورة أقوى الشروط المادية والاجتماعية إذ يقول: «الثقافة هي كُلٌ مبني من مؤسسات بعضها مستقل عن البعض الآخر وبعضها مترابط معه، وهي تحفظ معا بفضل سلسلة من المبادئ مثل القبلية المستندة إلى جماعة الرحم والترابط المكاني بصلة مع العمل الجماعي والتنشئة الاجتماعية للفعاليات، وأخيرا وليس آخرا بفضل استعمال السلطة في التنظيم السياسي. ولكل ثقافة تمامها واكتفاؤها بذاتها الخاصان بها وذلك لأنها تستجيب بما يكفي لكامل المجال في الحاجات الأساسية ذات الغاية المحددة والوظيفة الإدماجية في الجماعة (...) وبذلك تتوسع الثقافة لتشمل الشروط المادية شمولها الشروط غير المادية والروحي والاجتماعي والسياسي من المنتجات. ومن ذلك أشكال مختلفة من الحياة ومن مجالات المخيلات. فالثقافة تشكّل جسد الإنسان وهي في نفس الوقت ثمرة من ثمرات هذا التشكيل وهي تنتج في الأعراف والتجديدات تغيرا وتواصلا بين الماضي والحاضر والمستقبل. إنها ترسم الحدود بين الأحياء والأموات وبين الجنسين وبين الأجيال الحدود الداخلية والخارجية والفوقية[2].

ويركز في طرحه السابق على ربط مفهوم **الحاجة** بمفهوم **الوظيفة** فهو يعتقد بأنّ " الحاجات الفردية تقابلها استجابات حضارية كمؤسسات ذات وجود واقعي في المجتمع، فمثلا نجد التكاثر كحاجة فردية يقابلها نظام الحماية كاستجابة حضارية، الحاجة إلى الأمان يقابلها نظام الحماية كاستجابة حضارية..."[3].

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول أنّ **برونيسلاف مالينوفسكي** يرى في الوظيفية البنيوية أنّ كل عنصر من عناصر الثقافة والمجتمع يؤدي وظيفة أساسية تساهم في تماسك المجتمع واستقراره. وقد ركّز على مفهوم "الحاجة" باعتبارها المحرك الأساسي لوظائف المؤسسات الاجتماعية، حيث اعتبر أنّ كل مؤسسة تلبي نوعًا معينًا من الحاجات البشرية، سواء كانت بيولوجية (مثل الطعام والمأوى)، أو اجتماعية (مثل التنظيم الأسري والقوانين)، أو رمزية (مثل الدين والأساطير). ومن خلال منهجه الإثنوغرافي، شدد على أهمية العمل الميداني لفهم المجتمعات من منظور أفرادها، مما جعله من رواد الأنثروبولوجيا الحديثة.

ب. راد كليف براون:

يعتبر راد كليف براون "المجتمعات بأنها أنظمة طبيعية كما يعتبر أنّ المجتمعات البدائية هي بدورها أيضا أنظمة طبيعية ولكنها بسيطة، فالمجتمعات ليست حقيقة تاريخية فحسب بل حقيقة طبيعية، نظام علاقات لا يتغير نسبيا، موزون ومستقل عن التغيرات التي تطرأ على أشخاصه (الأفراد الذين يتحقق بهم النظام)، وهكذا يستمر نظام القبيلة الاقتصادي والسياسي ونظام القرابة فيها مهما تحوّل الأفراد، بل

---

[1] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره***، ص.70.

[2] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.151.

[3] زنقوفي فوزية، ***مرجع سبق ذكره***، ص.143.

حتى لو زالوا، ومهما حدث من تغيرات اجتماعية غير أساسية، ذلك أنّ نسق الأدوار والبنى يستمر على الدوام ..." [1].

مؤكدا بذلك على صفة الاستمرارية المجتمعية مقارنة بوجودية الأفراد أو زوالهم، أي المجتمعات كأبنية وأنظمة تحمل نوعا من الثبات والاستقرار الذي لا ينفي التغيّر باعتباره سمة ملازمة له، ليميّز بذلك بين "أنواع مختلفة من التغيرات في المجتمع: **أولا** التغيرات الأساسية التي تطرأ على مجتمع كمحاولة للتكيف مع الظروف المناخية المتغيرة، **ثانيا**: تكيّف المؤسسات الاجتماعية المختلفة مع بعضها البعض، **ثالثا**: تكيّف الأفراد مع هذه المؤسسات وعرض هذه التغيرات تحت مسمى "التوافق" و "التكيّف" [2].

كما يشير من خلال أبحاثه إلى ما يعرف بالبناء الكلي أو الشامل أي المجتمع والأبنية الفرعية مثل نظام القرابة او الدين أو الزواج أو الأعراف وغيرها.

والبناء الاجتماعي هو مفهوم مركزي في طروحاته، إذ يرى أنه يشمل ثلاثة فئات من الظواهر الأنثروبولوجية وهي موضوع بحث لهذا العلم [3]:

- الجماعات الاجتماعية التي استمرت فترة كافية من الزمن أطلق عليها اسم الأشكال المورفولوجية للمجتمع الإنساني، تضم مجموعة من النّاس لفترة معينة من الزمن تسود بينهم علاقات تفاعلية عادة ما تسمى بالعلاقات الوظيفية.
- الفئة الثانية هي مجموع العلاقات الاجتماعية التي تسود بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع على كل المستويات.
- الاختلافات بين الأفراد والجماعات من حيث العرق واللغة والسن والجنس وغيرها من التنوعات الإثنية بين الجماعات داخل المجتمع.

وتأسيسا على ما سبق، يمكن القول بأنّ الطرح البنائي الوظيفي ينطلق من فكرة وظيفية كل من البناء الكلي والأبنية الفرعية له مهما كانت بسيطة أو معقّدة، وكمثال على ذلك تقدم الوظيفية فهما أدائيا "للشعائر" كعنصر من عناصر الثقافة معتبرة إياها مركبا يؤدي مهاما ووظائف في النظام والبناء المجتمعي والثقافي الكلي، "فمقصدها يتمثل في القيام بمهام اجتماعية مهام لا يمكن أن تدرك من دونها أو قد تدرك بصعوبة، فالشعائر تهيكل مجرى المؤسسات والجماعات المجتمعية وتمكن من تجنب الصراعات أو من حسمها فيحصل التحول في المؤسسات فعلا دون تهديمها. إنّ الشعائر تنظم العمليات المجتمعية وتحافظ على العلاقات بين الجماعات المختلفة أو هي تحولها، وحسب رأي دوركايم فإنّ الشعائر تتضمن قواعد السلوك التي تحدد كيف يسلك الإنسان بخصوص المقدس الذي يصوغ فيه المجتمع صورة عن نفسه. وفيها يخضع النّاس لِفَزَّة جماعية ولحركية روحانية يجعل أثرها الأفراد متطابقين مع جماعتهم بصورة

---

[1] جيرار لكلرك، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.71.

[2] أجنر فوج، ***مرجع سبق ذكره*** ص.33.

[3] رشوان حسين عبد الحميد أحمد، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:27-28.

متصـــاعدة، وبفضـــل علاقتها بالتعالي تنتج الأفعال الجمعية شـــعائر فهم ديني جمعي للذات يندرج فيه المشاركون في الشعائر"[1].

ومن هنا تتجلى وظيفية الشـــعائر كمركب بســـيط ضـــمن مركب أعقد، فهي تلعب دور الموجه والموحد والعامل الدينامي على مســـتوى التمثّل والممارســـة، أي أنها تؤدي وظائف معينة انطلاقا من تلبية حاجات معينة.

3.3. الانتقادات الموجهة للنظرية البنائية الوظيفية:

على الرغم من الإســـهامات المهمة التي قدمتها النظرية البنائية الوظيفية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية عموما، إلّا أنها تعرضت لعدد من الانتقادات المنهجية والإبستيمولوجية التي أثرت على مكانتها ضـــمن الحقل المعرفي. ويمكن تلخيص أبرز هذه الانتقادات في أنّ هذا الطرح قد تميّز بالجمود واللاتارخية كونها تعاني من نزعة **اســـتاتيكية** (Static)، حيث تركز على التوازن والاســـتقرار الاجتماعيين، متجاهلةً الحركية والتغير الاجتماعي. فهي تقدم المجتمع كمنظومة متكاملة يســـودها الانسـجام، مما يجعلها عاجزة عن تفســـير التحولات الكبرى، مثل الثورات الاجتماعية أو التغيرات الهيكلية العميقة، كما أنها تجاهلت الصـــراعات الاجتماعية والاقتصـــادية، وركزت فقط على كيفية عمل المؤســـســـات للحفاظ على النظام، متغافلةً الأدوار التي تلعبها الطبقات الاجتماعية في إحداث التغيير. وهذا ما جعلها محل رفض من قِبل المنظرين الماركسيين الذين يرون أنّ الصراع هو المحرك الأساسي للتاريخ والتغير الاجتماعي.

تتعامل البنائية الوظيفية مع المؤســـســـات والعادات الاجتماعية على أنها موجودة لأنها تلعب دورًا في الحفاظ على النظام الاجتماعي، إلّا أنّ هذا المنظور قد يؤدي إلى **تفسـير تبريري** للظواهر الاجتماعية، حيث يتم النظر إلى جميع الممارســـات الثقافية بوصـــفها ضـــرورية لعمل المجتمع، حتى وإن كانت تؤدي إلى عدم المســـاواة أو القهر الاجتماعي أو التراجع المجتمعي. ضـــف إلى ذلك تركيزها على الهياكل الاجتماعية أكثر من الأفراد، إذ تعتبر أنماط الســـلوك الفردي انعكاسًـــا للبنية الاجتماعية، جعلها تغفل عن الدور الفعّال الذي يلعبه الأفراد في **إعادة إنتاج الثقافة** وتشكيلها، وهو ما أدى إلى ظهور اتجاهات لاحقة ، التي ركّزت على دور الفاعلين الاجتماعيين في خلق المعاني وإعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية.

كما يرى بعض النُقَّاد أنّ البنائية الوظيفية تعاني من **نزعة تجريدية** لأنها تحاول تقديم نماذج نظرية عامة تصـــلح لكل المجتمعات، دون مراعاة **الخصـــوصـــيات الثقافية والتاريخية** لكل مجتمع. وهذا جعلها تتعرض لانتقـادات حـادة من قبـل الأنثروبولوجيين التـاريخيين ومـا بعـد الحـداثيين، الـذين أكـدوا أنّ كل مجتمع له ديناميـاته الخـاصة التي لا يمكن اختزالها في قوانين عامة.

لكن يبقى أن نقول أنه وعلى الرغم من هذه الانتقادات، لا تزال البنائية الوظيفية تقدم أدوات تحليلية مهمة لفهم العلاقات الاجتماعية والمؤســـســـات الثقافية، خاصـــة في المجتمعات التقليدية. غير أنّ تطور الأنثروبولوجيا باتجاه مناهج أكثر ديناميكية، مثل **التفسيرية**، **وما بعد البنيوية**، **والمادية الثقافية**، أسهم

[1] كريستوف فولف، *مرجع سبق ذكره*، ص.288

في تجاوز محدوديات هذا الاتجاه، مع التأكيد على ضرورة الجمع بين الهياكل الاجتماعية والفاعلية الفردية لفهم أعمق للظواهر الثقافية والأنثروبولوجية.

- **استنتاج:**

ســـاهمت المدرســـة البنائية الوظيفية في إثراء الأنثروبولوجيا بتقديم إطار نظري متكامل لفهم البنى الاجتمـاعيـة ووظـائفهـا في تحقيق اســتقرار المجتمعـات. من خلال أعمـال روادهـا مثـل **برونيســلاف مالينوفسكي وألفريد رادكليف براون**، بحيث تمّ تطوير منهجيات بحثية أساسية مثل الملاحظة بالمشاركة وتحليل البنى الاجتماعية، مستندين إلى تأثيرات إميل دوركهايم في دراسة الوظائف الاجتماعية. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه، فإنّ أفكارها أسهمت بشكل كبير في وضع الأسس النظرية والتطبيقية التي لا تزال تؤثر في الأبحاث الأنثروبولوجية حتى اليوم.

فما يميّز الطرح الوظيفي هو البحث في الـــ **هنا والآن** بغض النظر عن الأبعاد التطورية التاريخية، ليتحدد وفقا لذلك عديد الطروحات الأخرى التي انتقدت هذا الطرح ومن بينها الطرح البنيوي، فالأناســة المجتمعية أو الأنثروبولوجيا تعالج المجتمعات بوصفها أنظمة رمزية لا بوصفها أنظمة عضوية وأنها لا تهتم بمجريات الأمور بقدر اهتمامها بالأشكال التي تتشكّل بها وأنها بالتالي تسعى إلى بلورة بنى لا على استخدام قوانين، وأنها تبرهن على تماسك الظاهرات لا على وجود العلاقات الحتمية بين النشاطات المجتمعية وأنها توضح الأمور أكثر مما تحللها[1]. الأمر الذي يدفعنا للتساؤل:

على ماذا يقوم الطرح البنيوي في الأنثروبولوجيا وما هي أهم أبعاده ورواده؟

4. **المدرسة البنيوية (Structuralism) :**

1.4. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها:

يركز الطرح البنيوي على البنى العميقة التي تكمن وراء الأنماط الثقافية، ومن أبرز رواد هذه المدرســة الفكرية عالم الأنثروبولوجيا الفرنســي **كلود ليفي شــتراوس** الذي اعتقد وأتباعه أنّ الثقافات تترابط من خلال هيكليات عقلية مشــتركة، مثل الأســاطير والعادات، ويعتمد هذا الطرح اجمالا على تحليل البنى العميقة للثقافة البشرية، مستندا في دراساته إلى فكرة أنّ العقل البشري يشكل الأنظمة الرمزية من خلال تنظيم الخبرات الإنسانية في هياكل ثنائية ومعاني ضمن سياق عالمي مشترك.

وتُعَدُّ البنيوية إحدى النظريات الثورية في الفكر الأنثروبولوجي خلال القرن العشــرين، إذ ســاهمت في إعادة صياغة فهمنا للثقافة والأنظمة الرمزية التي تُشكّل سلوك الإنسان.

كما أنها تطورت كرد فعل على النماذج التطورية التقليدية التي ركزت على التطور التاريخي والتتابعي للعناصــر الثقافية. فقد اعتبر **ليفي شــتراوس** أنّ الثقافات البشــرية، على اختلاف تنوعها الظاهري، تتشارك في **بنى عقلية عامة** تُعبّر عن تنظيمات رمزية أساسية.

[1] بريتشارد إفنز، *مرجع سبق ذكره*، ص.76

ومنه يستمد هذا المنهج تأثيراته من اللغويات السوسيو-بنيوية، لا سيما أعمال **فرديناند دي سوسير**، الذي أكد أنّ اللغة نظام معتمد على الفروق والتباينات وليس على الكلمات بمفردها، ما فتح المجال أمام **ليفي شتراوس** لتطبيق هذه الأفكار على دراسة الثقافة[1].

ووفقا للأدبيات التي تناولت هذا الطرح بالدراسة اعتبرت أنه يقوم على الرأي القائل بأنّ "العالم الاجتماعي والسياسي ينبغي أن يفهم من حيث القوى والعلاقات الكامنة وراء العمل واللغة خارج التجربة المباشرة، ولذا فإنها ليست ممكنة الملاحظة على نحو مباشر..."[2].

وبالتالي تقوم النظرية البنيوية عند كلود ليفي شتراوس على فكرة أساسية مفادها أنّ الهياكل العميقة غير الواعية هي التي تنظم الثقافة والمجتمع، وأنّ هذه الهياكل متماثلة عالميًا لأنها نابعة من البنية الإدراكية للعقل البشري.

وعليه إذا كان الطرح التطوري يرى أنّ المجتمعات تمر بمراحل تطورية خطية من البسيط إلى المعقد، وفق نموذج تقدمي عالمي فإنّ البنيوية تعتبر أنّ جميع الثقافات متكافئة في تعقيدها، ولا توجد ضرورة لمسار تطوري موحد، بل تتبع جميعها أنماطًا فكرية متشابهة تعكس البنية العميقة للعقل البشري وعلى خلاف الطرح الانتشاري الذي يؤكد على أنّ السمات الثقافية تنتشر من مركز أو عدّة مراكز معينة إلى مجتمعات أخرى، مما يؤدي إلى التشابه بين الثقافات تؤكد البنيوية أنّ هذه التشابهات مردها إلى وجود بنيات عقلية عالمية تجعل البشر ينظمون واقعهم بطرق متشابهة وليس إلى الانتشار.

ضف إلى ذلك يهتم الطرح البنيوي على خلاف الوظيفي بالبحث عن العلاقات الشكلية بين العناصر الثقافية بدلًا من البحث عن وظائفها، فالمهم ليس الغرض العملي للظاهرة، بل بنيتها الداخلية وعلاقتها مع غيرها من الظواهر. وخلاصة القول أنّ البنيوية تُركز على تحليل البنى العميقة التي تنظّم الثقافة، وتعتبر أنماط التفكير البشري ثابتة عالميًا، بينما ترتكز النظريات الأخرى على التطور التدريجي (التطورية)، أو الانتقال الجغرافي للعناصر الثقافية (الانتشارية)، أو الوظيفة الاجتماعية للممارسات الثقافية (الوظيفية).

2.4. أهم رواد الاتجاه البنيوي:

يُعتبر **كلود ليفي شتراوس** مؤسسًا للبنيوية في الأنثروبولوجيا، وقد ساهم في تحليل الأساطير والعلاقات القرابية والطقوس الدينية من منظور بنيوي. وفيما يلي أبرز إسهاماته:

أ. **تحليل الأساطير والرموز:**

اعتمد **ليفي شتراوس** على فكرة أنّ الأساطير ليست مجرد حكايات شعبية، بل هي نصوص تحمل بنى عقلية عميقة تُعبّر عن تناقضات أساسية في الفكر البشري، ومن خلال منهجه التحليلي، قام بتفكيك

[1] Lévi-Strauss, Claude, ***Structural Anthropology***, Translated by Claire Jacobson and Brooke Grundfest Schoepf New York, Basic Books,1963,P.35.

[2] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.169.

الأســـاطير إلى عناصـــرها البنائية، مُظهرًا كيف تُعيد تجميع هذه العناصـــر لإنتاج معاني متعددة في كل ثقافة[1].

ب. **الدراسة المقارنة للقرابة:**

في دراســته لأنظمة القرابة، وضّــح **شــتراوس** بأنّ العلاقات الاجتماعية لا تُفهم من خلال التســلســل التاريخي وحده، بل يجب تحليلها من خلال البنى الرمزية التي تنظمها. فقد أشـــار إلى أنّ الأنظمة القرابية تعتمد على تنظيمات ثنائية (مثل المحرّم والمباح) تعكس بنى عقلية مشتركة بين الشعوب[2].

ت. **التركيز على البنية العقلية المشتركة:**

يرى **ليفي شـــتراوس** أنّ هناك "عقلًا بريًا" مشـــتركًا بين البشـــر، يتجلى في تنظيمهم للظواهر الطبيعية والاجتماعية عبر بنى ثنائية متكررة، هذا المفهوم يشـــير إلى أنّ تنوع الثقافات لا يعني بالضـــرورة اختلافًا في البنى العقلية، بل اختلافًا في التعبير الرمزي عن هذه البنى[3].

ث. **نقد النهج التطوري التقليدي:**

رفض **ليفي شـتراوس** النظريات التطورية الأحادية التي حاولت ترتيب الثقافات على مقياس من "بدائية" إلى "متقدمة"، وبدلاً من ذلك قدّم رؤية بنيوية تُبرز التشابه البنيوي والعمق الرمزي المشترك بين الثقافات، مما ساعد على فك القيود النمطية التي فرضت تقييمات قيمية على التنوع الثقافي [4].

ومن هنا أسـهمت الأفكار البنيوية التي طرحها **ليفي شـتراوس** في إعادة توجيه الأنثروبولوجيا نحو دراسـة النظم الرمزيـة والعمليـات العقليـة الكـامنـة وراء التنوع الثقـافي. وقـد أثرت هـذه الأفكـار ليس فقط في الأنثروبولوجيا، بل امتدت لتشـمل دراسـات الأدب والنقد الفني وعلم النفس، فعلى سـبيل المثال اسـتخدم الباحثون نهج ليفي شـــتراوس في تحليل الأســـاطير العالمية لتحديد الأنماط المشـــتركة، مما ســـاعد في بناء نظرية مقارنة للأســـاطير تعتمد على الفروق الثنائية، كماســـاهمت مفاهيمه في تطوير النظريات البنيوية للغة، حيث أصبح يُنظر إلى اللغة كنظام رمزي يتشكّل عبر الفروق والتناقضات.

فاللغة والفكر يعدان متواشـــجين عند همبولت، إذ تعتبر اللغة هي العضـــو الباني للفكر، إنها عمل العقل دائم التكرار ، عمله الذي يجعل الصـــوت (المقطع) قادرا على أن يكون تعبيرا عن الفكر، إنها إنتاج الفكر بما بين الجســـد والعقل من تواشـــج. وإذن فاللغة ليســـت فكرا فحســـب بل هي فكر وصـــوت في آن (تصور + صوت conceptus fox). وهذه الوحدة التأليفية بين كلمة مادية الدلالة هي لب الحدس الأوروبي لوحدة الكلام والفكر، الوحدة التي تجد هنا صـــوغها التقليدي .. ومن ثمّ فهو يصـــوغ الموقف المضـــاد للموقف الأرسـطي الذي يفصـل بين الفكرة والكلمة (تصـور وصـوت concptus und vox) والذي في إطاره تكون الفكرة وحدها (كونسابتوس conceptus) هي التي تحيل إلى الأشياء[5].

---

[1] Lévi-Strauss, Claude, ***Structural Anthropology***, op.cit, P.87.

[2] Lévi-Strauss, Claude, ***Ibid***, P.87.

[3] كلود ليفي شتراوس، ***الفكر البري، مرجع سبق ذكره***، ص.106.

[4] كلود ليفي شتراوس ،***المرجع نفسه***، ص.106.

[5] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.155.

بمعنى أنّ الرمز يلعب دوره في البنية والمعنى العام، لذلك نجد أنّ بنيوية ليفي شـــتراوس تركز على البناء الرمزي الذي لا يمكن إدراكه إلّا من خلال محاولة فهم العلاقات البنيوية والدلالية في إطار ما يعرف بالبنية ، ومن هنا أُعتبر **"التقابل oposition"** من بين أهم الطرق المنهجية المستخدمة في تحليله للظواهر الأنثروبولوجية ، والذي يعني مقابلة المتضادات لمعرفة وتحديد الفروق والتناقضات داخل الأشياء، ومن أمثلة التقابل التي يطرحها: الحياة والموت، الذكر والأنثى، الحيوان والنبات، الفرد والجماعة، الصـــديق والعدو"[1].

فكل رمز يمكن أن يعرّف من خلال مضـــاده أو نقيضـــه، وهذا ما يؤدي إلى اختلاف وتباين المجتمعات وثقافاتها، أي أنّ الاختلاف متجسد أساسا من منطلق تباين الرؤى وتأويلات الرموز ومعانيها حتى ولو كانت نفســـها أي رموزا مشـــتركة، إلّا أنها ســـتتغير ليس بتغيرها الفعلي بل بتغيّر منظور الشـــعوب لها باختلاف ســـياقاتها الثقافية وحمولتها القيمية الرمزية، ولعلّ اهتمامه في كتابه **"العقل المتوحش"** يظهر تركيزه في معرفة كنه الظواهر الاجتماعية من خلال محاولة التحليل الاثنوغرافي أن يصل إلى الأسس الكامنة خلف التباين الواقعي للمجتمعات البشرية (...) فاهتمامه منصب على معرفة وتحليل المستويات العميقة للبناء وبناء الارتباط بين العناصـــر البنائية للمجتمع وبناء العقل البشـــري، فالمدخل المنهجي في تحليل الظواهر الاجتماعية بالنسبة له هو مدخل البنيوية الأنثروبولوجية "[2].

ومن هذا المنطلق كانت دراســـته للرموز الثقافية بهدف الكشـــف عن نمط التفكير في المجتمعات البشـــرية بغض النظر عن الســـياق المكاني والزماني، وبيان قابلية هذه الرموز لأن تتحمّل عددا كبيرا من التفسـيرات المختلفة، فمثلا تناوله للغة جعله يعتبر أنّ عناصـر اللغة تحدد على أسـاس علاقاتها المتبادلة التي يمكن تصنيفها وفقه إلى[3] :

- **علاقات جدولية** Paradigmatic أي علاقات بين العناصر التي يمكن إحلال بعضها محل بعض.
- **علاقات تركيبية** Syntagmatic أي علاقات بين العناصر التي يمكن أن ترتبط مع بعضها البعض.

واجمالا لِمَ سـبق يمكننا القول بأنّ هدف التحليل الاجتماعي للنظرية البنيوية هو اختصـار المسـافة بين النســق الماهوي والســؤال الوجودي وليس تفضـيل أحدهما على الآخر[4]، إذ يكمن هدفها في تقصـي أبعاد العلاقة بين السؤالين حيث تكمن حقيقة الإنسان في الفاصلة بينهما[5]، وهذا ما يفسر قيام الطرح البنيوي على بعض المفاهيم مثل:

- **الزّامن Synchronic:** مجموع الظواهر الملاحظة وهي في حالة سكون أو ثبات.

---

[1] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.172.

[2] ***المرجع نفسه***، ص.173.

[3] دان سيبر، كلود ليفي شتراوس، في جون ستروك، ***البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا***، ترجمة: محمد عصفور، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د.ت، ص-ص:29-71.

[4] مصباح عامر، ***المرجع نفسه***، ص.176.

[5] مهيبل عمر، ***من النسق إلى الذات: قراءات في الفكر الغربي المعاصر***، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص.ص:19-32.

- **التعاقب Diachronic:** يشـير إلى الظواهر نفسـها وهي في حالة الصـيرورة، ذلك أنه لا مجال للمتناقضـات داخل النسـيج البنيوي أي أنّ البنية تعني مجموع العلاقات الثابتة والمجردة التي تؤدي إلى نتيجة حتمية ومنطقية عن المقدمة السالفة[1].

بمعنى أنّ التناسـق والتوليف الذاتي التوليدي بين عناصـر البنية يعتبر شـرطا من شـروط وجودها واستمراريتها وتوازنها.

ويقوم الطرح البنيوي على مجموعة من المسلمات الميتافيزيقية التي تتلخص في[2]:

- ✓ اعتبار العالم نتاجا للأفكار.
- ✓ يعتبر العلم نمطا منطقيا.
- ✓ موت الذات: والتي تعني أنّ أفعالنا لسنا نحن الذين نصنعها، إنما البنيات الاجتماعية الكامنة هي التي تحدد فينا أفعالنا وتعمل من خلالها، وإنّ أفعالنا تعمل على إعادة إنتاج البنيات وإدامتها أو أحيانا تعمل على تحويلها عن طريق الثورة، فالأفراد اضـمحلت ذواتهم لصـالح البنيات الاجتماعية[3].

ومن هنا تعتبر البنية أسـبق من الفرد ومحتوية له بمنحه جملة من الرموز والمعاني والدلالات التي وجب عليه تمثّلها والتفكير والعمل من خلالها ليحقق الانتماء إلى الثقافة الموجود بها.

3.4. الانتقادات الموجهة للنظرية البنيوية:

كما سبق وأشرنا فإنّ البنيوية تختلف من ناحية الطرح مقارنة بالمدارس النظرية الانثروبولوجية الأخرى كونها مرتبطة وثيق الارتباط بعمل ليفي سـتروس وفيه تمثل المعاملة بالمثل المبدأ المنظم لكل الثقافات ففي القرن التاسـع عشـر حول التقدم تنطلق التطورية المحدثة للخمسـينات والسـتينات بالأحرى من القول بأنّ تطور الثقافات تنتجه عمليات متعددة السـبل تطورات مختلفة ممكنة دائما بحسـب كل حالة من حالات الشـروط البيئية، وهنا تتنزل الإيكولوجيا الثقافية التي تؤكد على الترابط المتبادل بين المحيط وتطور الثقافة [4]، غير أنّ البنيوية كانت مرتكزة على فكرة التحليل وفقا للأطر ذاتها بالتركيز على البنية وخصائصها الذاتية وفقا لمبدأ الرمز والمعنى وكذا الترابط التبادلي، ورغم تأثيره الكبير على الفكر الأنثروبولوجي المتجدد إلّا أنّ هذا الطرح تعرّض لانتقادات من عدة جهات: أولها انه طرح يتميز بالتبسـيط المفرط، إذ يرى بعض النّقاد أنّ التركيز على البنى العقلية المشـتركة قد يُغفل التباينات التاريخية والاجتماعية الدقيقة التي تُميز كل ثقافة عن غيرها. كما أنّ إهمال الفاعلية الفردية ينتج عنه تصـور جامد للثقافات بالتقليل من دور الفرد في خلق وتغيير الأنظمة الرمزية.

---

[1] مهيبل عمر ، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:16-23.

[2] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره*** ، ص.ص: 177-178

[3] أنظر: إيان كريب، ***النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس***، ترجمة محمد حسين غلوم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص.ص:195-128

[4] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.154

وعليه أثار بعض الباحثين تساؤلات حول قابلية تطبيق منهج ليفي شتراوس البنيوي في تفسير الظواهر الثقافية المعقدة والمتغيرة مع الزمن.

- **استنتاج:**

شكّلت النظرية البنيوية التي طرحها كلود ليفي شتراوس تحولًا جذريًا في فهم الأنثروبولوجيا للثقافة، إذ ركزت على التحليل الرمزي للبنى العقلية المشتركة بين البشر بدلاً من النهج التاريخي التطوري التقليدي. وقد ساهمت إسهاماته في فتح آفاق جديدة لدراسة الأساطير والأنظمة القرابية واللغة، مما أثرى الدراسات الثقافية والإنسانية بشكل عام. ورغم الانتقادات الموجهة إليها، فإنّ الأفكار البنيوية تظل إحدى الركائز الأساسية في البحث الأنثروبولوجي الحديث رغم ما يعتريها من لبس في بعض جوانبها، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بفهم الظواهر الثقافية المعقدّة التي تتداخل فيها البني بشكل مكثف وعميق.

وخلاصة القول أنّ هذا التباين بين الطروحات الانثروبولوجية المختلفة يظهر من خلال اعتبارنا أنه في تيار انتشار الثقافة توجد عناصر الثقافة المادية في الصدارة، أمّا التيار الوظيفي فيؤكد على المؤسسات الثقافية والاجتماعية ليركز التيار البنيوي على ذلك لكنه يتجاوزه فيضم إليه **المنتجات الفكرية لكل ثقافة عينية**[1].

وأمام هذا التباين وفي ظله نتج طرح آخر جمع ما بين النتائج العلمية التي جاد بها علم النفس التجريبي والأنثروبولوجيا ليشكّل لنا منطلقا نظريا معرفيا جديدا في دراسة الشعوب والمجتمعات وثقافاتها وهذا ما يُعرف بالاتجاه النفسي الأنثروبولوجي أو مدرسة الثقافة والشخصية.

فعلى ما تقوم مدرسة الثقافة والشخصية ومن هم روادها وما أهم اسهاماتهم؟

5. مدرسة التحليل النفسي في الأنثروبولوجيا (الثقافة والشخصية):

1.5. التعريف بالمدرسة وأهم مبادئها:

ظهرت مدرسة الثقافة والشخصية في الأنثروبولوجيا في أوائل القرن العشرين كرد فعل على النظريات التطورية الكلاسيكية والنماذج الوظيفية الجامدة، ساعيةً إلى استقصاء العلاقة المتبادلة بين الثقافة وتكوين الشخصية.

أكدّ رواد هذه المدرسة أنّ الثقافة ليست مجرد مجموعة من العادات والتقاليد السطحية، بل هي منظومة رمزية معقدة تُشكّل الشخصية الفردية والجماعية.

وقد أثّر هذا الاتجاه في فهمنا للهوية والسلوك البشري، ما أسهم في إثراء البحث الأنثروبولوجي وإضفاء بُعد إنساني ونفسي على الدراسات الثقافية.

نشأت مدرسة الثقافة والشخصية في الولايات المتحدة خلال الثلاثينيات والأربعينيات، حيث كان هناك اهتمام متزايد بدراسة الفروق الفردية والاجتماعية في ظل التغيرات الثقافية والاجتماعية العميقة التي كانت تشهدها البلاد. استلهمت هذه المدرسة أفكارها من الدراسات النفسية والاجتماعية، وعلى رأسها

[1] كريستوف فولف، *مرجع سبق ذكره*، ص.154

أعمال علماء مثل **ويليام جيمس وإميل دوركهايم**، الذين برروا أنّ سلوك الفرد لا يمكن فهمه بمعزل عن السياق الثقافي والاجتماعي الذي ينتمي إليه.

وتنطلق هذه المدرسة من اعتبار الثقافة كمنظومة رمزية، إذ تُفهم الثقافة على أنها نظام من الرموز والمعاني التي تُشكل تصور الفرد للعالم، مما يؤثر بدوره على تشكيل شخصيته وسلوكه، مؤكدة في ذلك على أنّ الشخصية تتشكل من خلال التفاعل المستمر مع البيئة الثقافية والاجتماعية، إذ تشكل قيم ومعتقدات المجتمع الفرد وتوجه سلوكياته.

وتؤمن المدرسة بأّن كل ثقافة تساهم في تشكيل "شخصية ثقافية" فريدة تختلف عن غيرها، ولا يمكن ترتيبها وفق مقياس هرمي بسيط من "متقدمة" أو "بدائية."

ويمكننا القول بأنّ الطرح العام لنظريات هذه المدرسة عموما قائم على مفهومين مركزيين هما: **الثقافة والشخصية، فما المقصود بالثقافة وما المقصود بالشخصية وكيف تمّ تناولهما وفقا لطروحات هذه المدرسة وروادها؟**

- **مفهوم الثقافة:**

مما لا شك فيه أنّ لكل مجتمع ثقافته التي تميزه عن باقي المجتمعات، ويمكننا اجمالا النظر للثقافة باعتبارها[1]:

- ✓ **الثقافة كمقولة اجتماعية:** قوامها القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية.
- ✓ **الثقافة كإيديولوجيا:** بصفتها المنظار الذي يرى الفرد من خلاله ومجتمعه وبصفتها أيضا معيار الحكم على الأمور.
- ✓ **الثقافة بوصفها انتماء:** تعبر عن التراث والهوية والشعور القومي وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية.
- ✓ **الثقافة بوصفها تواصلا:** من خلال نقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات إلى الأجيال.
- ✓ **الثقافة بوصفها دافعا:** على الابتكار والابداع والنضال ضد القهر والاستبداد والظلم.
- ✓ **الثقافة بوصفها حصادا متجددا:** يتم استهلاكه وإعادة إنتاجه والتعامل معه وإدماجه في مسار الحياة اليومية.

واستنادا على ما سبق يمكننا تبني فكرة **"هوربو"** عن الثقافة حينما اعتبرها ذلك الذي نحتفظ به حينما ننسى ما تعلمناه، ومن هنا تعتبر الثقافة نتاجا لبعدين أساسيين:

- **نتاج لتراكم تاريخي:** يعيش عبر عدّة أجيال ويضيف كل جيل ويلغي بما يتناسب وظروفه ومحيطه الاجتماعي والحضاري.

[1] نبيل علي، ***الثقافة العربية وعصر المعلومات***، الكويت، 2001، ص.265.

- **نتاج معاصر**: أي أنها نتاج للتفاعل الاجتماعي القائم.

وعليه، يمكننا القول بأنّ الثقافة هي ناتج ومنتج في نفس الوقت فهي صفة إنسانية، مكتسبة، انتقائية متغيرة وتراكمية ، مما يجعلها تلعب دورا محوريا في بناء شخصيات الأفراد المنتمين إليها.

وهنا لنا أن نتساءل: **ما هي الشخصية؟ وكيف يحدث هذا البناء وفقا للطرح النفسي الثقافي الأنثروبولوجي؟**

- **الشخصية:**

تُعرّف **الشخصية** بأنها **مجموعة السمات والأنماط السلوكية والفكرية والعاطفية التي تميز الفرد عن غيره، وتتشكل من خلال التفاعل بين العوامل الوراثية والبيئية والاجتماعية والثقافية** .وهي تعكس أسلوب الفرد في التفكير، والشعور، والتكيّف مع محيطه الاجتماعي، مما يجعلها مفهومًا ديناميكيًا يتأثر بالتجارب والخبرات الحياتية. وتتكوّن الشخصية من عدة أبعاد رئيسية تشمل:

- **البُعد البيولوجي:** يشمل العوامل الوراثية والفسيولوجية التي تؤثر في المزاج والسلوك.
- **البُعد النفسي** :يتضمن العمليات العقلية والعاطفية، مثل الإدراك والانفعالات والدوافع.
- **البُعد الاجتماعي** :يرتبط بتفاعل الفرد مع الآخرين ودوره في المجتمع.
- **البُعد الثقافي** :يشير إلى تأثير القيم والمعتقدات والتقاليد السائدة في المجتمع على تكوين الشخصية وتوجيه السلوك.

إذ ترتبط الشخصية ارتباطًا وثيقًا بالثقافة، حيث تلعب هذه الأخيرة دورًا حاسمًا في تشكيل الهويات الفردية والجماعية. فالثقافة توفر للفرد **الإطار المرجعي** الذي يحدد المعايير الاجتماعية، والأدوار المتوقعة، وأساليب التفكير والتعبير عن المشاعر. وقد ركّزت **مدرسة الثقافة والشخصية** على دراسة هذه العلاقة.

ومنه تتشكّل الشخصية من خلال تفاعل معقد بين العوامل الفردية والثقافية، حيث تحدد الثقافة الأنماط السلوكية المقبولة، بينما يطور الأفراد شخصياتهم ضمن هذا الإطار وفقًا لتجاربهم الشخصية.

إذ أنّ "عمليات المحاكاة تنتج ثقافات مختلفة ذات فاعلية إنشائية وهي من حيث صلتها بهذه الوجوه الثلاثة مهمة. **فالوجه الأول** يرسم أشكالا مختلفة من تمثيل ما هو اجتماعي (بمعنى أداء الأدوار الاجتماعية)، **والوجه الثاني** يتعلق بخاصية الفاعلية الإنشائية للتكلم التي تتحقق لكون كل تعبير يمثل في أنّ عملا كالحال على سبيل المثال في قول نعم خلال مراسم الزفاف **والوجه الثالث** يحيل إلى منظرة الجسد وتمثيل نواحي منه حميمة ذات صلة بالجمالي متينة. وبالمقابل تعتبر الثقافة نصوصا يهدف فهم الثقافة فهما يجعلها أفعالا إلى التركيز على خاصيتها «المنظرية» (نسبة إلى المنظر بالمعنى المسرحي) والعرضية التمثيلية والمعرفة العملية المطلوبة لدرس فاعلية الأعمال يتم اكتسابها عن طريق عمليات المحاكاة[1].

[1] كريستوف فولف، *مرجع سبق ذكره*، ص.21

أي أنّ الثقافة مكتسبة يتم استبطانها عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية ومن هنا تتشكّل وتنطبع شخصيات المنتمين إليها بطابعها.

وما يؤكد طبيعة تلك العلاقة أنثروبولوجيا الأعمال التي استبدلت السؤال الدائري: **هل يؤثر الفرد في الثقافة؟ أم أنّ الثقافة هي التي تؤثر في الفرد؟** بسؤال آخر أقرب إلى التحقيق الإجرائي مؤداه: **هل أنّ الثقافات المتعددة تقابلها أنماط متعددة من الشخصية؟**[1]، وهذا ما سنراه من خلال التالي:

2.5. أهم رواد مدرسة الثقافة والشخصية:

ظهرت مجموعة من المفاهيم التي شكلت أدوات تحليلية لفهم كيف تُكوِّن الثقافة سمات الأفراد، ومن بين هذه المفاهيم :المنوال الثقافي والقوس الثقافي، إلى جانب مفهومي الشخصية الأساسية والشخصية القاعدية، فما المقصود بذلك:

- **روث بنديكت** Ruth Benedict (1887–1948):

تعتبر روث بنديكت واحدة من المؤسسات الرئيسيات لهذا الاتجاه، حيث قدمت مفهوم "أنماط الثقافة" في عملها الكلاسيكي *"أنماط الثقافة*(1934)[2]" وتصورت الثقافة كشبه شخصية معتبرة أنّ كل ثقافة تتميز بنمط شخصي فريد، بحيث يمكن تشبيهها بشخصية فردية تتسم بسمات محددة تؤثر في سلوك أعضائها. مؤكدة في ذلك على مبدأ النسبية الثقافية وعلى ضرورة فهم كل ثقافة في سياقها الخاص، ومعتبرةً أنّ الأنماط السلوكية والمعتقدات يجب أن تُقيَّم وفقاً للقيم والمعايير الداخلية لتلك الثقافة.

ساهمت أفكارها في إرساء أسس دراسة الشخصية الثقافية، مما فتح المجال أمام الباحثين لاستكشاف العلاقة بين الخصائص النفسية للأفراد وأنماط الحياة في مجتمعاتهم.

ومن أهم المفاهيم التي جادت بها نجد مفهوم **المنوال الثقافي (بصمة الثقافة)** والذي يشير إلى النموذج الثابت أو النمط المتكرر من العادات والتقاليد والرموز التي تُميز ثقافة معينة، فهو " مجموعة منسجمة من السمات الثقافية المتداخلة ، وتمّ استخدامه لوضع فرضية **القوس الثقافي** الذي يجمع إمكانات محدودة، أي عددا من السمات التي يمكن حصرها وتصنيفها، وحسب بندكت فإنّ الثقافات لا تستطيع تحيين سوى فسيل أو مقطع واحد هو الذي يعرّفها وتعرف به"[3]

وفقًا **لبنديكت**، فإنّ كل مجتمع يتمتع بـ "بصمة ثقافية" فريدة تُحدد سلوك أفراده وتصوراتهم للعالم. هذا النمط يُعتبر بمثابة إطار مرجعي مشترك يُساعد على تعريف الهوية الثقافية ويضمن استمرارية الموروثات ،لذا ركزت **بنديكت** على أهمية الرموز والمعاني التي يُعبر عنها هذا المنوال، حيث تُشكّل تلك الرموز لغة ثقافية تساعد في نقل القيم والاعتقادات من جيل إلى آخر. ومن خلال دراساتها المقارنة، بيّنت أنّ هذا النمط الثابت يُعد حجر الزاوية في تشكيل هوية الشعوب.

---

[1] ولد خليفة محمد العربي، ***المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية: دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية***، منشورات ثالة ،الجزائر، 2007، ص.51.

[2] Cf: Benedict, R, ***Patterns of Culture***, Boston, Houghton Mifflin,1934.

[3] ولد خليفة محمد العربي، ***المرجع نفسه***، ص.51.

وبالتالي اختارت **بندكت ثلاثة أنماط ثقافية** رئيسية سلطت عليها الضوء بالبحث والتدقيق العلمي وهي: **قبائل بيبلو Pueblo ودوبو Dobu و كواكيوتل Kwakiutl** وقد سمت الأنماط الثقافية باسمها [1]

"واستنتجت الباحثة انطلاقا من فرضية القوس الثقافي أنّ الثقافة لا تعرف بالسمة أو مركب السمات بل باتجاهها العام نحو هذه الوجهة أو تلك، ومنه فإنّ الجدير بالدراسة ليس التلاصق بين السمات ولكن الطريقة التي تتفاعل بها تلك السمات بطريقة انضوائية تقدم للفرد مخططا لا شعوريا يوجه كل نشاطاته، الطريق الأقرب لإدراك وحدته الداخلية يبدأ بالتعرّف على منطقه الداخلي"[2]

ففي دراستها لعدّة مجتمعات، أوضحت **بنديكت** كيف يمكن للمنوال الثقافي أن يظهر في الطقوس والاحتفالات اليومية، مما يجعل كل مجتمع يُعبّر عن ذاته بطريقة مميزة وثابتة.

ومن هنا نجد أنّ بندكت أخذت نفس المنحى لبواس، ففي كتابها الشعبي «نماذج ثقافية» حاولت أن تبين أنّ كل ثقافة تحدد بدقة قسما معينا من عدد لا محدود من ضروب العلاقات الممكنة[3].

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول بأنّ مفهوم القوس الثقافي برز ليُعبّر عن العملية الزمنية الديناميكية التي تربط بين الماضي والحاضر في تشكيل الثقافة، يُمكن ربط هذا المفهوم بأبحاث ألكسندر جولدنوايزر، أيضا والذي ركز هو الآخر على التغير والتحول في النظم الثقافية.

وعليه يعتبر القوس الثقافي العملية التي من خلالها تتطور الثقافة عبر الزمن، فهو بمثابة جسر يربط بين الممارسات التراثية القديمة والعناصر الثقافية المعاصرة. يُظهر هذا المفهوم كيف يمكن للثقافة أن تدمج بين الاستمرارية والابتكار، بحيث تحتفظ بجوهرها الرمزي مع تجديد بعض مكوناتها لتواكب التغيرات الاجتماعية، وينطوي مفهوم القوس الثقافي على فهم أنّ القيم والعادات ليست ثابتة، بل تتشكل من خلال تفاعل طويل الأمد بين التقليد والحداثة. إذ يُساعد هذا المفهوم الباحثين على تفسير كيف أنّ الثقافات، رغم اختلافها الظاهري، قد تُظهر مسارات تطورية مشتركة من خلال إعادة تفسير موروثاتها.

ويمكن ملاحظة هذا المفهوم في المجتمعات التي تقوم بتجديد احتفالاتها التقليدية بإضافة عناصر عصرية دون فقدان الروح التراثية، مما يُجسّد بذلك القوس الثقافي.

ونلخص وفقا لِمَ سبق أهم أفكار بندكت في التالي:

- ✓ **الأنماط الثقافية** :كل ثقافة تُنتج نوعًا معينًا من الشخصيات أو الأنماط النفسية التي تؤثر في السلوك الفردي والجماعي. كانت ترى أنّ الأفراد في الثقافات المختلفة يتعلمون كيف يتصرفون بناءً على النماذج الثقافية التي تحددهم.
- ✓ **الثقافة كمحدد للشخصية** :قالت بنديكت إن كل ثقافة تولد شخصيات معينة، على سبيل المثال، في الثقافة اليابانية قد نرى تقاليد الانضباط الاجتماعي، بينما في الثقافة الأمريكية قد تكون هناك شخصية أكثر استعراضًا للذات والاندفاعية.

---

[1] مصباح عامر، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:121-125.

[2] ولد خليفة محمد العربي، ***مرجع سبق ذكره***، ص.51.

[3] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:128-129

✓ **الثقافة والعنف** :في دراستها لمجتمعات مثل ثقافة الجنوب الغربي الأمريكي، ربطت بين القيم الثقافية مثل احترام الوالدين، والعلاقات الأسرية، مع العنف الاجتماعي والتفاعل بين الأفراد.

- **مارغريت ميد** Margaret Mead (1901–1978):

تُعَدُّ مارغريت ميد من أبرز الباحثات في مجال الثقافة والشخصية، وقد ركزت أبحاثها على العلاقة بين البيئة الثقافية وتكوين الشخصية، خاصة في مراحل النمو والبلوغ، ومن بين اسهاماتها دراسة الطفولة والمراهقة من خلال أعمالها الشهيرة مثل *"الشباب في ساموا*[1](1928)" ، أين برهنت ميد على أنّ البيئة الثقافية تلعب دوراً محورياً في تشكيل التجارب الشخصية وقواعد السلوك، خاصة فيما يتعلق بتحديد الأدوار الجنسية والاجتماعية ، ووضحت أنّ التجارب النفسية والاجتماعية ليست حتمية بيولوجياً، بل تتأثر بشكل كبير بمحتوى الثقافة التي ينشأ فيها الفرد، لذا ركزت على كيفية انتقال قيم المجتمع ومعتقداته إلى الجيل الجديد، مما يؤثر في مسار تطور الشخصية على المدى الطويل.

وهنا تجدر الإشارة إلى ميل **ميد** نحو إبراز قابلية الأمور البشرية للتشكل البيولوجي النفسي القابلية التي هي كافية لجعل الترويض الثقافي لنماذج السلوك تتبع طرقا تختلف عن أنماط المراهقة الجامدة في ثقافة الطبقة الوسطى الأوروبية الأمريكية [2] .

أي أنها اهتمت أكثر بطرق توصيل الثقافة أي التنشئة والتطبيع، وقامت بدراسات حقلية واسعة على ثلاث قبائل من هنود غينيا الجديدة (الأرابيش، الموندوكمور، الشامبولي)، وحللت مختلف نماذج التربية وتأثيرها على نمط الشخصية بهدف التعرّف على الطريقة التي تتسجل بها الثقافة في ملمح الفرد[3].

كما قامت بدراسة الجنس والدور الاجتماعي في كتابها "الجنس والمراهقة في ساموا (Sex and Temperament in Three Primitive Societies)"، قارنت بين الأدوار الاجتماعية للجنسين في ثقافات مختلفة، وخلصت إلى أنّ سلوك الجنسي ليس ثابتًا بيولوجيًا، بل هو موجه ثقافيًا. وقالت إنّ الفروق بين الجنسين تتشكل وفقًا للثقافة ولا تقتصر على العوامل البيولوجية.

- **رالف لينتون** Ralph Linton (1893–1953):

يُعَدُّ رالف لينتون من بين الرواد الذين أسهموا في تطوير مفهوم الثقافة المتغيرة[4] ، بحيث أكّد على أنّ الثقافة ليست ثابتة، بل هي عملية ديناميكية تتطور باستمرار نتيجة للتفاعلات الاجتماعية، مما يؤدي إلى تأثير متجدد على الشخصيات الفردية والجماعية، وتناول لينتون من خلال أعماله العلاقة بين الوظائف الاجتماعية للثقافة وتأثيرها على السلوك الفردي، مؤيداً فكرة أنّ الثقافة توفر إطاراً وظيفياً يُمكّن الأفراد من فهم أدوارهم الاجتماعية والتفاعل مع مجتمعهم بفاعلية، مساهما بذلك في ردم الفجوة بين الدراسات النفسية والاجتماعية، ومؤكداً على أنّ تحليل الشخصية يجب أن يأخذ في الاعتبار البعد الثقافي والوظيفي الذي ينعكس في كل سلوك فردي.

---

[1] Cf: Mead, M, ***Coming of Age in Samoa***, New York, William Morrow,1928.

[2] كريستوف فولف، ***مرجع سبق ذكره***، ص.ص:128-129

[3] ولد خليفة محمد العربي، ***المرجع السابق***، ص.51.

[4] Cf: Linton, R, ***Cultural Adaptation: An Anthropological Introduction***, New York, Harper & Brothers, 1945.

فقد اعترض لينتون على مفهوم المنوال عند بندكت الذي يختزل الكل الثقافي في فسيل أو مقطع واحد ويرجعه إلى نمط سلوكي مهيمن، ويرى أنه من الممكن أن تتعايش عدّة منوالات ثقافية بطريقة طبيعية أي غير صراعية وتتعامل بوفاق داخل ثقافة واحدة، وتظهر شخصيات سوية متعددة في مجتمع واحد، إذ من المعروف أنّ الكثير من المجتمعات تتوفر على عدّة أنساق من القيم تتموضع على أساسها الأدوار والمكانات المخصصة لكل فرد ولكل فئة، ولا يمكن لشخص واحد أن يتمثّل ثقافة مجتمعه فهو لا يعرف من ثقافته سوى ما هو ضروري للتجاوب مع الوضعيات المكاناتية حسب السن والجنس والطبقة...[1]

وبالتالي يُعتبر **رالف لينتون** من الباحثين الذين سعوا إلى تفسير الجوانب الثابتة في تكوين الشخصية ضمن إطار الثقافة، وقد تناول مفهوم الشخصية القاعدية في أعماله التي تناولت التأثيرات الاجتماعية على السلوك.

فالشخصية القاعدية تُشير إلى النمط المستقر للسلوكيات والقيم التي تتوارثها الأجيال في مجتمع معين. وهي تلك الخصائص التي على الرغم من التغيرات الزمنية والتأثيرات الخارجية، تظل محافظة على شكلها الثابت وتُشكل جزءًا أساسيًا من هوية الفرد.

إذ يؤكد **لينتون** من خلال نظريته على أنّ الشخصية القاعدية تنبع من النظام التراثي والقيم الثقافية الراسخة في المجتمع، ما يجعلها بمثابة "القاعدة" التي يرتكز عليها سلوك الفرد في مختلف المجالات.

ويمكن ملاحظة هذا المفهوم في المجتمعات التي تُحافظ على تقاليد معينة في السلوك الاجتماعي، مثل الطقوس الدينية أو العادات الأسرية التي تنتقل عبر الأجيال، مما يضمن استمرارية الهوية الثقافية حتى مع تغير الظروف.

واجمالا لِمَ سبق يمكننا تلخيص أهم أفكاره في:

- ✓ اعتقد لينتون أنّ الشخصية لا تكون مجرد مزيج من الصفات الفردية، بل هي نتيجة للثقافة التي يعيش فيها الفرد. فالثقافة تعطي الأفراد الأدوات والأنماط السلوكية التي تحدد كيفية استجابتهم للمواقف المختلفة.
- ✓ قدم مفهوم "الدور الاجتماعي" الذي يصف الكيفية التي تؤثر بها الثقافة في تحديد دور الفرد في المجتمع، وأهمية فهم هذه الأدوار في إطار ثقافي معين.
- ✓ ركز على فكرة أنّ الثقافة ليست ثابتة، بل هي عملية ديناميكية تتغير باستمرار، ولهذا فإنّ شخصية الفرد تتشكل أيضًا وفقًا لهذه التغيرات الثقافية مع الاحتفاظ بالشخصية القاعدية.

إلى جانب **بنديكت وميد ولينتون**، ساهم عدد من الباحثين الآخرين في تطوير مدرسة الثقافة والشخصية، ومن أبرزهم **ألكسندر جولدنوايزر**[2] الذي ركّز على دراسة العلاقة بين العوامل البيئية والثقافية وتأثيرها في تشكيل الشخصية، وقدم تحليلات مقارنة بين المجتمعات التي تعاني من تغيرات

---

[1] ولد خليفة محمد العربي، ***مرجع سبق ذكره***، ص.51.

[2] Cf: Goldenweiser, A, ***Culture and Personality: An Introduction***, New York: Columbia University Press,1942.

ثقافية متسارعة وتلك المستقرة. إضافة **لإدوارد سابير**[1] الذي ساهم بدوره في فهم كيفية تداخل اللغة مع الثقافة والشخصية، مؤكدًا أنّ اللغة تُشكّل طريقة تفكير الأفراد وبالتالي تؤثر على هويتهم وسلوكهم.

- **كردنر والشخصية الأساسية:**

طوّر كاردنر مقولات لينتون بإعادة صياغة سؤاله السابق على النحو التالي: كيف تتكوّن الشخصية القاعدية عند الفرد؟ او ما هي العلاقة بين الشخصية القاعدية وأرضيتها الثقافية؟ وهي المسألة التي خصص لها لينتون بحثا مركزا، ليجيب كردنر على ذلك بقوله أنّ الفرد ليس مجرد مستودع لثقافة مجتمعه وأنّ مصدر التنوع السيكولوجي موجود في الثقافة نفسها باعتبارها منتوجا فرديا -جماعيا، كما أنّ التنوع الفردي ينزع على العموم إلى ما هو مشترك وهو أمر تقوم به عملية التنشئة والتطبيع والتربية التي لا يخلو منها أي مجتمع منذ نشأة الجماعة البشرية...[2]

ويرى "كردنر" أنه لمعرفة تكوّن الشخصية القاعدية ينبغي البدء بدراسة ما يسميه المنظمات الأولية وهي الأسرة والنظام التربوي الخاص بكل مجتمع ثمّ الانتقال إلى دراسة المنظمات الثانوية المتمثلة في أنساق القيم والمعتقدات...[3]

وبالتالي نجد أنّ كردنر قد ركز في دراساته على مفهوم **الشخصية الأساسية** التي تشير إلى الجوانب النفسية الأولية التي يُعتقد أنها تتكون بفعل العوامل البيولوجية والوراثية، والتي تُشكل اللب الداخلي لهوية الفرد، وفقًا لكروبر فإنّ هذه الشخصية تتأثر بشكل مباشر بالبيئة الثقافية التي ينشأ فيها الفرد، حيث تُحدد القيم والمعتقدات التي تُغذيها. بحيث أوضح أنّ البيئة الثقافية ليست مجرد خلفية سلبية، بل هي عامِل فعّال في تشكيل الشخصية الأساسية، حيث تُنظم تجارب الطفولة وتوجهها نحو بناء هوية فردية تتماشى مع متطلبات المجتمع.

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول بأنّ مدرسة الثقافة والشخصية قد ساهمت إلى حد كبير في تحويل الأنثروبولوجيا من دراسة وصفية بحتة إلى حقل يحلل العلاقة الديناميكية بين الفرد والثقافة، فقد ساهمت هذه المدرسة في توسيع أفق البحث الأنثروبولوجي حيث أدرك الباحثون أنّ الشخصية تتشكّل من خلال البيئة الثقافية والاجتماعية، مما فتح آفاقاً جديدة للدراسات المقارنة والتحليل النفسي الثقافي، خاصة بعد تأكيدها على أنّ الثقافة تُشكل الشخصية، وفي الوقت نفسه تُعاد إنتاج الثقافة من خلال سلوك الأفراد، مما يخلق دائرة تفاعلية معقدة.

لهذا لا تزال مفاهيم الثقافة والشخصية تؤثر في مجالات متعددة مثل علم النفس الاجتماعي، والدراسات الثقافية، والنقد الأدبي، حيث تُستخدم أدوات التحليل البنيوي والرمزي لفهم الظواهر الثقافية.

---

[1] Cf: Sapir, E, *Language: **An Introduction to the Study of Speech***, New York: Harcourt, Brace, 1921.

[2] ولد خليفة محمد العربي، ***مرجع سبق ذكره***، ص.53.

[3] ***المرجع نفسه***، ص.53.

3.5. الانتقادات الموجهة لنظريات مدرسة الثقافة والشخصية:

تُعد **مدرسة الثقافة والشخصية** كما رأينا من الاتجاهات البارزة في الأنثروبولوجيا الثقافية، وقد ارتبطت بأسماء مثل **روث بندكت** (Ruth Benedict)، و**مارغريت ميد** (Margaret Mead)، و**رالف لينتون** .(Ralph Linton) ، إذ قامت هذه المدرسة على فكرة أنّ لكل مجتمع "نمطًا ثقافيًا" يؤثر في تكوين شخصية أفراده، لكن رغم إسهاماتها المهمة، فقد تعرضت لعدّة انتقادات منهجية ونظرية، منها **المبالغة في تأثير الثقافة على الشخصية الفردية**، حيث اعتبرت أنّ الثقافة تشكل الأفراد بطريقة حتمية، متجاهلة العوامل الأخرى، مثل الفروق الفردية، والتأثيرات البيولوجية الوراثية، هذا الطرح جعل المدرسة عرضة لانتقادات من قبل علماء النفس والاجتماع الذين أكدوا أنّ الشخصية ليست مجرد انعكاس للثقافة، بل تتأثر أيضًا بالوراثة والتجربة الفردية. كما أُتهمت المدرسة باعتمادها على التعميم المفرط خاصة وأنها ركزت على تحديد "أنماط ثقافية" مهيمنة في كل مجتمع، لكنها **وقعت في فخ التعميم**، حيث صورت المجتمعات وكأنها تمتلك شخصية موحدة، متجاهلة التنوع الداخلي والاختلافات بين الأفراد. فعلى سبيل المثال، في كتابها *أنماط الثقافة* (Patterns of Culture)، قدمت روث بندكت المجتمعات على أنها تتميز بأنماط شخصية عامة (مثل الشخصية "الديونسية" أو "الأبولونية")، وهو ما تعارض مع الواقع الذي يُظهر تباينًا داخل المجتمعات نفسها.

ضف على ذلك إهمالها للتغير الاجتماعي والتاريخي فهي تركز على تحليل الثقافة والشخصية في لحظة زمنية محددة، لكنها **تغفل البعد الديناميكي للتغير الثقافي**، لذا وُجهت لها انتقادات بعدم الاهتمام بالعمليات التاريخية التي تؤثر في تطور الشخصية والثقافة، وهو ما جعلها أقل قدرة على تفسير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تشهدها المجتمعات عبر الزمن.

وعلى الرغم من أنّ المدرسة اعتمدت على **الملاحظة الميدانية والدراسات الإثنوغرافية**، إلّا أنّ بعض النّقاد اعتبروا أنّ **أساليبها البحثية لم تكن صارمة بما يكفي** .فعلى سبيل المثال، واجهت مارغريت ميد انتقادات بسبب دراستها عن المراهقين في ساموا، حيث شكك بعض الباحثين، مثل **ديريك فريمان** (Derek Freeman)، في دقة بياناتها واعتبروها متأثرة بتوقعاتها المسبقة.

وعلى الرغم من هذه الانتقادات، تبقى مدرسة الثقافة والشخصية ذات تأثير كبير في الأنثروبولوجيا، خاصة فيما يتعلق بفهم العلاقة بين الثقافة والنفسية البشرية. لكن التطورات اللاحقة في الأنثروبولوجيا، مثل **الأنثروبولوجيا النفسية الحديثة والنظريات البنيوية والتفاعلية**، عملت على تجاوز العديد من نقاط ضعف هذا الاتجاه من خلال تبني مناهج أكثر شمولية وديناميكية.

- **استنتاج:**

تمثّل مدرسة الثقافة والشخصية نقطة تحول في الأنثروبولوجيا، إذ نجحت في تسليط الضوء على العلاقة العميقة بين الثقافة وتكوين الشخصية، فمن خلال إسهامات روادها مثل **روث بنديكت، مارغريت ميد، ورالف لينتون وكاردنر**، تمّ بناء إطار نظري شامل يوضح كيف يُشكّل السياق الثقافي تجربة الفرد

وهويته. كما ساهمت أفكار الباحثين الآخرين في توسيع هذا الإطار وتطبيقه على نطاقات أوسع، مما أثرى الدراسات الأنثروبولوجية والإنسانية بشكل عام.

يمثل الربط بين هذه المفاهيم وصاحبيها حجر الزاوية لفهم مدرسة الثقافة والشخصية في الأنثروبولوجيا، فقد ساهمت أعمال **روث بنديكت** في تعريف المنوال الثقافي كبصمة ثابتة تميز كل مجتمع، بينما فسّر **ألكسندر جولدنو ايزر** الديناميكية الزمنية من خلال مفهوم القوس الثقافي. ومن جهة أخرى، أوضحت **مارغريت ميد** كيف تُشكل البيئة الثقافية الشخصية الأساسية للفرد، وأكد **رالف لينتون وكاردنر** على استقرار الشخصية القاعدية كنمط سلوكي متوارث يعكس التراث الثقافي للمجتمع. إذ تُشكل هذه المفاهيم معًا إطارًا نظريًا متكاملاً يساعد في تفسير العلاقة المعقدة بين الثقافة والشخصية، مما يُثري فهمنا للتفاعلات الإنسانية على المستويين الفردي والجماعي.

استنتاج عام

إنّ استعراض أهم النظريات الأنثروبولوجية، من التطورية إلى الوظيفية فالبنائية، مرورًا بالانتشارية، وصولًا إلى مقاربات الثقافة والشخصية، يكشف لنا عن مسار معرفي متدرج يعكس تطور الفكر الإنساني في فهم المجتمع والثقافة. فالتطورية سعت إلى رسم خط بياني لمسار المجتمعات، والوظيفية والبنائية ركزتا على فهم البنية الداخلية للمجتمع وآليات تماسكه، بينما حاولت الانتشارية تفسير التلاقح الثقافي عبر الاحتكاك والحركة، في حين أولت مقاربة الثقافة والشخصية اهتمامًا بالعلاقة الجدلية بين الفرد ومحيطه الثقافي. هذه النظريات، رغم اختلاف منطلقاتها وأدواتها، تكاملت في النهاية لتمنحنا صورة أكثر شمولًا عن الكائن الإنساني في سياقاته الاجتماعية والثقافية. وبذلك، فإن قيمة هذه الجهود لا تكمن في الإجابة النهائية عن أسئلة الإنسان والمجتمع، بل في قدرتها على فتح آفاق جديدة للتساؤل، وتوسيع مداركنا حول تنوّع التجارب الإنسانية عبر الزمان والمكان.

الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال: المنطلقات والأسس:

تمهيد:

تُمثّل دراسة الأنثروبولوجيا في الجزائر قبل الاستقلال مجالًا غنيًا لفهم كيفية تشكّل المعرفة حول المجتمع والثقافة في سياق استعماري. فالمنطلقات والأسس التي اعتمدتها هذه الدراسات لم تكن مجرد نتاج اجتهادات علمية بحتة، بل جاءت متأثرة بظروف تاريخية وسياسية وفكرية خاصة بتلك المرحلة. ومن خلال تتبّع هذا الإرث البحثي، يمكن إلقاء الضوء على الإطار الذي تشكّلت فيه الرؤى الأنثروبولوجية، وعلى الأسس النظرية والمنهجية التي وُظفت آنذاك، مما يتيح قراءة نقدية للمضامين والأهداف التي حملتها تلك الأعمال، وفهم أثرها في صياغة الصورة العلمية للمجتمع الجزائري قبل الاستقلال.

فما هي إذن أهم المنطلقات والأسس التي قامت عليها الدراسات الأنثروبولوجية للجزائر قبل الاستقلال؟

- **أولا. منطلقات الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال:**

كانت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال، تعتبر جزءًا من الاستكشاف الاستعماري الفرنسي، حيث كان العلماء الفرنسيون يدرسون المجتمعات الجزائرية لتوثيق الفروق الثقافية والعرقية بين المستعمرين والشعوب المحلية، ويمكن تلخيص بعض السمات الرئيسية لهذه الدراسات في النقاط التالية:

ت. دراسات الهيمنة الاستعمارية:

كانت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال تهدف إلى فهم المجتمعات المحلية وتصنيفها بما يتماشى مع الأفكار الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تبرير الهيمنة الاستعمارية.

ث. أبحاث في القبائل والعادات:

ركزت الدراسات على القبائل الجزائرية وعاداتها وتقاليدها، وعلى الفروق بين العرب، الأمازيغ، والقبائل الرحل.

ج. إهمال التاريخ السياسي والاجتماعي:

في العديد من الأحيان، كانت الدراسات الأنثروبولوجية تركز على دراسة الثقافات المحلية من دون الأخذ في الاعتبار تأثير الاستعمار على هذه الثقافات، أو تاريخ المقاومة والنضال الوطني.

بالرغم من الطابع الاستعماري للدراسات الأنثروبولوجية، كان هناك بعض الأنثروبولوجيين مثل **أوجين دوبوي ومارسيل غريول** الذين قدموا رؤى مفيدة حول الثقافة الجزائرية مع بعض النقد للممارسات الاستعمارية[1].

وعليه شهدت الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية (1830-1962) اهتمامًا متزايدًا بالدراسات الأنثروبولوجية، حيث سعى المستعمر إلى فهم المجتمع الجزائري وثقافته لتحقيق أهدافه الاستعمارية .

[1] بن عرفة، إبراهيم، وعالية، بشيرة. *"قراءة في أنثروبولوجيا الجزائر من 1830 إلى 1962"*. مجلة متون، المجلد 12، العدد 2، 2019 .

واعتمدت هذه الدراسات على منطلقات وأسُس متعددة، منها تحقيق **الأهداف الاستعمارية**، بحيث استُخدمت الأنثروبولوجيا كأداة لفهم البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري، بهدف تسهيل السيطرة الاستعمارية، أين قام الباحثون بدراسة العادات، والتقاليد، والنُظم الاجتماعية لتحديد نقاط القوة والضعف في المجتمع الجزائري، مما يساعد الإدارة الاستعمارية في تنفيذ سياساتها بفعالية أكبر[1].

فاعتمد الباحثون على العمل الميداني لجمع البيانات حول القبائل، واللغات، والممارسات الثقافية. هذه المعلومات كانت تُستخدم لتصنيف المجتمعات المحلية وتحديد استراتيجيات التعامل معها. مع سعي المستعمر إلى إبراز الفروق بين المجموعات السكانية المختلفة لتعزيز سياسة "فرّق تسُد"، فعلى سبيل المثال، تمّ التركيز على الاختلافات بين العرب والأمازيغ لتعميق الانقسامات الداخلية، كما أنشئت مؤسسات ومراكز بحثية متخصصة في دراسة المجتمع الجزائري، مثل "المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية" في باريس، والذي لعب دورًا في تدريب الباحثين على دراسة المجتمعات المستعمَرة.

وعليه ساهمت المعرفة المتعمقة بالمجتمع الجزائري في تصميم سياسات استعمارية أكثر فعالية، مثل إعادة هيكلة النظام القبلي وتطبيق قوانين خاصة بالمناطق المختلفة، وكذا تشكيل الصورة النمطية المستهدفة، بحيث أدت هذه الدراسات إلى ترسيخ صور نمطية عن الجزائريين، مما ساهم في تبرير السياسات الاستعمارية القمعية .في المقابل، استفاد قادة الحركة الوطنية من هذه الدراسات لفهم البنية الاجتماعية وتعبئة الشعب ضد المستعمر.

بعد الاستقلال، وُجّهت انتقادات حادة لهذه الدراسات باعتبارها منحازة وتخدم الأهداف الاستعمارية. رُفضت الأنثروبولوجيا لفترة طويلة في الجامعات الجزائرية لارتباطها بالماضي الاستعماري .ومع ذلك، شهدت الثمانينيات عودة تدريجية لهذا العلم بفضل جهود الباحثين الجزائريين لإعادة توجيهه نحو خدمة المجتمع.

وتأسيسا على ذلك لنا أن نتساءل:

ما هي أهم هذه الدراسات خاصة الدراسات الفرنسية على المجتمع الجزائري؟

- **ثانيا. الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية: مقاربات فكرية ومضامين معرفية:**

تميّزت المرحلة الاستعمارية في الجزائر، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، بإنتاج معرفي كثيف حول البُنى الاجتماعية والثقافية والدينية للمجتمع الجزائري. وقد أسهم العديد من الباحثين الفرنسيين في رسم صورة أنثروبولوجية للمجتمع المحلي، توزعت بين توصيف إثنوغرافي دقيق وتوظيف سياسي يخدم المشروع الكولونيالي. من بين أبرز هؤلاء الباحثين: **هانوتو ولوتورنو، بيار بورديو، إدموند دوتي، إميل ماسكاري، أندريه بيير، جاك بيرك، ورونيه باسيه:**

[1] سعيدي، محمد. *"الأنثروبولوجيا والتراث الشعبي في الجزائر: تاريخ ومسارات."* موقع أرنتروبوس.

1. دراسة هانوتو ولوتورنو Hanoteau et Letourneux[1] : إثنوغرافيا الوظيفة السياسية:

يُعدّ العمل المشترك بين الجنرال *هانوتو* والإداري الفرنسي *لوتورنو* من أبرز الدراسات الإثنوغرافية المبكرة حول الجزائر، حيث أصدرا في نهاية القرن التاسع عشر كتابًا بعنوان: **"La Kabylie et les coutumes kabyles" (1872)** تناول فيه المؤلفان التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والقانوني لدى القبائل الأمازيغية في منطقة القبائل الكبرى، خاصة العروش والقرى، والعلاقات القرابية والعُرفية، محاولين تفسير "الخصوصية" القبلية بمنطق وظيفي استعماري يُظهر البنية الاجتماعية كمعطى متصلب غير قابل للتحديث، مما خدم أهداف الإدارة الاستعمارية في "إعادة تنظيم" القبائل.

ليُشكل بذلك الكتاب مرجعاً إثنوغرافياً محورياً في التأسيس المبكر لما يمكن اعتباره "أنثروبولوجيا استعمارية" في الجزائر. في هذا المؤلَّف، يسعى الكاتبان إلى توثيق البنية الاجتماعية والتنظيمية والاقتصادية للقبائل الأمازيغية في منطقة القبائل الكبرى، مستهدفَين أساساً العروش كوحدة تنظيمية تقليدية، والعلاقات العُرفية التي تحكم الحياة اليومية.

يرتكز العمل على وصفٍ دقيق لتفاصيل الحياة الجماعية داخل العروش والقرى، من حيث أنماط السكن، تنظيم المجالس (تاجماعت)، أنماط التملك الجماعي، علاقات القرابة والمصاهرة، وآليات فض النزاعات. ويتخذ المؤلفان من العرف (العادات والتقاليد) محوراً تحليلياً لفهم كيف تنظّم القبيلة ذاتها، خارج الإطار المؤسسي للدولة الحديثة[2].

من الناحية المنهجية، ينطلق الكاتبان من منظور وصفي يعتمد على الرصد المباشر والتوثيق النصي والمقارنة، وهو ما يمنح العمل قيمة توثيقية عالية رغم طابعه الوظيفي. تُقدّم العروش كأنظمة قانونية مستقلة تقريباً، تعتمد على "الديمقراطية التوافقية" في تسيير شؤونها، حيث تلعب الجماعة (الجماعة القروية) دوراً أساسياً في اتخاذ القرارات وتوزيع المهام.

كما تتناول الدراسة **البنية الاجتماعية كأداة للتثبيت السياسي**، فرغم الثراء الإثنوغرافي للعمل، لا يمكن فصله عن الخلفية السياسية التي أنتجته. فقد أُنجز الكتاب في سياق استعماري واضح، وبتكليف إداري-عسكري، ما يجعل الخطاب الذي يقدّمه يتقاطع مع أهداف الإدارة الفرنسية في "فهم" القبائل بهدف التحكم فيها. يتجلى ذلك في النزعة إلى تصوير البنية القبلية بوصفها كياناً تقليدياً متماسكاً، غير قابل للتطور أو الإدماج في المنظومة الحديثة، ما يبرّر -ضمنياً - استمرارية التدخل الخارجي وتنظيم السلطة بوساطة الإدارة الكولونيالية[3].

---

[1] Hanoteau, A., & Letourneux, A. (1872). *La Kabylie et les coutumes kabyles*. Paris: Imprimerie nationale.

[2] AGERON, Charles-Robert. ***Les Algériens musulmans et la France, 1871-1919***. Paris : Presses Universitaires de France, 1968.

[3] HANNI, Nadia. ***L'ethnographie coloniale en Algérie : production du savoir et usages politiques (1830-1954)***. Thèse de doctorat en sociologie, Université Paris 8, 2012.

إن الوصف المفرط "للتقاليد" والتركيز على الطابع العرفي والمجالس الجماعية يُستخدم كأداة سياسية لإبراز ما اعتبره الكاتبان "اختلافاً جوهرياً" بين القبائل والمجتمع الفرنسي، مما يعزز فرضية "الإدارة غير المباشرة" التي تبنتها فرنسا، والقائمة على توظيف البنى التقليدية في فرض السيطرة دون تفكيكها.

ورغم خلفيته الأيديولوجية، يُعدّ هذا العمل من بين أهم المراجع الإثنوغرافية التي سبقت مرحلة التدوين الأكاديمي المحلي للثقافة الجزائرية. فقد استفاد منه لاحقاً العديد من الباحثين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين، مثل **بيار بورديو** و**عبد الملك بن نبي** و**مولود معمري**، إما في سياق النقد أو لإعادة تأويل معطياته.

من المهم الإشارة إلى أن الكثير من المعطيات التي تضمّنها الكتاب تؤكّد على وجود نظم تنظيمية متقدمة لدى القبائل، مثل العدالة العرفية الجماعية وتوزيع الأراضي الجماعية وتقنيات التفاوض وحل النزاعات، وهي ممارسات قد يُعاد النظر فيها اليوم ضمن مقاربة أنثروبولوجية ما بعد كولونيالية تُفكّك تمثّلات الآخر التي صاغها الخطاب الكولونيالي[1].

إن دراسة **هانوتو ولوتورنو** لا يمكن قراءتها خارج سياقها السياسي والاستعماري، لكنها في ذات الوقت تحمل قيمة معرفية كمصدر تاريخي مهم لفهم البنية الاجتماعية الجزائرية في نهاية القرن التاسع عشر. ويفرض هذا التداخل بين البحث والسياسة على الباحثين اليوم مسؤولية إعادة قراءة مثل هذه الأعمال بعين نقدية، تُميّز بين المعطى الإثنوغرافي والتوظيف الإيديولوجي.

2. بيار بورديو: من إثنوغرافيا الاستعمار إلى سوسيولوجيا الهيمنة:

في كتابه **"Sociologie de l'Algérie" (1958)**[2]، تجاوز *Pierre Bourdieu* الطرح الكولونيالي التقليدي، مقدمًا قراءة سوسيولوجية نقدية للبُنى الاجتماعية الجزائرية. تناول بورديو التحولات التي أحدثها الاستعمار في الاقتصاد التقليدي، خاصة انتقال الفلاحين من الريف إلى المدن، وما ترتب عن ذلك من بؤس اجتماعي وهيمنة ثقافية[3]. استعمل مفاهيم مثل *الهابيتوس* و*العنف الرمزي* لتفسير كيفية إعادة إنتاج الخضوع داخل العلاقات الاجتماعية، مما أرسى أسس سوسيولوجيا نقدية لفهم الواقع الكولونيالي وما بعده.

تُعدّ أعمال **بيار بورديو** حول الجزائر من أبرز المحاولات السوسيولوجية لفهم تحولات المجتمعات المستعمَرة في ظل التغيرات العنيفة التي أحدثها الاستعمار[4]. وقد شكّلت دراسته للمجتمعات القبلية، خاصة في منطقة القبائل الكبرى، منطلقًا لتطوير مفاهيمه النظرية التي ستصبح لاحقًا علامات فارقة في السوسيولوجيا النقدية المعاصرة، مثل *الهابيتوس* و*العنف الرمزي* و*رأس المال الرمزي*.

---

[1] LORET, Pierre. ***« Ethnographie coloniale et construction du savoir sur l'Autre : le cas de la Kabylie au XIXe siècle »***, *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, vol. 52, n°4, 2005, pp. 58-75.

[2] Bourdieu, Pierre. ***Sociologie de l'Algérie***. Paris: PUF, 1958.

[3] BOURDIEU, Pierre. ***Le Déracinement. La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie***. Paris : Éditions de Minuit, 1964.

[4] Swartz, David. ***Culture and Power: The Sociology of Pierre Bourdieu***. University of Chicago Press, 1997.

إذ تناول **القبائل كمجال للتحول الســوســيو-تاريخي** منطلقا من ملاحظة مركزية مفادها أن النظام القبلي في الجزائر، الذي كان قائمًا على أنماط تضـامن تقليدية وتنظيم اقتصـادي مكتفٍ ذاتيًا، دخل طور التفكك مع دخول المنظومة الاسـتعمارية. وقد حلّل في مؤلفه المشـترك مع عبد المالك الصـياد[1] *"العودة إلى الجزائر*(1964)" ، وكذلك في *"سـوسـيولوجيا الجزائر*(1958)" ، ديناميكيات هذا التحول، مبرزًا كيف أن الاستعمار لم يقتصر على فرض سيطرة عسكرية، بل زعزع البنى الرمزية والاجتماعية العميقة للجماعات المحلية.

لم يركّز **بورديو** على العنف الفيزيقي المباشـر فحسـب، بل أبدع في الكشـف عن *العنف الرمزي* الذي مارسـته المنظومة الكولونيالية، حيث فُرض منطق الدولة الغربية الحديثة على أنماط عيش لم تُنتج بنيتها السياسية والاجتماعية داخليًا. فالنظام المدرسي، والإدارة الاستعمارية، وحتى السياسات الزراعية، كانت أدوات لإخضاع المجتمعات التقليدية وإعادة تشكيل عاداتها الإدراكية وتصوراتها للعالم[2].

كما وضّح سيرورة الانتقال من **الاقتصاد القبلي إلى البؤس الحضري** مبرزا كيف ساهمت السياسات الاستعمارية في نزع سكان القبائل من أراضيهم، وهو ما أدّى إلى انكسار البنية الاقتصادية التقليدية التي كانت قائمة على الفلاحة والتبادل المحلي. ومع التهجير القسري نحو المدن والمخيمات، ظهر نمط جديد من الفقر، وصفه **بورديو** بـ*البؤس الحضري*، إذ لم يكن فقرًا ماديًا فحسب، بل *فقرًا في رأس المال الرمزي والثقافي*، جعل الأفراد يعيشون قطيعة مع أنساقهم المرجعية دون أن يُدمَجوا حقًا في عالم الحداثة[3].

كما قدّم **بورديو** مفهوم ***الهابيتوس*** كأداة تحليل لفهم كيف يُعيد الأفراد إنتاج أنماط تفكيرهم وسـلوكهم في ظل الشـروط الاجتماعية المفروضـة[4]. وفي حالة القبائل الجزائرية، أظهر كيف أن هذا الهابيتوس التقليدي صـمد لفترة، لكنه بدأ في التآكل حين وجد نفسـه عاجزًا عن التفاعل مع منطق الاقتصـاد الرأسـمالي الحديث. ومع ذلك، ظل الهابيتوس القبلي يوجّه بعض السـلوكيات والاختيارات، خاصة في المناطق الهامشية أو في أوساط المهاجرين الجزائريين في فرنسا.

وهو من المفاهيم المركزية التي قدّمها بورديو في تحليله للواقع الجزائري **(habitus)**، أي ذلك النسـق من الاسـتعدادات الذهنية والعملية التي تُشـكّل نظرة الأفراد إلى العالم وتوجهاتهم داخله[5]. وقد مكّنه هذا المفهوم من تفسـير أنماط السـلوك التقليدي، ليس كمعطى ثقافي جامد، بل كاسـتجابة تاريخية مشـروطة بالبنية الاجتماعية.

---

[1] Bourdieu, Pierre & Sayad, Abdelmalek. ***Le déracinement: La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie.*** Paris: Éditions de Minuit, 1964.

[2] بوحسـون، العربي. *"المقاربة التاريخو-أنثروبولوجية للاسـتعمار الفرنسـي في الجزائر (1830-1962)."* المجلة الجزائرية للبحوث والدراسـات التاريخية المتوسـطية، المجلد 1، العدد 1، 2015 .

[3] Wacquant, Loïc. ***"Symbolic Power and Group-Making: On Bourdieu's Theory of the Political." Theory and Society***, 2005.

[4] SWARTZ, David. ***Culture and Power: The Sociology of Pierre Bourdieu***. Chicago: University of Chicago Press, 1997.

[5] HARKER, Richard, MAHAR, Cheleen, WILKES, Chris (eds.). ***An Introduction to the Work of Pierre Bourdieu: The Practice of Theory***. London: Macmillan, 1990.

تجاوزت أهمية دراسة **بورديو** للقبائل الجزائرية حدود الموضوع الإثنوغرافي، فقد مكّنته من صياغة أدوات تحليلية لفهم السلطة الرمزية، وإعادة إنتاج الهيمنة، ودور الدولة في إعادة تشكيل الحياة اليومية[1]. وقد أصبحت تلك المفاهيم، خاصة بعد نقله إياها إلى الحقل الفرنسي لاحقًا، جزءًا من العُدّة النظرية التي يستعين بها الباحثون في تحليل المجتمعات ما بعد الكولونيالية، والهامشية، والفوارق الطبقية المعاصرة.

في كتابه المذكور، يتناول **بورديو** التحوّلات التي مسّت البُنى القَبَلية والريفية الجزائرية بفعل الاستعمار، حيث أدّى تدمير أسس الاقتصاد الزراعي التقليدي إلى انزياح جماعي نحو المدن، دون أن ترافقه عملية إدماج فعلي ضمن المنظومة الحضرية الحديثة. هذا "النزوح غير المتحقق" – حسب تعبير بورديو – خلق **فجوة سوسيولوجية** تمظهرت في التفكك العائلي، والتعطل الثقافي، وولادة شكل جديد من "البؤس الحضري"، لا هو ريفي ولا هو مديني.

فمن خلال أدواته النظرية، وبخاصة مفهوم **العنف الرمزي**، عرّى بورديو الأساليب غير المادية التي مارستها السلطة الاستعمارية في فرض نموذجها القيمي والمعرفي على السكان المحليين، وذلك عبر المدرسة، اللغة، والقانون. فالعنف الرمزي ليس عنفًا جسديًا، بل هو فرض للمعنى، للشرعية، وللتصنيفات الاجتماعية، بطريقة تجعل المضطهد يتبنى منظومة الاضطهاد ويعيد إنتاجها دون وعي..

وبذلك، لم يقدّم **بورديو** مجرد قراءة للبنى التقليدية الجزائرية، بل كشف عن **ديناميكية التحول والتفكك** في ظل علاقة غير متكافئة بين المستعمِر والمستعمَر، مؤسسة على هيمنة مادية ورمزية في آنٍ واحد.

ما يميّز تحليل **بورديو** عن غيره من الباحثين الكولونياليين أو الإثنوغرافيين التقليديين – كهانوتو ولوتورنو – هو انخراطه في تفكيك العلاقة الاستعمارية نفسها بوصفها **علاقة قهر معرفي وثقافي**، وليست مجرد ملاحظة إثنوغرافية. لقد أسّس من خلال تجربته الجزائرية لجزء مهم من **نظريته في الهيمنة البنيوية**[2]، والتي ستجد لاحقًا امتداداتها في دراسته لحقول السلطة، التربية، والذوق الثقافي.

3. إدموند دوتي: الدين الشعبي والطرق الصوفية:

أوْلَى *Edmond Doutté*[3] اهتمامًا بالغًا بالمعتقدات الدينية في الجزائر، وركز على الطقوس، والزيارات، والطرق الصوفية. من خلال أعماله الميدانية، أبرز كيف تتداخل العقيدة الدينية مع الموروث الثقافي الشعبي، مفسرًا الأدوار الاجتماعية للزوايا والمشايخ في تنظيم الحياة الروحية، بل والسياسية أحيانًا، في المجتمعات الريفية. تعكس دراساته فهمًا عميقًا لتمفصلات الدين مع الهوية والمجتمع.

قام بدراسات ميدانية حول المعتقدات والممارسات الدينية في الجزائر، مسلطًا الضوء على الطرق الصوفية وتأثيرها في المجتمع.

---

[1] Robbins, Derek. ***The Work of Pierre Bourdieu: Recognizing Society***. Open University Press, 1991.

[2] LAHOUARI, Addi. ***La sociologie de Bourdieu : Textes choisis***. Alger : Éditions Casbah, 2005.

[3] DOUTTÉ, Edmond. ***Magie et religion dans l'Afrique du Nord***. Alger : Jourdan, 1908 (rééd. Paris : Maisonneuve & Larose, 1984). Decitre+15ccdsghardaia.org+15ccfr.bnf.fr+15

تميّزت دراسات **دوتي** بتركيزها على البعد الديني في الثقافة الجزائرية، لا سيما من خلال عمله "السحر والإسلام في المغرب*Magie et religion dans l'Afrique du Nord*"، والذي تضمّن ملاحظات ميدانية دقيقة حول المعتقدات الشعبية، الطقوس الصوفية، والممارسات الروحية المنتشرة في المجتمع الجزائري.

وقد اعتبر **دوتي** الطرق الصوفية، مثل القادرية والتيجانية، عناصر مؤثرة في التوازن الاجتماعي، حيث تؤدي دورًا مزدوجًا بين الوظيفة الدينية والسلطة الرمزية. كما عاين كيف تُنتج هذه الطرق شبكات اجتماعية منظمة تتجاوز البُعد الطقسي، متوغلة في البنية السياسية والاجتماعية المحلية.

4. إميل ماسكاري: القبيلة والبنية الاجتماعية:

ركز *Émile Masqueray* على القبائل الأمازيغية في منطقة الأوراس، محللًا التنظيم العُرفي، ونظام القرابة، وأشكال التعاون الاقتصادي. وقد اعتبر أن للقبائل الجزائرية أنظمة قانونية واجتماعية مستقلة عن الشريعة الإسلامية، وهو ما استخدمته الإدارة الفرنسية لتكريس سياسة "الأهالي" وازدواجية القوانين. ومع ذلك، تبقى كتاباته مرجعًا مهمًا لفهم الديناميكيات الاجتماعية التقليدية في مناطق الجبال.

وبالتالي ركزت أبحاثه على البنية الاجتماعية للقبائل الجزائرية، خاصة في منطقة الأوراس، حيث درس التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للقبائل البربرية.

علما أنه ينتمي إلى جيل مبكر من الإثنوغرافيين الذين سبروا البنية القبلية للمجتمع الأمازيغي. ركّزت أعماله، خاصة كتابه *Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie*[1]، على القبائل المستقرة في منطقة الأوراس، متناولًا أشكال التنظيم الاجتماعي القائم على العروش، تقسيمات الأرض، ونظام الإرث والتعاون القروي.

اعتبر **ماسكاري** أن لهذه البُنى التقليدية استقرارًا تاريخيًا نسبيًا، وأنها تمثل نسقًا متكاملًا بين العادات والأعراف والتنظيم الاقتصادي، ما دفع بالإدارة الاستعمارية إلى محاولة "فهمها" لاستغلالها في سياسات التفكيك أو السيطرة.

5. أندريه بيير: الريف كمجال إثنوغرافي:

اهتم *André Pierre* بالمجتمعات الريفية في شمال الجزائر، مركزًا على العلاقات الاجتماعية داخل القرى، أنماط الزواج، والعلاقات الاقتصادية بين الأسر. استندت أعماله إلى ملاحظات ميدانية دقيقة، وأسهمت في إبراز غنى البنى التقليدية وتنوعها. كما عكست أبحاثه اهتمامًا بمسألة التغير الاجتماعي نتيجة التمدين وتغلغل الإدارة الكولونيالية.

تأتي أهمية أعمال **أندريه بيير** من تركيزه على الريف الجزائري، حيث قدّم توصيفًا دقيقًا للمجتمعات الزراعية من حيث الهيكلة الاجتماعية، توزيع الأدوار، وتوارث الأعراف الجماعية. في دراسته للمجتمعات القروية بمنطقة تلمسان، أبرز كيف تنتج هذه المجتمعات نُظمًا عُرفية لتنظيم المياه، توزيع الأراضي، وحل النزاعات، وهو ما يعكس قدرة التنظيم الذاتي بعيدًا عن الدولة الحديثة.

---

[1] MASQUERAY, Émile. ***Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie: Kabyles du Djurdjura, Chaouïa de l'Aourâs, Béni Mezâb***. Paris : Ernest Leroux, 1886 (réédition fac-similé : Aix-en-Provence, Édisud - Archives maghrébines, 1983). Decitre+5hachettebnf.fr+5Persée+5

وقد شدّد على مركزية القيم الجماعية والعلاقات القرابية في صوغ الحياة اليومية للمجتمع الريفي، موفرًا بذلك مادّة ميدانية مهمّة للتحليل السوسيولوجي في سياق استعماري.

6. جاك بيرك: السوسيولوجيا التأملية للمجتمع الاستعماري:

يُعتبر *Jacques Berque* من القلائل الذين تبنوا مقاربة نقدية تجاه الاستعمار. ركز في كتابه **"Le Maghreb entre deux guerres"**[1] على التحولات البنيوية التي عرفها المجتمع الجزائري تحت ضغط الحداثة القسرية والهيمنة الفرنسية. جمع بين التحليل السوسيولوجي العميق والرؤية الإنسانية للمجتمعات المغاربية، مما جعله مرجعًا في دراسة التغير الثقافي والاجتماعي في السياقات الاستعمارية.

وعلى الرغم من قدومه في فترة لاحقة، إلّا أنّ أعماله حول المجتمع الجزائري تُعتبر مرجعًا هامًا، حيث درس التغيرات الاجتماعية والثقافية في الجزائر خلال فترة الاستعمار.

يُعدّ **بيرك** من أكثر الباحثين تعاطفًا مع الشعوب المستعمَرة، إذ أسّس أعماله على نقد الاستعمار وتحليل أثره في تفكك المجتمعات المغاربية. مقدّمًا بذلك تحليلاً معمقًا للتغيرات البنيوية التي طالت المجتمع الجزائري بين الحربين العالميتين، مع التركيز على التحولات الطبقية، التمدين القسري، وتداعيات الاقتصاد الكولونيالي على البنى التقليدية. **بيرك** لم يكتف بالوصف، بل حاول تفسير مآلات الهوية الثقافية الجزائرية في ضوء الحداثة المفروضة، مقدّمًا بذلك أطروحة متقدمة في سوسيولوجيا التغير الاجتماعي تحت الاستعمار.

7. رونيه باسيه: اللغة والتعدد الثقافي:

اهتم *René Basset* بالجوانب اللغوية، فدرس اللهجات البربرية والعربية، وساهم في تصنيفها وفهم ديناميكياتها داخل النسيج الثقافي الجزائري. عكست أبحاثه فهمًا للتداخل اللغوي بوصفه معبرًا عن تفاعل الهويات والانتماءات. كما أسهم في إبراز أهمية اللغة في إعادة إنتاج الرموز الثقافية.

ركزت أبحاثه على اللغات واللهجات في الجزائر، وساهمت في فهم التنوع اللغوي وتأثيره على الهوية الثقافية.

توجّهت اهتمامات **باسيه** إلى دراسة البُعد اللغوي والثقافي، حيث يُعتبر من أبرز مؤسسي الدراسات البربرية واللغات المحلية في الجزائر. من خلال أعماله المنشورة في *Revue Africaine*[2]، والتي وثّق من خلالها اللهجات الأمازيغية وتفرّعاتها في مختلف المناطق، مسلطًا الضوء على دور اللغة كحاملة للهوية والانتماء.

وقد ساهمت تحليلاته في إبراز التعدد اللغوي في الجزائر، وربطه بالبُعد الثقافي والديني، كما ساعدت أعماله لاحقًا على فهم سياسات التفرقة الاستعمارية التي غذّت التمايزات اللسانية لصالح التفكيك المجتمعي.

---

[1] BERQUE, Jacques. ***Le Maghreb entre deux guerres***. Paris : Maspero, 1958.

[2] BASSET, René. ***La religion des Berbères de l'antiquité jusqu'à l'islam***. Paris : Belles Lettres, 1900

استنتاج عام:

خلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830-1962)، أُنجزت العديد من الدراسات الأنثروبولوجية التي سعت إلى فهم المجتمع الجزائري وثقافته .هذه الدراسات، التي أُجريت غالبًا من منظور استعماري، كانت تهدف إلى تسهيل السيطرة على السكان المحليين من خلال فهم بنيتهم الاجتماعية والثقافية .

إذ تكشف هذه الأعمال مجتمعة عن تعددية زوايا النظر إلى المجتمع الجزائري: بين الوظيفة السياسية، والتحليل السوسيولوجي، والدراسة اللغوية والدينية. وإن كانت بعض هذه الدراسات قد خضعت لمنطق الاستعمار، فإن جزءًا منها شكّل أرضية خصبة لفهم البُنى الاجتماعية والثقافية الجزائرية في تعقيداتها وتحولاتها، مما يُبرز أهمية القراءة النقدية لهذه الإنتاجات في سياقها التاريخي والمعرفي.

ومن هنا يمكننا القول بأنّ هذه الدراسات تُظهر اهتمام الباحثين الفرنسيين بفهم المجتمع الجزائري من جوانب متعددة، بما في ذلك الدين، واللغة، والبنية الاجتماعية، والثقافة .ومع ذلك، يجب النظر إلى هذه الأعمال بعين النقد، نظرًا لارتباطها بالسياق الاستعماري وأهدافه.

واجمالا لِمَ سبق يمكننا القول بأنّ الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال كانت ذات طابع استعماري بحت، تهدف إلى فهم المجتمع الجزائري لخدمة مصالح المستعمر .ورغم الانتقادات التي وُجّهت إليها، إلا أنها قدّمت معلومات قيمة عن البنية الاجتماعية والثقافية للجزائر، يمكن إعادة قراءتها وتحليلها من منظور وطني يخدم فهم تاريخنا وهويتنا.

غير أنّ الأنثروبولوجيا تساير دينامية الإنسان في إطار دينامية مجتمعه وثقافته، لذا برز فرع مهم من فروع الأنثروبولوجيا يحاكي التطورات السريعة والتغيرات التي شهدتها الثقافات العالمية المختلفة في إطار ما يسمى **بالأنثروبولوجيا الرقمية**:

فما هي الأنثروبولوجيا الرقمية؟

الأنثروبولوجيا الرقمية: الإنسان في عصر التكنولوجيا:

تمهيد:

- **أولا. الأنثروبولوجيا الرقمية: المفهوم والمنطلق:**

مع الثورة الرقمية، ظهر فرع جديد يُعرف بـــ**الأنثروبولوجيا الرقمية**، الذي يدرس تأثير التكنولوجيا الرقمية على التفاعلات الاجتماعية والثقافية. يحلل هذا الفرع كيف تؤثر وسـائل التواصـل الاجتماعي، والذكاء الاصطناعي، والتجارة الإلكترونية، والألعاب الرقمية على الهوية والعلاقات الإنسانية.

تتناول الأنثروبولوجيا الرقمية مواضيع مثل **تغير أنماط التواصل في الفضاء الإلكتروني**، وتأثير الذكاء الاصـطناعي على العمل والتفاعل الاجتماعي، والتحولات في المفاهيم الثقافية للخصـوصـية والهوية في العصر الرقمي.

بفضل هذا الفرع، أصبح بالإمكان فهم كيفية إعادة تشكيل المجتمعات من خلال التكنولوجيا، وما إذا كانت الرقمنة تعزز التنوع الثقافي أو تؤدي إلى التجانس الثقافي العالمي.

إذ في عالم باتت تتحكم فيه الشبكات الرقمية وتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي في كثير من أبعاد حياتنا، أصبح فهم العلاقة بين الإنسان والتقنية ضرورة معرفية ملحة. وإزاء هذه الحقيقة، برزت **الأنثروبولوجيا الرقمية** كحقل معرفي معاصـر يدرس التفاعل بين الثقافة والتقنيات الرقمية، مسـتندًا إلى مناهج أنثروبولوجية تقليدية ومتجددة في نفس الوقت .

تُعدّ الأنثروبولوجيا الرقمية **Digital Anthropology** إذن تخصـصـاً علمياً حديثاً [1]يُعنى بدراسـة التفاعل بين الإنسـان والتكنولوجيا الرقمية، وكيف تسـهم هذه الأخيرة في تشـكيل الثقافات، الهويات، وأنماط الحياة في الوقت المعاصـر[2]. ولقد تطور هذا الفرع ضـمن الحاجة لفهم التحولات الاجتماعية الناتجة عن الاستخدام الواسع للمنصات الرقمية والذكاء الاصطناعي.

وبالتالي برزت الأنثروبولوجيا الرقمية في تسـعينيات القرن الماضـي مع بروز المجتمعات الافتراضـية كظواهر ثقافية تحتاج إلى تفسـير سـوسـيولوجي وأنثروبولوجي، وتطورت تدريجياً لتشـمل دراسـة وسـائل التواصل الاجتماعي، الهواتف الذكية، الألعاب الرقمية، والبيانات الضخمة[2]. ومن الأعمال التأسيسية في هذا المجال كتاب **Coming of Age in Second Life** لـ**توم بويلسـترف Tom Boellstorff** الذي أثبت أن العوالم الافتراضية تمثل حقولًا ثقافية قائمة بذاتها[3].

---

[1] من بين الأسماء البارزة في هذا المجال:

BOELLSTORFF Tom، عبر كتابيه "Coming of Age in Second Life" و"Digital Anthropology"

COLEMAN Gabriella، بدراساتها حول حركةAnonymous

MANOVICH Lev، عبر أطروحته حول التحليل الثقافي الرقمي

PINK Sarah، بإسهامها في الإثنوغرافيا البصرية والرقمية

MILLER Danielو**HORST Heather**، اللذان أسهما في تطوير النيتنوغرافيا التطبيقية.

[2] BOELLSTORFF Tom, ***Coming of Age in Second Life: An Anthropologist Explores the Virtually Human***, Princeton University Press, 2015.

- **ثانيا. الأنثروبولوجيا الرقمية: المفاهيم والمجالات:**

يقوم هذا الفرع العلمي على جملة من **المفاهيم المركزية** التي تعكس مواضيعه المختلفة واهتماماته المعرفية، منها:

- ✓ **الحقول الرقمية:** وهي البيئات الافتراضية التي تُدرس كفضاءات ثقافية وسياقية.
- ✓ **النيتنُوغرافيا Netnography** : طورها الباحث كوزينيتسKozinets ، وتعني دراسة المجتمعات الافتراضية من خلال الملاحظة بالمشاركة عبر الإنترنت[1].
- ✓ **التحليل الثقافي الرقميCultural Analytics** : كما عند ليف مانوفيتشLev Manovich ، الذي يقترح استخدام أدوات الذكاء الاصطناعي لتحليل الصور والبيانات الرقمية كأشكال ثقافية[2].

تعتمد الأنثروبولوجيا الرقمية على مجموعة من الأساليب، منها:

- **الملاحظة بالمشاركة الرقمية** داخل المنصات الاجتماعية والألعاب التفاعلية
- **تحليل المحتوى الرقمي** كالمنشورات، الفيديوهات، والرموز
- **تحليل الشبكات الرقمية** بين الأفراد والجماعات
- **الإثنوغرافيا متعددة المواقع** التي تجمع بين الواقع والافتراضي[3].

غير أنّ الأنثروبولوجيا الرقمية في معالجتها لمواضيعها بالدراسة والتحليل كتخصص أكاديمي حديث النشأة تواجه عديد الإشكالات منها:

- غياب الحدود بين الخاص والعام في الفضاء الرقمي
- إشكالية الحصول على موافقة الأفراد المدروسين
- إمكان انحياز الخوارزميات المستعملة في التحليل
- إشكالية "الاستعمار الرقمي" في إعادة إنتاج التمثيلات الثقافية[4]

غير أنها تكتسي أهمية علمية بالغة في مسايرة التغيرات التي تشهدها المجتمعات وتأثيرها على أنماط العيش بها، وكذا تغير هندسة العلاقات الاجتماعية والسياقات الثقافية وتداعياتها المختلفة.

لذلك ترتبط آفاق الأنثروبولوجيا الرقمية بالتطور التكنولوجي المستمر، خصوصاً في مجالات الذكاء الاصطناعي، الواقع المعزز، والميتافيرس. ويوصى بما يلي:

- ✓ إدماج التكوين في أدوات التحليل الرقمي في برامج تكوين الأنثروبولوجيين
- ✓ تطوير ممارسات أخلاقية تتناسب مع العالم الرقمي
- ✓ الانفتاح على التخصصات المتقاطعة مثل الإعلاميات والاتصال والعلوم السياسية[5].

---

[1] KOZINETS Robert, ***Netnography: The Essential Guide to Qualitative Social Media Research***, SAGE, 2015.
[2] MANOVICH Lev, ***Cultural Analytics***, The MIT Press, 2020.
[3] COLEMAN Gabriella, ***Coding Freedom: The Ethics and Aesthetics of Hacking***, Princeton University Press, 2012.
[4] UNESCO, ***Digital Anthropology: Implications for Human Rights and Cultural Heritage***, 2021.
[5] AMERICAN ETHNOLOGIST, ***"Professionalizing Anthropology for the Digital Turn"***, *American Anthropologist*, Vol. 122, No. 3, 2020.

واجمالا لِمَ سبق، ينقسم **المجال إلى ثلاثة محاوررئيسية**:

1. دراسة الظواهر الرقمية نفسها – مثل الثقافات التقنية، المجموعات الافتراضية، القراصنة.
2. فهم أثر التكنولوجيا الرقمية على المجتمعات التقليدية.
3. استكشاف التغيرات في طبيعة الأنثروبولوجيا باعتبارها حقلًا معرفيًا في حد ذاته.

ويعتمد الباحثون في هذا المجال على **الإثنوغرافيا الرقمية** digital ethnography، وهي تطبيق للتقليد الإثنوغرافي داخل فضاءات الإنترنت، بما في ذلك ملاحظة المجتمعات الرقمية، مشاركتها، ومقابلات مع الفاعلين يترافق مع ذلك تحليل كمي للبيانات الرقمية كالتدوينات، الشبكات الاجتماعية، والأنماط التفاعلية، وفي بعض الحالات، يُستخدم تحليل **شبكات البيانات netnography** لتتبع العلاقات والتفاعلات عبر المنصات الرقمية، وتحليل المحتوى، ووجهات النظر الشعبية ضمن مجتمع رقمي محدد[1].

وبالتالي تقوم الأنثروبولوجيا الرقمية على **دراسة المحاور الرئيسية** التالية:

أ. الهوية الذاتية الرقمية:

بحث الباحثون كيف تُبنى الهوية عبر مواقع التواصل الاجتماعي social media ، مثل تقديم الذات عبر المنشورات والقصص، وتأثير "الإعجابات" والمشاركة في بناء نوع جديد من العلاقة مع الذات والآخر والمجتمع .

ب. الحدود بين الرقمي والنوعي:

طبقًا لمبادئ أساسية اقترحها Miller وHorst، يُنظر إلى الرقمي باعتباره امتدادًا للثقافة والممارسات البشرية، وليس انفصالًا عنها، ما يدفع الأنثروبولوجيا الرقمية إلى كسر الانقسامات الوهمية بين الحقيقي والافتراضي.

ت. ترويض التكنولوجيا:

يفسر هذا المفهوم كيف تتحول أدوات التكنولوجيا –مثل الهواتف الذكية أو الشبكات الاجتماعية– من أدوات غريبة إلى جزء من الحياة اليومية، ويتم التفاوض حول معانيها داخل الأسر والمجتمعات وتتحوّل إلى نمط عيش.

استنتاج عام:

تشكل الأنثروبولوجيا الرقمية جسرًا معرفيًا متينًا بين الإنسان والثقافة من جهة، وبين التكنولوجيا من جهة أخرى، فهي لا تكتفي بمجرد رصد التحولات التقنية، بل تتجاوز ذلك نحو استكشاف الكيفية التي يُعاد بها تشكيل وجود الإنسان في العصر الرقمي. إنها علم يستقصي تجليات الإنسان في الفضاءات الرقمية، ويتقصى الرموز والدلالات التي تنبثق عن تفاعلاتنا اليومية مع الآلات، ومع الآخرين من خلف الشاشات.

[1] هيذر أ هورست ودانييل ميلر، ***الأنثروبولوجيا الرقمية***، ترجمة: خالد الأشهب، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، البحرين، 2020، ص.53

فالأنثروبولوجيا الرقمية تسعى إلى مساءلة الأسئلة الكبرى التي طرحتها الحداثة الرقمية: كيف نُعرّف الذات حين تتعدد تمثلاتها بين الواقع والعالم الافتراضي؟ كيف تُبنى الهويات الرقمية وتُعاد صياغتها في ظل الانكشاف الدائم أمام جمهور لا مرئي؟ ما الذي يعنيه التواصل الإنساني حين تغدو اللغة مختزلة في رموز وصور ونقرات؟ وما طبيعة المجتمعات حين لا تجمعها الجغرافيا بقدر ما تجمعها الخوارزميات؟

وبالتالي ووفقا لذلك، تصبح الأنثروبولوجيا الرقمية أداة تحليلية لا غنى عنها لفهم الإنسان الجديد: الإنسان المُشبّك، المتصل دومًا، الذي يعيد تعريف مفاهيم الخصوصية، والانتماء، والعلاقات، والسلطة، والذاكرة الجمعية. فهي تدرس، على سبيل المثال، كيف تُمارس الطقوس الاجتماعية في البيئات الرقمية، وكيف تُبنى علاقات الحب والقرابة والصداقة، أو حتى كيف تُنظم الحركات الاجتماعية والاحتجاجات على منصات التواصل.

إنها أنثروبولوجيا تعيد التفكير في مفاهيم "المجتمع"، و"الزمن"، و"المكان"، و"الحضور"، لتُبرز كيف أن الواقع لم يعد محصورًا في المادة، بل صار ممتدًا إلى الشبكات. وفي عصر أصبحت فيه التكنولوجيا جزءًا بنيويًا من حياة الإنسان اليومية، لا أداة خارجية فحسب، تظهر الحاجة الملحة إلى هذا الفرع من الأنثروبولوجيا لفهم أن نكون بشرًا معًا سواء كنا في قرية نائية في العالم الفيزيقي، أو نعيش ضمن مجتمعات افتراضية عابرة للحدود على امتداد الفضاء الإلكتروني.

فالأنثروبولوجيا الرقمية لا تراقب فقط تحولات الإنسان، بل تُسهم في صياغة الوعي الجديد بالذات والعالم، وفي بناء سرديات جديدة للوجود الإنساني، تتجاوز ثنائية الواقعي والافتراضي، لتُعيد إلينا السؤال الأهم: من نكون في عصر أصبح فيه الإنسان كائنًا تكنولوجيًا بامتياز؟

الخاتمة:

تُعَدُّ الأنثروبولوجيا من أبرز العلوم الاجتماعية التي تبلورت عبر مسار طويل من التطور الفكري والمنهجي، حيث تسعى إلى دراسة الإنسان في شموليته، من حيث أبعاده البيولوجية، والثقافية، والاجتماعية، واللغوية.

إنّ هذا التخصص، الذي يجمع بين البُعد النظري والتحليل الميداني، يمثل أداة أساسية لفهم الديناميات المعقدة التي تحكم المجتمعات البشرية عبر الزمان والمكان.

وتميزت الأنثروبولوجيا منذ نشأتها باتساع نطاقها وتعدد مقارباتها، إذ تتفرع إلى أربعة مجالات رئيسية: الأنثروبولوجيا الثقافية التي تستكشف أنماط الحياة، والمعتقدات، والممارسات الاجتماعية؛ والأنثروبولوجيا اللغوية التي تحلل علاقة اللغة بالثقافة والتواصل الإنساني؛ والأنثروبولوجيا البيولوجية التي تبحث في التطور البشري والتكيفات البيولوجية؛ والأنثروبولوجيا الأثرية التي تدرس مخلفات الماضي لفهم التحولات الاجتماعية والثقافية عبر التاريخ.

ورغم تنوع مدارسها واتجاهاتها الفكرية، إلّا أنّ الأنثروبولوجيا تشترك في اعتمادها على مناهج بحثية نوعية، مثل الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات العميقة، والتحليل المقارن، مما يمنحها قدرة فريدة على إنتاج معرفة معمقة حول الظواهر الإنسانية.

كما أنها علم متداخل التخصصات، يستفيد من معطيات علم الاجتماع، والتاريخ، واللسانيات، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، ما يجعلها في موقع استراتيجي لفهم التحولات الكبرى التي يشهدها العالم المعاصر.

وفي ظل التغيرات المتسارعة، أضحت الأنثروبولوجيا ضرورة معرفية لفهم إشكالات العولمة، والهويات، والهجرة، والتعدد الثقافي، والصراعات الاجتماعية، إذ توفر أدوات تحليلية تساعد في تفكيك هذه الظواهر ورصد تأثيراتها على المجتمعات المختلفة. كما أنّ حضورها يتعزز في مجالات تطبيقية مثل التنمية، والسياسات العامة، والصحة، والتعليم، حيث تلعب دورًا جوهريًا في صياغة حلول مستدامة قائمة على فهم عميق للسياقات المحلية والثقافات المتعددة.

لتظل الأنثروبولوجيا علمًا متجددًا، يواكب التحديات المعرفية والإنسانية، ويعيد باستمرار مساءلة مسلماته وأدواته، مما يجعلها أكثر من مجرد تخصص أكاديمي، بل رؤية للعالم، تتبنى منظورًا نقديًا وإنسانيًا لفهم الوجود البشري في تعقيده وتشابكه بشكل شامل.

وبالتالي تعتبر الأنثروبولوجيا اليوم أكثر من مجرد حقل معرفي يعنى بدراسة الإنسان، إنها عدسة فكرية وممارسة منهجية تتجاوز التصنيفات التقليدية للعلوم، وتسعى لفهم الإنسان بما هو كائن متجذر في بيئة طبيعية وثقافية واجتماعية، ومتشابك ضمن علاقات معقدة من الرموز والمعاني والممارسات. هذا الانفتاح المفاهيمي الذي تتميز به الأنثروبولوجيا جعل منها علمًا ديناميكيًا، قادرًا على التفاعل مع تحولات الواقع، ومواكبة الأسئلة الوجودية الجديدة التي يفرضها التغير المتسارع في أنماط العيش والتفكير.

فالأنثروبولوجي لا يدرس فقط ما هو ملاحظ على السطح من عادات وتقاليد، بل يغوص عميقًا في البنى الثقافية التي تنتج هذه الممارسات، وفي الدلالات الرمزية التي تختزنها الأفعال اليومية. وبفضل هذا العمق التحليلي، تسهم الأنثروبولوجيا في كشف ما هو مسكوت عنه في الخطابات السائدة، وفي مساءلة التصورات النمطية حول الذات والآخر، والمركز والهامش، والحداثة والتقليد. إنها علم يعيد الاعتبار للتنوع الإنساني، لا بوصفه اختلافًا سطحيًا، بل باعتباره تعبيرًا عن تعدد السبل الممكنة للوجود الإنساني.

وفي عالم أضحى أكثر تداخلاً وتشابكًا، صارت الحاجة إلى الأنثروبولوجيا أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى. فعبر مقاربتها النوعية وسياقها التفسيري، تتيح لنا هذه المعرفة بناء فهم معمق للظواهر المتعددة التي تطبع المجتمعات المعاصرة، من حركات الهجرة واللجوء، إلى إعادة تشكيل الهويات في ظل العولمة، إلى النزاعات الثقافية المرتبطة بالسلطة والمعنى والانتماء. إنها تفتح أمامنا أفقًا لفهم الإنسان لا باعتباره كائنًا فرديًا معزولًا، بل ككائن اجتماعي وثقافي مشكَّل باستمرار عبر التفاعل مع محيطه ومع الآخرين.

وما يُميز الأنثروبولوجيا أيضًا هو قابليتها المستمرة للتجدد النظري والمنهجي، وقدرتها على التفاعل الخلاق مع التخصصات الأخرى. فبفضل انفتاحها على اللسانيات، والسيميولوجيا، والتحليل النفسي، والدراسات ما بعد الكولونيالية، والفلسفة السياسية، أصبحت الأنثروبولوجيا اليوم فضاءً خصبًا لتقاطعات فكرية خصبة، تعيد النظر في الأسئلة الكبرى حول الإنسان، السلطة، المعرفة، والتاريخ.

وعلى المستوى التطبيقي، فإن للأنثروبولوجيا حضورًا متزايدًا في ميادين التنمية والصحة العامة، وتصميم السياسات الثقافية والاجتماعية، حيث أضحى الفهم العميق للسياقات المحلية والممارسات الثقافية شرطًا أساسيًا لنجاح أي تدخل اجتماعي أو مشروع تنموي. كما تبرز الأنثروبولوجيا كأداة فعالة لفهم سلوك الجماعات، وتحديد حاجاتها الحقيقية، بما يضمن احترام الخصوصيات المحلية وتجنب فرض نماذج جاهزة مستوردة.

ومن هنا، تكتسب الأنثروبولوجيا المعاصرة طابعًا نقديًا وتحرريًا، إذ لا تكتفي بوصف المجتمعات، بل تسهم في نقد البنى الاجتماعية غير العادلة، وفي فضح الممارسات الإقصائية والتمثيلات التبخيسية التي غالبًا ما ترافق نظرة المركز إلى الهامش. إنها علم منحاز للإنسان، لا من حيث العاطفة، بل من حيث الالتزام بفهمه وفك رموز وجوده وتفاعلاته، وتفكيك آليات تهميشه وإعادة إنتاج تبعيته.

وعليه، فإن الأنثروبولوجيا لا تُعد مجرد علم عن الآخر، بل هي أيضًا علم عن الذات، عن الكيفية التي نفهم بها أنفسنا وعلاقتنا بالعالم. فهي تعلّمنا أن نرى العالم من زوايا متعددة، وأن نحتفي بالاختلاف لا كعائق، بل كغنى حضاري، وأن نتبنى رؤية شمولية تحترم التعقيد ولا تختزله في قوالب مسبقة.

إننا اليوم، في ظل ما يشهده العالم من أزمات بيئية، وهجرات جماعية، وتحولات رقمية، وصراعات هوياتية، نحتاج إلى الأنثروبولوجيا ليس فقط كأداة لفهم هذه الظواهر، بل كرافعة فكرية وأخلاقية تساعدنا على بناء مستقبل أكثر عدلاً وتنوعًا وتضامنًا إنسانيًا. فبقدر ما تظل الأنثروبولوجيا أمينة لماضيها الأكاديمي الغني، فإنها مدعوة إلى إعادة ابتكار ذاتها ومناهجها لتواكب تحديات الحاضر وأسئلته، وتجعل من المعرفة وسيلة للفهم، ومن الفهم مدخلًا للحوار، ومن الحوار شرطًا للعيش المشترك.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

أ. باللغة العربية:

- ابن بطوطة أبو عبد الله، ***رحلة ابن بطوطة***، دار التراث، بيروت، لبنان، 1968.
- ابن خلدون عبد الرحمان، ***العبر وديوان المبتدأ والخبر***، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
- ابن خلدون عبد الرحمان، ***مقدمة ابن خلدون***، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1966.
- أجنر فوج، ***الانتخاب الثقافي***، ترجمة: شـــوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، المشـــروع القومي للترجمة، العدد 609، 2005.
- البيهقي ظهير الدين أبو الحسن، ***تتمة صوان الحكمة***، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.
- بن عرفة إبراهيم، وعالية بشـــيرة، "***قراءة في أنثروبولوجيا الجزائر من 1830 إلى 1962***"، ***مجلة متون***، المجلد 12، العدد 2، 2019.
- بوحسـون العربي، ***"المقاربة التاريخو-أنثروبولوجية للاستعمار الفرنسي في الجزائر"(1962-1830)***، **المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية**، المجلد 1، العدد 1، 2015.
- الجوهري محمد، ***الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية***، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
- حاج ياســين رياض حمودة، ***أبو الريحان البيروني ونظرته إلى التاريخ***، ***مجلة كلية الآداب***، جامعة بنها، العدد 39، يناير 2015.
- الخطيب محمد، ***الأنثروبولوجيا الاجتماعية***، ط2، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2008.
- خشيم فهمي علي، ***نصوص ليبية***، دار مكتبة الفكر، طرابلس، 1967.
- خفاجة صقر محمد، ***هيرودوت يتحدث عن مصر***، دار العلم، القاهرة، 1966.
- رشـوان حسـين عبد الحميد أحمد، ***الأنثروبولوجيا في المجالية النظري والتطبيقي***، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003.
- سعيدي محمد، ***"الأنثروبولوجيا والتراث الشعبي في الجزائر: تاريخ ومسارات"***، موقع أرنتروبوس.
- الســاعاتي ســامية حســن، ***الثقافة والشـخصـية: بحث في علم الاجتماع الثقافي***، ط2، دار النهضـة العربية، بيروت، 1983.
- الشماس عيسى، ***مدخل إلى علم الإنسان: الأنثروبولوجيا***، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2004.
- غامري محمد حسن، ***مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة (علم الإنسان)***، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.
- قيسـي حسـن (مترجم)، ***الأناسـة المجتمعية وديانة البنائيين في نظرية الأناسـين***، تأليف: إفنز بريتشـارد، دار الحداثة، بيروت، 1986.
- لكلرك جيرار، ***الأنثروبولوجيا والاستعمار***، ترجمة: جورج كتورة، ط2، المؤسـسـة الجامعية للدراسـات والنشـر والتوزيع، بيروت، 1999.
- محمد الجوهري، ***الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية***، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
- محمد علي محمد، ***علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسـة في طرائق البحث وأسـاليبه***، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1981.
- معتوق جمال، ***الفروع والمداخل النظرية للأنثروبولوجيا***، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2016.

- معتوق فريديريك، ***معجم العلوم الاجتماعية (إنجليزي–فرنسي–عربي–أكاديمي)***، أكاديميا أنترناشيونال، بيروت، 1998.
- مهيبل عمر، ***من النسق إلى الذات: قراءات في الفكر الغربي المعاصر***، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002.
- موريس أنجرس، ***منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية: تدريبات عملية***، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.
- مصباح عامر، ***المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا***، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009.
- مصباح عامر، ***التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي لتلميذ المدرسة الثانوية***، دار الأمة، الجزائر، 2003.
- مؤنس محمد، ***الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها***، عالم المعرفة، الكويت، 1978.
- نبيل علي، *الثقافة العربية وعصر المعلومات*، الكويت، 2001.
- هورست هيذر، وميلر دانييل، ***الأنثروبولوجيا الرقمية***، ترجمة: خالد الأشهب، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، 2020.
- ولد خليفة محمد العربي، ***المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية***، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.
- زنقوفي فوزية، ***الأنثروبولوجيا: مضامين تاريخية ونظرية في علم الإنسان***، دار الأيام، عمّان، 2022.

ب. باللغة الأجنبية:

- BENRABAH, Mohamed. ***Language-in-Education Planning in Algeria: Historical Development and Current Issues***. Language Policy, 6(2), pp. 225–252, 2007.
- CASTELLS, Manuel. ***The Rise of the Network Society***. Oxford: Blackwell Publishing, 1996.
- COULDRY, Nick. ***Media, Society, World: Social Theory and Digital Media Practice***. Cambridge: Polity Press, 2012.
- HINE, Christine. ***Virtual Ethnography***. London: Sage Publications, 2000.
- HINE, Christine. ***Ethnography for the Internet: Embedded, Embodied and Everyday***. London: Bloomsbury Academic, 2015.
- HORST, Heather A., & MILLER, Daniel (eds.). ***Digital Anthropology***. London: Berg, 2012.
- KAPLAN, Andreas M., & HAENLEIN, Michael. ***Users of the world, unite! The challenges and opportunities of Social Media***. Business Horizons, 53(1), pp. 59–68, 2010.
- LÉVY, Pierre. ***Cyberculture***. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000.
- LÉVY, Pierre. ***Collective Intelligence: Mankind's Emerging World in Cyberspace***. New York: Plenum, 1997.
- MILLER, Daniel, & SLATER, Don. ***The Internet: An Ethnographic Approach.*** Oxford: Berg Publishers, 2000.

- PINK, Sarah; HORST, Heather A.; POSTILL, John; HJORTH, Larissa; LEONARD, Sarah & TACCHI, Jo. ***Digital Ethnography: Principles and Practice***. London: Sage Publications, 2016.
- TUFTE, Edward. ***The Cognitive Style of PowerPoint: Pitching Out Corrupts Within*.** Cheshire, CT: Graphics Press, 2003.
- VAN DIJK, Jan A.G.M. ***The Network Society***. 3rd Edition. London: Sage Publications, 2012.